



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر
عليه السلام
اصبهان

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مِيقَاتُ الْحَجِّ

تَهْدِيَةُ سَكْرَتَيْ فَنِّ وَالشُّرُورِ الْفَاعِلِيَّةِ

وَالشَّرِيحَةِ وَالرَّسَائِلِ وَالْإِحْيَاءِ الْعَرَبِيِّ وَالسَّحْرِ

٣٤



- الحج - رموز وجنم الحيا ■ صلاة الطواف ومكانها ■
- قلبات معاصرة في الحج ■ ٢٣ ■ قلب الجدل في الحج ■ ٢٤ ■
- صلوات من تاريخ المدينة المنورة ■
- حكايات من منة المكرمة ■ أسماء بنت عميس، داعية لعنق ■
- الرحلة النبوية للعلامة السيد محسن الأمين ■
- منة المكرمة دراسة في جغرافية المدن ■

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مركز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

٥	الفهرس
٦	ميقات الحج-المجلد ٣٤
٦	اشارة
٦	اشارة
٨	الإله فى كلمة الإخلاص
٢٥	الحج و أبعاده التربوية والإجتماعية
٣٨	عدم اشتراط المَحْرَم فى حج المرأة
٦٠	إخراج غير المسلم من الجزيرة العربية دراسة فقهية استدلالية
٨٦	الإحصار فى الحج والعمرة
١٣٥	الحج فى الأدب العربى
١٣٧	مقتطفات من كتاب: الأماكن المأثورة المتواترة فى مكة المكرمة «٣»
١٩٥	تعريف مركز

میقات الحج-المجلد ۳۴

اشاره

عنوان و نام پدیدآور : میقات الحج : مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیهمحمد محمدی ری شهری.

مشخصات نشر : [بی جا: بی نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهری : ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.

شابک : ۵۰۰۰ ریال

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی توصیفی

یادداشت : عربی.

یادداشت : شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.

یادداشت : پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.

یادداشت : کتابنامه.

شناسه افزوده : محمدی ری شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

شناسه افزوده : قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -

شماره کتابشناسی ملی : ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

اشاره

الإله في كلمة الإفلاص

ص: ٣

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

إن المسلمين في زيارتهم البيت الحرام يذكرون موقفاً خالداً لنبههم العظيم حيث وقف ذات يوم على صخرة في جبل الصفا منادياً بصوت عال، وقال: «أرأيتمكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم مصدقني؟» قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم من بين يدي عذاب شديد ... ثم دعاهم إلى كلمة التوحيد، وقال: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»

فاستجاب لدعوته قليل من الناس ورفض الأكثرون، ولكن دعوته انتشرت بفضل الله تعالى في مكة والقبائل المحيطة بها، إلى أن عمّت غالب أرجاء الدنيا.

فعلى المسلمين أن يعيدوا النظر في فهمهم لمعنى كلمة التوحيد.

وهذا المقال يتكفل بتبيين مفهوم الإله، في هذه الكلمة المباركة.

معنى «الإله» في الذكر الحكيم

المشهور أنّ «الله» أصله «إله» فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام، فخصّ بالباري، ولتخصّصه به قال تعالى: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا. (١) والمهم هنا، هو تفسير لفظ الإله، وتبيين معناه، وقد فسّر بوجه سبعة، إليك بيانها:

ص: ٤

١. مشتق من الألوهية التي هي العبادة، فإن التأله، هو التعبد. يقال: فلان متأله، أى متعبد، قال رؤبه:

لله در الغانيات المدة (١) لئما رأين حليى المموه

سبحن واسترجعن من تألهى

أى من تعبدى. ويقال: أله الله فلان إلهه، كما يقال: عبده عبادة. (٢) فعلى هذا يكون معناه: الذى يحق له العبادة.

٢. مشتق من الوله وهو التحير، يقال: أله يأله إذا تحير.

٣. مشتق من قولهم: ألّهت إلى فلان أى فرعت إليه، لأن الخلق يألهون إليه، أى يفرعون إليه فى حوائجهم.

٤. مشتق من ألّهت إليه أى سكنت إليه، لأن الخلق يسكنون إلى ذكره.

٥. مشتق من لاه أى احتجب. والمعنى أنه سبحانه المحتجب بالكيفية عن الأوهام، الظاهر بالدلائل والأعلام. (٣) ٦. مشتق من أله

الفصيل إذا ولع بأمه. والظاهر أنه يرجع إلى التفسير الثالث، أى أنه مشتق من أله بمعنى «فرع».

٧. مشتق من «لاه» إذا ارتفع، والله سبحانه وتعالى هو المرتفع عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات. (٤) والحق أنه لا صلة لهذه

المعانى لما وضع له لفظ «إله» وإنما هى من لوازم المعنى، لا نفسه ولا جزءه، بل لازماً له، لأن من كان إلهاً- بالمعنى الذى نذكره-

للعالمين، يُعبد وتتحير العقول فى درك كنهه، وتسكن إليه النفس، ويُحتجب عن الأوهام، وإن كان وجوده ظاهراً بالدلائل والبرهان.

ما هو المختار؟

إن لفظ الجلالة وما يعادله فى عامّة اللغات موضوع لما يتبادر فى عامّة الأذهان بصورة إجمالية من كونه مصدر الخلق والكون الذى

١- المدة، جمع مده، وهو المادح.

٢- التبيان فى تفسير القرآن ٢٨: ١.

٣- مجمع البيان ١٩: ١.

٤- تفسير الرازى ١٥٨: ١- ١٦١.

ص: ٥

يعبر عنه في لسان الحكماء والمتكلمين بواجب الوجود، أو الذات الجامعة لصفات الجمال والجلال، إلى غير ذلك من الكلمات التي هي تعبير تفصيلي لما هو المتبادر عند عامّة الشعوب.

ثم إنّ الوثنيين اخترعوا لله سبحانه أنداداً وأشباهاً على درجات مختلفة من الكمال والجمال، وتفويض الأمور إليهم، وإن كانت هي مجرد أسماء ليس لها من الألوهية شيء سوى الاسم، يقول سبحانه: **إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ. (١)** فإذا حاول العرب أن يشيروا إلى هذه الآلهة المزعومة مع ما لها من درجات ومراتب مختلفة من القرب والبعد عن الله سبحانه يطلقون عليها لفظ الآلهة، وعلى هذا فلفظ الجلالة علم لمصداق كامل لمفهوم الإله، ولكن لفظ الإله موضوع لمعنى كلي يشملها وسائر الآلهة المزعومة التي ليست على درجة واحدة من الكمال والجمال؛ فربما يكون إلهاً ولا يكون خالقاً ورازقاً، بل يكفي في كونه معزراً أو ناصرراً أو غافراً للذنوب، أو مفوضاً له شيء من أفعاله سبحانه.

وليس من البعيد أن لفظ (إله) مأخوذ من كلمة (يهوه) و «ادوناي» ... يقول مؤلف قاموس الكتاب المقدس: فالاسم الثاني يدل على علاقة الله مع بني إسرائيل وهو إله تابوت العهد، وإله الرؤيا، والاعلان، وإِنَّهُ الْفِدَاء. (٢)

والقرآن الكريم إذا أراد أن يشير إلى الفرد المعين من الكلي يستعمل لفظ الجلالة «الله»، وإذا أراد أن يشير إلى المعنى الكلي الشامل لهذا الفرد وغيره، الذي له درجات ومراتب يستعمل لفظ «إله» كما يقول سبحانه - ناطقاً عن لسان المشركين - : **أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ. (٣)**

١- النجم: ٢٣.

٢- قاموس الكتاب المقدس: ١٠٧.

٣- سورة ص: ٥.

ص: ٦

ولذلك نرى أنه في بعض اللغات العالمية يفرّقون بين مفاد لفظ الجلالة، ومفاد «الإله» ويعبرون عن المعنيين بلفظ واحد إلا أنّهم يفرّقون بينهما في الكتابة، فعندما يشيرون إلى «الله» يكتبونها بالشكل التالي: (God)

، وعند الإشارة إلى المعنى الكلى لهذا الفرد يكتبونها بالنحو التالي: (God)

هذا هو المدعى، والدليل عليه بوجوه:

الأول: مادة اللفظين واحدة

إنّ مادة اللفظين واحدة، فكيف يفترقان في المعنى؟ والدليل على ذلك قولهم: إنّ «الله» مشتق من لفظ «إلاه».

قال سيوييه في تفسير لفظ الجلالة: إنّ أصله «إلاه» على وزن فعال، فحذفت الفاء التي هي الهمزة، وجعلت الألف واللام عوضاً لازماً عنها، بدلالة استجازتهم قطع هذه الهمزة الداخلة على لام التعريف في خصوص النداء في نحو قوله: «يا الله اغفر لي»، ولو كانت غير عوض لم تثبت الهمزة في الوصل كما لم تثبت في غير هذا الاسم. (١)

فإذا كانت المادة واحدة فيكون لفظ الجلالة بالمعنى الموجود في مادته علماً للشخص؛ ومن المعلوم أنّ لفظ الجلالة حاك عن الصفات الجلالية والجمالية أو ما أشبه ذلك، فيجب أن تكون مادته حاكية عن هذه المعاني كلها، لا عن معنى المعبود أو غيره من المعاني السبعة فقط.

الثاني: الاحتجاج بعدم وجود إله غير الله

إنّ سبحانه حينما يستدل على التوحيد وأنّه لا إله إلا الله فإنّه يستخدم كلمة الإله ويقول:

١- لاحظ: مجمع البيان ١٩: ١.

ص: ٧

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ فَتَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَشْكُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلٍ تَبْصِرُونَ. (١) ترى أنه سبحانه يعدُّ تدبير العالم على نحو يعيش الإنسان فيه عيشاً رغيذاً من شؤون الإله، ولذلك يقول: مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ. أو يقول: مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ فهذا تصريح بأن التصرف في الكون من شؤون الإله، ثم يردُّ على المشركين بأن التصرف في الكون وإن كان من شؤون الإله إلا أنه لا إله إلا الله.

فلو وضعنا «الخالق البارئ» وغيرها مما يعدُّ تفسيراً للمعنى الإجمالى للإله، مكانه: لانسجم معنى الفقرة، بأن يقال: لا خالق ولا بارئ ولا مدبر غير الله، لانسجمت.

وأما لو جعلنا المعبود مكانه، لاختلفت بلاغة الآية، كأن نقول: هل معبود إله الله يأتيكم بالنهار أو بالليل؟ إذ ليس التصرف في الكون على النحو البديع من شؤون المعبود، وما أكثر المعبودين ولكنهم لا ينفعون ولا يضررون.

وبعبارة أخرى: إن التصرف في الكون وتنظيم أسباب الحياة من شؤون من بيده الكون ومصير الإنسان، فكأنه سبحانه يقول: لو اختلف النظام بأن دام النهار أو دام الليل فأى إله (من بيده الكون) يأتي بالضياء بعد الليل، أو به بعد النهار، وليس هو إلا الله، وأما لو قلنا بأنه بمعنى المعبود يكون المعنى كالتالى: فأى معبود يأتي بالضياء بعد الليل أو العكس؟

ومن المعلوم أن التصرف في الكون ليس من شؤون مطلق المعبود، وإنما هو من شؤون من بيده الكون إيجاباً وتديراً؛ فيكون الإله في الآيتين بمعنى المتصرف في الكون والمدبر، وما يرادفه.

الثالث: الاستدلال على التوحيد بلزوم الفساد عند تعدد الآلهة

ص: ٨

استدل سبحانه على التوحيد في الربوبية بآيات منها:

١- قوله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا. (١) فَإِنَّ الْبِرْهَانَ عَلَى نَفْيِ تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ لَا يَتِمُّ إِلَّا إِذَا قُسِّرَ «الِإِلَه» فِي الْآيَةِ بِالْمَتَصَرَفِ الْمَدْبَّرِ، أَوْ مِنْ بِيَدِهِ أَرْزَمِيَّةُ الْأُمُورِ، أَوْ مَا يَقْرَبُ مِنْ هَذَيْنِ؛ وَلَوْ جَعَلْنَا الْإِلَهَ بِمَعْنَى الْمَعْبُودِ لانتقض البرهان، لبداهة تعدد المعبود في هذا العالم، مع عدم الفساد في النظام الكوني، وقد كانت الحجاز يوم نزول هذه الآية مزدحمة بالآلهة ومركزاً لها، وكان العالم منتظماً، غير فاسد.

وعندئذٍ يجب على من يجعل «الإله» بمعنى المعبود أن يقتريده بلفظ «بالحق» أي لو كان فيهما معبودات - بالحق - لفسدتا، ولما كان المعبود بالحق مدبِّراً و متصرفاً، لزم من تعدده فساد النظام، وهذا كله تكلف لا مبرر له، والدليل على ذلك عدم خطوره عند سماعه.

٢- قوله سبحانه: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. (٢) ويتم هذا البرهان أيضاً إذا فسّرنا الإله بما ذكرنا من أنه كلّي ما يطلق عليه لفظ الجلالة؛ وإن شئت قلت: إنه كناية عن الخالق، أو المدبّر المتصرف، أو من يقوم بأفعاله وشؤونه؛ والمناسب في هذا المقام هو الخالق، ويلزم من تعدده ما ربّب عليه في الآية من ذهاب كلّ إله بما خلق، واعتلاء بعضهم على بعض.

ولو جعلناه بمعنى المعبود لانتقض البرهان، لأنه لا يلزم من تعدده أي اختلال في الكون، وأدلّ دليل على ذلك هو المشاهدة، فإن في العالم آلهة متعددة، وقد كان في أطراف الكعبة المشرفة ثلاثمائة وستون إلهاً، ولم يقع أيّ فساد واختلال في الكون. فيلزم على من يفسر (الإله) بالمعبود ارتكاب التكلف بما ذكرناه في الآية المتقدمة؛ وما ربّما يتصور من غلبة استعمال الإله في

١- الأنبياء: ٢٢.

٢- المؤمنون: ٩١.

ص: ٩

المعبود بالحق، فلاحاجة إلى تقديره. مدفوع، باستعماله - كثيراً في غيره - كقوله: اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا. (١) ٣- قوله سبحانه: قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا. (٢) فإن ابتغاء السبيل إلى ذى العرش من لوازم تعدد الخالق، أو المدبر المتصرف، أو من بيده أزمّة أمور الكون، أو غير ذلك مما يرسمه في ذهننا معنى الألوهية. وأما تعدد المعبود فلا يلزم ذلك إلّا بالتكلف الذى أشرنا إليه فيما سبق.

الرابع: الملازمة بين الألوهية وعدم ورود النار

قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ* لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا.... (٣) والآية تستدل بورود الأصنام والأوثان فى النار على أنها ليست آلهة، إذ لو كانوا آلهة ما وردوا النار.

والاستدلال إنما يتم لو فسّرنا الآلهة بما أشرنا إليه، فإن خالق العالم أو مدبره والمتصرف فيه أو من فوض إليه أفعال الله، أجل من أن يُحكّم عليه بالنار أو أن يكون حصب جهنم.

وهذا بخلاف ما إذا جعلناه بمعنى المعبود، إذ لا ملازمة بين كونها معبودات وعدم كونها حصب جهنم، وعندئذ لا يتم البرهان، إلّا إذا قيد المعبود بقيد أو قيود ترفعه إلى حدّ القداسة المطلقة، وهذا تكلف واضح؛ ولو أمعنت فى الآيات التى ورد فيها لفظ الإله والآلهة لقدرت على استظهار ما اخترناه.

١- سورة ص: ٥: لاحظ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذى وصفه محمّد فؤاد عبدالباقي المصرى، فقد استعمل فى كثير من الآيات فى مورد المعبود الباطل، لو سلّمنا وضعه للمعبود. ولذلك قلنا فى «مورد المعبود الباطل» لا فى معناه.

٢- الإسراء: ٤٢.

٣- الأنبياء: ٩٨ - ٩٩.

ص: ١٠

الخامس: لزوم اختلال المعنى لو فسر بالمعبود

قوله سبحانه: **فَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ**. (١) فلو فسّر الإله في الآية بالمعبود لزم عدم صحة المعنى، إذ المفروض تعدد المعبود في المجتمع البشري، ولأجل دفع هذا ربما يقيّد الإله هنا بلفظ «الحق» أى المعبود الحقّ إله واحد؛ ولو فسّرناه بالمعنى الإجمالى الذى له آثار في الكون من التدبير والتصرف، وإيصال النفع، ودفع الضرّ على نحو الاستقلال، لصحّ حصر الإله- بهذا المعنى- في واحد، بلا حاجة إلى تقدير كلمة بيانية محذوفة، إذ من المعلوم أنّه لا إله في الحياة الإنسانية، والمجتمع البشري يتصف بهذه الصفات التى ذكرناها إلّا الله سبحانه.

ولا نريد أن نقول: إنّ لفظ «الإله» بمعنى الخالق المدبّر المحيى المميت الغافر على وجه التفصيل، إذ لا يتبادر من لفظ «الإله» إلّا المعنى الإجمالى، بل هذه الصفات عناوين تشير إلى المعنى الذى وضع له لفظ الإله؛ ومعلوم أنّ كون هذه الصفات عناوين مشيرة إلى ذلك المعنى الإجمالى، غير كونها معنى موضوعاً له اللفظ المذكور، كما أنّ كونه تعالى ذو سلطة على العالم كله أو سلطة مستقلة غير معتمدة على غيره، وصف نشير إليه بالمعنى الإجمالى الذى نتلقاه من لفظ «الله»، لا أنّه نفس معناه.

السادس: استعمال لفظ الجلالة مكان الآخر

ربّما يستعمل لفظ الجلالة مكان الإله، ويتجرّد عن معنى العلميّة ويبقى فيه معنى الوصفية، فلذلك يصح استعماله مكان الإله، وإليك بعض مواردّه:

قال سبحانه: **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ**. (٢) فالآية تشير إلى أنّ إله

١- الحج: ٣٤.

٢- الأنعام: ٣.

ص: ١١

السماء هو إله الأرض، وليس هناك آلهة بحسب الأنواع والأقوام، فالضمير «هو» مبتدأ ولفظ الجلالة خبر، والمعنى هو المتفرد بالإلهية في السماوات، فوزانها وزان قوله سبحانه: وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ. (١) فَإِنَّ اللَّفْظَيْنِ فِي الْآيَتَيْنِ بمعنى واحد، بمعنى أن لفظ الجلالة في الآية الأولى خرج عن العلمية وعاد إلى الكلية والوصفية، ولذلك صحَّ جعله مكان الإله في الآية الأولى، وجيء بنفس لفظ الإله في الآية الثانية.

السابع: معنى «الإله» في تثليث النصارى

حكى القرآن الكريم عقيدة النصارى في الله سبحانه، وهي ما تُعرف بعقيدة التثليث، وتتلخص في وجود ثلاثة أقانيم، هي: الأب، والابن، والروح القدس، أي أن هناك إلهاً أباً، وإلهاً ابناً، وإلهاً باسم: الروح القدس.

وهذا القول لا يخلو من أمرين: إما أن يكون كل واحد من هذه الأقانيم الثلاثة جزءاً تشكّل وجوده سبحانه، وعندئذ تُصبح له شخصيته واحدة ذات أجزاء، أو أن يكون كل واحد منها ذا شخصيته مستقلة؛ وعلى كل تقدير فالجميع عندهم إله، يقول سبحانه: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢) ثم قال سبحانه: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَما مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. (٣) ففي الآية الأولى يحكى عنهم قولهم أن الله هو المسيح بن مريم، فالمسيح عندهم هو الله المتجسد.

١- الزخرف: ٨٤

٢- المائدة: ٧٢.

٣- المائدة: ٧٣.

ص: ١٢

وردّ عليهم في نفس الآية بأنّه كيف يصحّ ذلك مع أنّ المسيح لا يأمر الناس بعبادته، بل بعبادة غيره، وذلك بقوله: اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ؟

وفي الآية الثانية يحكى سبحانه عنهم اعتقادهم بالآلهة الثلاثة، فكل من الأب والأبن والروح القدس عندهم إله، ويردّ عليهم بأنّه لا إله إلّا إله واحد.

أمّا كيفية الاستدلال على أنّ الإله في هذه الآيات وما يليها ليس بمعنى المعبود أو غيره من المعاني السبعة، بل أريد به ما يُراد من لفظ الجلالة بتجريده عن العلميّة، فواضحة لدى التدبّر، بشرط أن نقف على مغزى الاختلاف بين الموحّد وأهل التثليث، إذ ليس مصب الاختلاف بينهم، وحدة المعبود أو تعدّده، وإنّما هو لازم نزاع آخر يرجع إلى وحدة ذات الواجب أو تعدّدها، فإذا قال سبحانه: إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ (١)، فلا يريد أنّه معبود واحد ليس له ولد، وإنّما يريد بساطة ذات الله و وحدتها. وإذا قالت النصارى إنّ الله ثالث ثلاثة، فمرادهم أنّه ثالث الآلهة وأنّ الواجب جلّ اسمه أو ما يشار إليه بلفظ الجلالة، آلهة ثلاثة، لا إله واحد، فإذا ردّ عليهم سبحانه بقوله: وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ يُرِيدُ وَحْدَةَ الذَّاتِ وَبَسَاطَتِهَا.

فالإله في كلام كل من الطرفين يشير إلى تلك الذات المقدسة، فيكون مرادفاً للفظ الجلالة، لكن بشرط تجريدها عن العلميّة. ولو فسّر لفظ (الإله) في هذه الموارد بوحدة المعبود أو كثرته، لزم غصّ النظر عما هو موضع النزاع لبأ عبر قرون. ومنه يظهر مفاد الإله في الآية التالية، إذ لا محيص من تفسيره بالمعنى المختار الذي يعبر عنه بواجب الوجود، الخالق، البارئ، إلى غير ذلك من الصفات.

قال سبحانه: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ

ص: ١٣

أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. (١) وذلك أن علماء النصارى يتبنون التثليث، وينسبونه إلى عيسى بن مريم، وأنه دعا إلى إلهين آخرين من دون الله، وهما نفسه وأمه. ومن المعلوم أن النفي والإثبات يردان على موضوع واحد وهو ادعاء النصارى أن ثمة إلهين وراء الله سبحانه، هما: المسيح وأمه، ورد سبحانه على تلك المزعمة بأن الإله واحد لا غير.

فعندئذ لا يمكن تفسير الإله بمعنى المعبود، إذ الكلام يتعلق بمقام الذات، وأنه كثير أو واحد، لا بموضع المعبودية. ونظيرها الآية التالية، قال سبحانه: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا. (٢) وحصيلة الكلام هو أن الاختلاف والنزاع بين أهل التوحيد وأهل الكثرة راجع إلى وحدة ما يشار إليه بلفظ الجلالة أو تعدده؛ وأنه هل هو هوية بسيطة واحدة، أو هي مركبة، أو متعددة يعبر عنها بالإله الأب، والإله الابن، والإله الروح القدس.

فحقيقة النزاع عبارة عن دراسة مسألة غامضة، وهي أن جوهر الذات شيء واحد أو هي أشياء؟ فمن السداجة أن نعبر عن واقع النزاع بوحدة المعبود وتعدده، فإذا قيل: الإله الواحد، أو ثالث الآلهة، فلا يُراد عندئذ إلا ما يُشار إليه بلفظ الجلالة الذي تشير إلى الذات المستجمعة لصفات الجمال والجلال، ولكن بقيد تجريده عن العلمية.

١- المائدة: ١١٦.

٢- النساء: ١٧١.

ص: ١٤

الثامن: وقوع قوله: «لا إله إلا هو» تعليلاً لحصر الشؤون

قد وقع قوله: «لا إله إلا هو» في الآيات التالية تعليلاً لحصر الراقية، وربوبية المشرق والمغرب، ومالكية السماوات والأرض في الله سبحانه، ولا يصح كونه علماً للحصر المذكور إلا إذا أريد به المعنى الإجمالي الملازم للخالية والربوبية والمالكية، فعندئذ يصلح أن يقع تعليلاً، لما تقدمه من حصر الأمور المذكورة في الله.

١. هَيْلٌ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ. (١) فصدر الآية ينفي أى خالق غير الله يرزق الناس، وذيلها أعنى قوله: لا إله إلا هو بمنزلة التعليل له، ولا يصح تعليلاً إلا إذا أريد به ذلك المعنى السامى الملازم للشؤون، فكأنه يقول «إذا لم يكن إله - بهذا المعنى - فلا خالق يرزق الناس إلا الله».

٢. رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا. (٢) إن صدر الآية يصفه سبحانه بكونه رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، أى رب عالم الشهادة، ثم يأتى بقوله: لا إله إلا هو تعليلاً لما تقدم، ولا يصح ذلك إلا بتفسير الإله بالمعنى السامى الذى يدل عليه لفظ الجلالة، لكن مجرداً عن العلميه، فيكون المعنى: إذا لم يكن خالق مدبر و...، إلا الله، فهو رب السماوات والأرض و... ثم عطف عليه قول: فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا لأنَّ اتخاذا الوكيل بمعنى إيكال الأمور إليه من شؤونه سبحانه.

٣. الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ. (٣) وكيفيه الاستظهار هو نفس ما تقدم فى الآيتين المتقدمتين، فلا يصلح قوله: لا إله إلا هو تعليلاً لما سبق إلا إذا أريد بالإله المعنى الإجمالي السامى الملازم للخالية والراقية والربوبية وغيرها، فإذا كانت هذه الشؤون منحصرة فى الله سبحانه، فله ملك السماوات والأرض.

١- فاطر: ٣.

٢- المزمّل: ٩.

٣- الاعراف: ١٥٨.

ص: ١٥

التاسع: مفهوم الإله عند الوثنيين

يظهر من بعض الآيات أنّ الإله عند المشركين عبارة عن ينصر العبدّة في الشدائد والملّمات، ويورث لهم عزّاً في الحياة. قال سبحانه حاكياً عند عقيدتهم: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ. (١) وقال عزّ من قائل: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. (٢) وكانوا يسوّون بين الله والآلهة، يقول سبحانه حاكياً عن قولهم يوم القيامة: تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذِ نُسَِّئُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. (٣) فإذا كانت الآلهة المزعومة عند المشركين هو الناصر في الشدائد وواهب العزة، وفي مستواه سبحانه، فلا يراد بها عند الاطلاق إلّا ما يراد من لفظ الجلالة مجردة عن العلمية.

ولذلك يردّ عليهم سبحانه في غير واحد من الآيات بأنّ الآلهة لا يملكون من شؤونه سبحانه شيئاً. ويقول سبحانه وتعالى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ. (٤) والآية تدل على أنّ من شؤون الإله هو الخلق، والاصنام فاقده له.

ويقول سبحانه وتعالى: أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِمَّا يُصْرَبُونَ. (٥) والآية تدل على أنّ من شؤون الإله هو القدرة والدفاع عن نفسه وعن عبده، وآلهتهم تفقد هذه اللوازم والشؤون.

١- يس: ٧٤.

٢- مريم: ٨١.

٣- الشعراء: ٩٧-٩٨.

٤- الفرقان: ٣.

٥- الأنبياء: ٤٢.

ص: ١٦

فالآيتان تدلان على أنه كلما أطلق الإله لا يتبادر منه إلّا من يملك هذه الشؤون- لا مجرد كونه معبوداً- ولذلك رد الوحي الإلهي وصفهم أو أصنامهم بالالوهية، بعدم وجود هذه الشؤون فيها.

انتقال هُبل إلى مكة

ويوضح مكانة الأوثان عندهم ما نقله ابن هشام في سيرته يقول: أن عمرو بن لُحَيّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب في أرض البلقاء، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنشتمطرها فتطّطّرنا، ونشتنصرها فتتنصرنا؛ فقال لهم: أفلا تُعْطُونِي مِنْهَا صِيْماً، فأسيرَ به إلى أرض العرب، فيعبدوه؟ فأعطوه صِيْماً يقال له هُبل، فقدم به مكّة، فنصّبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. (١) فإذا كان الإمطار عند الجفاف، والإنصار في الحروب والشدائد من شؤون الإله المزعوم، فيكون المتبادر منه هو نفس ما يتبادر من لفظ الجلالة، مجرداً عن العلمية.

العاشر: الإله في كلام الإمام على ٧

ومما يؤيد ما ذكرناه من عدم الفرق بين الإله، ولفظ الجلالة إلّا بالكلية والجزئية، كلام الإمام أميرالمؤمنين (ع) في نقد كون كلامه سبحانه قديماً، بأنه لو كان كذلك، لكان إلهاً ثانياً؛ وإليك نصّه:

يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، لا بصورت يُقرع، ولا ببناء يُسمع، وإنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثّله، لم يكن من قبيل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً. (٢) أى لو كان قديماً، لكان واجب الوجود، أو ما يفيد ذلك، ولا معنى لتفسير الإله بالمعبود، أى لكان إلهاً معبوداً ثانياً.

١- السيرة النبوية: ٧٧.

٢- نهج البلاغة الخطبة ١٨٦.

ص: ١٧

وفي بعض كلماته أيضاً، إشارة إلى ما ذكرنا، حيث قال:

أَلَجِي نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ. (١) وقال أيضاً: وَإِذَا قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالِشَّعَانَةِ بِالْهَيْكَلِ. (٢)

حصيلة البحث:

١. ليس للإله إلّا معنى واحد، وهو نفس ما يفهم من لفظ الجلالة، لكن مجرداً عن العَلَمِيَّة.

٢. إن تفسير الإله بالمعاني السبعة أو الأكثر تفسير باللوازم والآثار للإله، لنفس معناه.

٣. لفظ الإله ليس بمعنى الخالق المدبّر المحيي المميت الغافر، إذ لا يتبادر من لفظ الإله إلّا المعنى البسيط، بل هذه الصفات عناوين تشير إلى المعنى الموضوع له لفظ الإله، ومعلوم أن كون هذه الصفات عناوين مشيرة إلى ذلك المعنى البسيط، غير كونها معنى موضوعاً للفظ المذكور؛ فتدبر.

تصحيح خطأ في الاصطلاح

إن لتوحيده سبحانه مراتب:

منها: التوحيد في الخالقية، بمعنى أنه لا خالق إلّا هو، يقول سبحانه: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ. (٣) ومنها: التوحيد في الربوبية، بمعنى أنه سبحانه مدبّراً للكون بعد خلقه له.

إن الوثنيين في جزيرة العرب لم يكونوا يعانون من أى انحراف في مسألة التوحيد في الخالقية، وكانوا يعتقدون بأنه ليس في الكون سوى خالق واحد، بيد أن بعضهم أو أكثرهم كانوا يعانون في توحيد

١- نهج البلاغة، قسم الرسائل، رقم ٣١.

٢- المصدر نفسه.

٣- فاطر: ٣.

ص: ١٨

الربوبية، حيث يعتقدون بأن الله سبحانه فوض تدبير بعض أمور الكون إلى الملائكة، والجن، والكواكب، والأرواح المقدسة، إلى غير ذلك، فجاء القرآن يركز على التوحيد في الربوبية، مضافاً إلى التوحيد في الخالقية، قال سبحانه: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. (١) وقال عز وجل: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ. (٢) فقله: يُدَبِّرُ الْأُمْرَ إشارة إلى التوحيد في الربوبية، وتدبير الكون بعد ايجاده، وأنه سبحانه يقوم به فقط.

حتى أنه سبحانه استدلل على التوحيد في الربوبية، بأن تعدد الآلهة يوجب الفساد، وقال: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٣)، و مثلها قوله سبحانه: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. (٤) وبذلك أثبت أن المدبر واحد مضافاً إلى وحده الخالق، هذا من جانب ومن جانب آخر كلما أطلق (الرب) يراد به: مَنْ فَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَ الشَّيْءِ مِنْ حَيْثُ الْإِصْلَاحِ وَالتَّوْبَةِ وَالتَّوْبَةِ، رَبُّ الضَّيْعَةِ، لِمَنْ عَلَيْهِ إِصْلَاحُهَا وَرِعَايَتُهَا؛ ويقال: رَبُّ الدَّارِ، لِمَنْ عَلَيْهِ حِفْظُهَا وَتَصْلِيحُ خَرَابِهَا؛ وقد أطلق يوسف (ع) كلمة الرب على عزيز مصر، حيث قال: إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ (٥)، كما أنه سبحانه وصف اليهود والنصارى بأنهم: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (٦)، وقال عبدالمطلب لإبرهه «أنا رب الإبل ولليبت رب».

١- يونس: ٣.

٢- الرعد: ٢.

٣- الأنبياء: ٢٢.

٤- المؤمنون: ٩١.

٥- يوسف: ٢٣.

٦- التوبة: ٣١.

ص: ١٩

وهذه الفقرات ترشدنا إلى معنى الرب وأنه دون الخالق.

إذا علمت ذلك فلنقف على الخطأ في الاصطلاح الذي وقع فيه ابن عبد الوهاب ومن والاه، حيث فسّر التوحيد في الربوبية بالخالقية، والتوحيد في الإلهية بمعنى العبادة، فقال في كتاب (تسع رسائل): إذا قيل لك: إين الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية؟ فقل: توحيد الربوبية فعل الرب، مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وإنزال المطر وإنبات النبات وتدبير الأمور.

وتوحيد الإلهية فعلك أيها العبد مثل الدعاء والخوف والرجاء والاستغاثة، وغير ذلك من أنواع العبادة. (١) ترى أنه فسّر الربوبية بالخالقية، ولكنه عطف عليها ما هو داخل في الربوبية؛ كما أنه فسّر الإلهية بالعبادة، وقد علمت أن الإله وما يشق منه يراد منه معنى سام له مصاديق مختلفة يجمعها كلها (إله).

فعلى ما ذكرنا في وضع الاصطلاح التعبير بالخالقية مكان الربوبية، والتوحيد بالعبادة مكان الإلهية.

تمت الرسالة ظهيرة يوم الخامس والعشرين،

من شهر رمضان المبارك من شهر عام ١٤٣١ هـ

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

١- تسع رسائل، الرسالة الخامسة: ٤١. طبعه القاهرة.

الحج و أبعاده التربوية والإجتماعية

السيد على قاضى عسكر

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ). (١) الحج هو زيارة بيت الله الحرام (٢)، الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً وقبله يتوجه نحوها جميع المسلمين فى عباداتهم (٣)، والطريق المؤدى إلى غفران الرحمن والدخول إلى جنة الرضوان. (٤) ولقد كان الحج فريضة مفروضة فى أولى الشرائع الإلهية، وأداه الملائكة وآدم وحواء وأنبياء الله جميعاً على أكمل وجه (٥)، وأدخل إبراهيم (ع) إمام الموحدين تعديلات عليه وجده (٦)، وأمر إسماعيل بالتمهيد لإقامة تلك الشعيرة المقدسة (٧)، وقد أدى الرسول الأكرم (ص) شعائر هذه الفريضة مرات عديدة رغم كل الصعوبات التى واجهته. (٨) وتعتبر عبادة الحج من أهم العبادات الإسلامية، وتذكر بعض النصوص أنها تأتى بالدرجة الثانية بعد الصلاة فى الأهمية

١- سورة آل عمران: ٩٧.

٢- وسائل الشيعة ٦: ٨، سورة الحج: ٢٧.

٣- وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا، البقرة: ١٢٥. فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، البقرة: ١٤٤.

٤- راجع فروع الكافى ٢١٩: ١.

٥- من لا يحضره الفقيه ١٥٩: ١، علل الشرائع: ٣٩٩-٤٠٦.

٦- وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، البقرة: ١٢٧.

٧- وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، البقرة: ١٢٥.

٨- فى صحيح البخارى: «حجَّ النبى قبل النبوة وبعدها، ولم يعرف عددها ولم يحجَّ بعد الهجرة إلا حجة الوداع». وفى الكافى عن الإمام الصادق: «حج رسول الله عشرين حجة مستقرة».

ص: ٢١

والأفضلية، وأنه أحد الجهادين، فقد روى الكليني بطريق معتبر عن عبد الله بن يحيى الكاهلي قال: «سمعت أبا عبد الله (ع) يقول ويذكر الحج فقال: قال رسول الله (ص): «هو أحد الجهادين، هو جهاد الضعفاء ونحن الضعفاء، أما إنه ليس شيء أفضل من الحج إلّا الصلاة، وفي الحج ههنا صلاة وليس في الصلاة قبلكم حج». (١) كما أنّ الحج عماد الدين وقوام وجوده، فقد ورد في الحديث: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة». (٢) ولا يجوز تعطيل الكعبة والحج، ويجب على إمام المسلمين إلزام المسلمين أن يقوموا بأداء هذا الواجب والانفاق عليه إذا لم يتحقق ذلك بشكل اعتيادي. (٣) نعم، ذلكم هو الحج الذي يكافح ويسعى المسلم في سبيل أداء مناسكه، ويحتمل نفسه مشقةً وتعباً، ويعانى مرارة الغربة والهجران، ويمسك عن جميع ميوله ولدّاته، ويمتنع عن كثير من عاداته وطبائعه، باذلاً القدر الأ-كبر من مصاريفه لذلك، إنّ الحجّ الذي يُزيح عن كاهل المؤمن الكثير من المعاصي الكبيرة بأدائه هذه الفريضة، يمحو عن قلبه كلّ صدأٍ سببته سيئاته، فيكون كمن ولدته أمه (٤)، فالحجّ تفسيرٌ (٥) لآية: (فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) و (قياماً للناس) (٦)، ورمز قوتهم وعزتهم. (٧) وهذه العبادة بهذه الأوصاف، لا يمكن أن تكون مجرد شعيرة ظاهرية بحتة، فلا شك أنّها تمتلك روحاً وفلسفة عميقة، ولها أسرارٌ وحكمٌ وأهداف وفوائد، ألقت بظلالها على حياة الإنسان في البعدين المادى والمعنوى، وبالنفوذ ببصيرة إلى أعماق تلك الأعمال الظاهرية، وبالوصول إلى باطن تلك الأعمال يمكننا أن نفهم فلسفة تشريعها

١- وسائل الشيعة ٧٧: ٨، ح ٢.

٢- وسائل الشيعة ١٤: ٨، ح ٥.

٣- راجع جواهر الكلام ٢١٤: ١٧.

٤- ثواب الأعمال: ٢٧، وسائل الشيعة ٨٣: ٨، الحديث ١٥.

٥- تفسير القمى: ٤٤٨، معافى الأخبار: ٢٢٢، بحار الأنوار ٦: ٩٩.

٦- سورة المائدة: ٩٧.

٧- «قال الصادق: لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»، الكافي ٢٧١: ٤، الحديث ٢٤.

ص: ٢٢

وأبعادها المختلفة، ونشهد منافعها المذكورة في قوله تعالى: (وَ أَدْنُ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ). (١) فالحديث عن الحج وما يتعلق به من هذا المنطلق، أصبح ضرورة يلحّ الواقع عليها، ويأتي هذا المقال الموجز تبياناً لما يتعلق بتلك الأبعاد المكنونة للحج، والأهداف المنشودة له، والمنافع المشهودة منه، مستندين على كتاب الله العزيز، والسنة النبوية الشريفة، وأحاديث أئمة أهل البيت (عليهم السلام)؛ لفهم تلك الحقائق واستخراجها من مصادرها الأصلية، ومقتبسين من أفكار الإمام الخميني لتوضيح بعض معالمها ومفاهيمها، عسى الله أن ينفع بها ضيوف الرحمن الوافدين من جميع بلاد الإسلام، وتنال رضى ربّ الأنام.

هذا، وسنركّز في البحث على البعدين التربوي والاجتماعي، لأهميتهما في واقعنا المعاصر:

القسم الأول: الجوانب التربوية في الحج

إنّ العقل وهو رسول الإنسان في باطنه، وإن كان غير عاجز عن البحث في فلسفة الحج، وأسراره العميقة وأهدافه في مختلف أبعاده، ومنها التربوية، ولكن نظراً لكون المعطيات والنتائج الحاصلة من ذلك هي عقليّة بحتة، لا تخلو أن تكون تلك المعطيات ملوثة بالإشكالات والهفوات و«دين الله لا يصاب بالعقول» (٢)، ولذا فإننا اتبعنا خطّ سير أكثر أماناً للحصول على فلسفة الحج وأسراره، وسنقوم في الغالب ببحث وتقصى أحكام وأسرار الحج، بالاعتماد على المصادر النقليّة من الكتاب والسنة، فإنهما لم يتركانا سدى في هذا المجال، حيث وضّحا لنا قسماً كبيراً من أسرار هذه العبادة وآثارها، وأهدافها السامية في الحياة الإنسانية، وسنسعى إلى توضيح جزء من بحر لطائف وأسرار وأهداف ونتائج الحج الواسع، مستفيدين من

١- سورة الحج: ٢٧-٢٨.

٢- بحار الأنوار ٣: ٣٠٣، الحديث ٤١.

ص: ٢٣

النصوص التي بحوزتنا والمستخرجه من آيات الكتاب، ومتون الأحاديث ولتتعرف على جانب من روح وعقل هذه العبادة الجماعية في جوانبها التربوية؛ ونبدأ بالجانب السلوك الروحاني والعرفاني، لأهميته في تربية الإنسان، ثم نتطرق إلى الجانب الأخلاقي:

أ- السلوك الروحاني والعرفاني

حين نطالع سيرة إبراهيم (ع) وحركته، كما بينها لنا القرآن الكريم، ونتابع كيفية جلده ولولده وزوجه إلى صحراء مكة، ومن ثم قضيته ذبح إسماعيل (ع) ووصول الذبح السماوي، وبناء الكعبة المشرفة، وما تبعها من أعمال الحج، فإننا نحصل على دورة كاملة للمسيرة العبادية والسلوك الروحاني والمعنوي للإنسان، خروجاً من مختنق الذات وعبادتها، ووصولاً إلى التقرب إلى الله، ونبت متعلقات النفس المادية، والالتحاق بمقام الرب، والركون إلى دار الكبرياء، ومع أنه يبدو للوهلة الأولى أن الأحداث التي واجهت إبراهيم (ع)، وكذلك أعمال مناسك الحج تتألف ظاهرياً من أحداث منفصلة عن بعضها البعض، إلا أن مطالعة دقيقته في هذا المجال، تبين لنا حقيقة أن هذه المناسك إنما هي سلسلة متصلة تلاحق هدفاً واحداً، يعبر عنها العرفاء بمراحل السير والسلوك الروحانيين، ومراتب الطلب والحضور ومراسيم الحب والعشق والإخلاص، وأخيراً خروج المرء من جلده والالتحاق ببحر وجود الخالق اللامحدود، كل ذلك يكون في باطن تلك المناسك، ويحصل الإنسان بذلك على نقاط أطف كلما دقق في تلك الأمور. (١) ويشترط في مسيرة الإنسان نحو الرب الخروج من دائرة العالم المادي، وتبني طريقة السالكين إلى الله، قال الإمام الصادق (ع): «إذا أردت الحج فجرد قلبك لله تعالى من كل شاغل، ثم اغتسل بماء التوبة الخالصة من الذنوب، ودع الدنيا والراحة والخلق». (٢)

١- تفسير الميزان ٣٠١: ١.

٢- مصباح الشريعة، الباب ٢١١.

ص: ٢٤

و كما قاله الإمام زين العابدين (ع) مخاطباً الشبلي: «فحين نزلت الميقات أنويت أنك خلعت ثوب المعصية ولبست ثوب الطاعة؟ ... فحين تجردت عن مخطط ثيابك أنويت أنك تجردت من الرياء والنفاق والدخول في الشبهات؟ ... فحين اغتسلت أنويت أنك اغتسلت من الخطايا والذنوب؟ ... فحين تنظفت وأحرمت وعقدت الحج أنويت أنك تنظفت بنور التوبة الخالصة لله تعالى؟ ... فحين أحرمت أنويت أنك حرمت على نفسك كل محرّم حرّمه الله عزّوجل؟ ... فحين عقدت الحج أنويت أنك قد حللت كل عقد لغير الله؟ ..» وهكذا يسير الإمام (ع) مع الشبلي في بيان معاني وفلسفة مناسك الحج حتى يختم كلامه (ع) قائلاً له: «.. ارجع فإنك لم تحج». (١) وحينما يسأل الإمام زين العابدين (ع) عن تلك الحالة التي تعتريه، عند وقوفه في الميقات وكأنه لا يستطيع أن يقول: لبيك، فيجيب (ع): «أخشى أن يقول لي ربّي: لا لبيك ولا سعديك»، فيقول سفيان بن عيينة، وهو الراوي لهذا الحديث: «فلما لبي عُشّي عليه وسقط من راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه». (٢) وتستمر روح العبودية هذه والسلوك الروحاني والتقرب إلى الله تعالى، وترك الدنيا والأنسلاخ عن عالم المادة، والالتحاق بالملكوت والاستغراق في الله، حتى انتهاء مراحل وأعمال الحج ومناسكه، وهذا السلوك الروحاني هو الذي يمثل جوهر العبودية في كل العبادات، لكن تتجلى في الحج أكثر من غيره من العبادات، ولذا فإن الحج بهذا البعد المعنوي الواسع والجازبية الروحانية العظيمة، هو بمثابة دورة كاملة من البناء الذاتي لشخصية الإنسان المسلم، وتهذيب نفسه من كل صنوف الدنس، والترين بمظاهر الأسماء والصفات الإلهية.

١- مستدرک الوسائل ٢: کتاب الحج، الباب ١٧، الحديث ٥.

٢- المحجّة البيضاء ٢٠١: ٢.

ص: ٢٥

ب- البعد الأخلاقي للحج

مناسك الحج ومراسمه ما هي إلّا دورة تدريبية تربوية للنفس والروح والبدن على السواء، لصنع الإنسان الحرّ في فكره وإرادته، غير منقادٍ لأعداء الله، شياطين الإنس والجنّ كبيرهم وصغيرهم، فالأفعال العبادية والتروك والالتزامات، كلّ هذه التعابير الجسدية والنفسية وسيلة من وسائل انتظام الخلق وسموه ككيان روحي فكري أخلاقي عبادي متميز.

إنّ في الحج يتعوّد المسلم الألفة، والتعارف عن طريق السفر والاختلاط، فتتمو لديه الروح الاجتماعية، وتتهذب ملكاته الأخلاقية، عن طريق هذه الممارسة التربوية، والتفاعل البشري الرائع، الذي يشهده في الحج، بأرقى درجات الالتزام، والاستقامة السلوكية، من خلال المناسك والمراسم الشرعية؛ كثيراً ما يتغير الإنسان إلى الأفضل، فيتعود الحاج على الصبر، واحتمال المشاق والصعاب، إضافة إلى تعوده من خلال المعاشرة على حسن الخلق، والصدق، والحوار مع الحجاج الآخرين، ويتعود اللطف، والتواضع، واللين، وحسن المحادثة، والتعاطف، والكرم، والامتناع عن الكذب، والخصومة، والغيبة، والنميمة، والتكبر، والعظمة، والجدال، وغيرها، حيث قال تعالى: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ... (١) وهذه النواهي في الحج تساهم في بناء شخصية المسلم، وتعمل على إعادة تنظيمها، وتصحيح مسيرتها في الحياة، وتزرع في النفس مكارم الأخلاق وتقودها إلى استقامة السلوك، وحسن المعاشرة.

ويتطلب الحج من المكلفين به شدّ الرحال، وتغيير الحال، وصحبة الرجال، وربما الأهل والعيال، وفي كل ذلك دروس في حسن الأفعال، فأهل الحكمة يقولون: إنّ الأخلاق، هي الحكمة العملية، التي تتجسد بالفعل غير الاعتيادي الذي يصدر من الإنسان بغاية، ومن أجل هدف.

ص: ٢٦

وإن كان الإنسان مستتراً قبل الحج في بيته لا يعلم من خلقه شيء، فقد برز في الحج إلى الساحة العملية، فلا يمكنه أن يخفى على الناس خليفته، وهو في سبيله إلى الله تعالى، عليه أن يلجأ إلى فعل لا يخترق به قصده الحسن في الله مقصد حجه ومنتهاى غايته، إذ السفر ميزان الأخلاق؛ لما يظهر معه من طبائع الأفراد، التي لا يستطيع الإنسان بسهولة تجاوزها؛ لأنها توجه أفعاله بشكل عفوى، ذلك مقابل العمل الخلقى، باعتباره غير اعتيادى؛ لأنه يحتاج إلى علة يستند إليها، فالعمل الاعتيادى تحركه الغريزة، وتحركه الطبيعة، وتحركه العادة، أما العمل الخلقى فتحركه الغاية المستندة إلى الحكمة، والتي بدورها تستند إلى مركز عقلى.

التبعد المعنوى للحج عند الإمام الخميني

لقد أكد الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية في إيران مراراً، أن سفر الحج هو سفر إلهي، وليس سفرًا عادياً مادياً مجرداً، وأن المراتب المعنوية للحج هي رأس مال الحياة الخالدة، وهي التي تقرّب الإنسان من أفق التوحيد والتنزيه، وأنه لن يحصل عليها الحاج ما لم يطبق أحكام وقوانين الحج العبادية بشكل صحيح وحسن، والتبعد المعنوى للحج هو الدافع والوازع للمسلم، حيث يدفعه نحو الأبعاد الأخرى بحيث يراعى فيها الأخلاق والآداب الاجتماعية في علاقاته مع ضيوف الرحمن في موسم الحج، ومع عامة الناس بعد الموسم، ويقول الإمام الخميني في ذلك: «إعلموا جميعاً! أن التبعد السياسى والاجتماعى للحج لا يتحقق إلّا بعد أن يتحقق التبعد المعنوى». (١)

ولهذا نجد الإمام اهتم بهذا الجانب؛ لأنه الوسيلة الناجعة لارتقاء المسلم الأبعاد الأخرى، فقد جاء عنه رضوان الله عليه: «في المواقيت الإلهية والمقامات المقدسة، في جوار بيت الله الملىء بالبركات، راعوا آداب الحضور في الساحة المقدسة للعلّي العظيم،

١- الحج في أحاديث الإمام الخميني، مجلة ميقات الحج ٤: ٤.

ص: ٢٧

وحزروا قلوبكم أيها الحجاج الأعزاء من جميع الارتباطات المتعلقة بغير الله...» (١). وقد وجه الإمام الخميني خطابات عديدة في هذا المجال، ليسن أن على الحاج أن يطهر نفسه، ويخلي قلبه من كل شيء إلا حب الله، والطاعة، والخضوع له، وأنه يجب عليه أن يربط روحه بمعبوده الواحد الأحد؛ فقد قال محدثاً الحجيج: «... وأثناء الطواف في حرم الله حيث يتجلى العشق الإلهي، اخلوا قلوبكم من الآخرين، وطهروا أرواحكم من أى خوف لغير الله؛ وفي موازاة العشق الإلهي، تبرأوا من الأصنام الكبيرة والصغيرة، والطواغيت، وعملائهم، وأزلامهم...» (٢). ويسترسل الإمام في حديثه للحجيج مذكرهم بالاطمئنان القلبي الحاصل من الحالة العرفانية التي يعيشها العبد من معبوده ومحبوبه قائلاً: «سيروا إلى المشعر الحرام، وعرفات، وأنتم في حالة إحساس وعرفان، وكونوا في أى موقف مطمئني القلب لوعد الله الحق بإقامة حكم المستضعفين، وبسكون وهدوء فكروا بآيات الله الحق،...» (٣). وأيضاً يقول الإمام الخميني: «أخرجوا من قلوبكم غير حب الله، ونورواها بأنوار التجليات الإلهية، حتى تكون الأعمال والمناسك في سيرها إلى الله مليئة بمضمون الحج الإبراهيمي، وبعده بالحج المحمدي،...» (٤). القسم الثاني: البعد الإجتماعي للحج إن الانعزال الإجتماعي يعدُّ من أخطر العوامل التي تؤدي إلى الاضطرابات العقلية التي تصيب الفرد المحروم من المشاركة في

- ١- الحج في أحاديث الإمام الخميني، مجلة ميقات الحج ٨: ٤.
- ٢- الحج في أحاديث الإمام الخميني، مجلة ميقات الحج ٨: ٤.
- ٣- الحج في أحاديث الإمام الخميني، مجلة ميقات الحج ٦: ٨.
- ٤- الحج في أحاديث الإمام الخميني، مجلة ميقات الحج ٨: ٤.

ص: ٢٨

النشاطات الاجتماعية؛ وليس غريباً أن نقول: بأنّ المسلمين هم أقلّ الفئات البشرية انعزالاً، وأقلهم إصاباً بأمراض الاغتراب والعزلة، حيث إنّ التأكيد في العبادات الجماعية كصلاة الجمعة، والجماعة، والعيد، والحج، يقوى الانتماء الإجتماعي، والعلاقات والسلوك الجماعي، ومن الطبيعي أن أهداف الانتماء الاجتماعي لن تتكامل ما لم يشعر الفرد بالأمان، والحج يعطى الفرد شعوراً بالأمان؛ لوقوعه في الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال، ولأنّ المناسك يجب أن تؤدي في وضع شرعي أمني خاص، ومن أجل ذلك، فقد أورد الإسلام ترتيبات أمنية في موسم الحج، حيث أوجب الأمن في البيت الحرام، وكون الحرم آمناً يأمن من دخله، وحرّم الاعتداء على الآخرين، وحرّم القتال في الأشهر الحرم، وأوجب حفظ حرمة الشعائر، وحرمة القاصدين لزيارة بيت الله الحرام، ومنع كلّ أساليب تعكير صفو الأمن خلال أداء المناسك، كالكذب، والجدال، والفسوق، وهذا كله يعكس أهمية الأمان في حياة الناس.

والحج أيضاً لقاء يكتسب منه المسلم ثقافته الاجتماعية، وفوائده مسلكية، ومنافع مادية، قد تنجر عنها بركة عظيمة، وفوائد جمّة لشعوب إسلامية بكاملها، إذ قد تعقد فيه المعاهدات التجارية، كتبادل البضائع ممّا ينشط الاقتصاد الإسلامي، ولم يكن هذا ليقع لولا تعارف المسلمين بسبب اجتماعهم لأداء هذه الفريضة المباركة؛ ذلك أنّ في تعارف الشعوب الإسلامية، وتبادلها الآراء، وطرحها لمشاكلها ما يضيق شقّة الخلاف إن كان هناك خلاف، وإذا انعدم الخلاف عمّ التفاهم، ووحدت الغايات، واتحدت المناهج.

والحج تدريب عملي للمسلم على المبادئ الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام، وترسيخ لقيم التواضع والمساواة، فقد أراد دين الله أن لا تكون تعاليمه ومبادئه مجرد شعارات أو نداءات، بل ربطها بعبادته وشعائره ربطاً وثيقاً، حتى تكون سلوكاً تطبيقياً في حياة المسلم وفي علاقته مع الآخرين.

إنّ المسلم هناك وعندما يتجرد عن الثوب الأنيق، بل الثوب المخيط، ويحرم عليه أن يمسّ الطيب .. ويرى نفسه في لباس يساوي أقلّ الناس مالاً وجاهاً، هناك يتلقّى درساً في المساواة، لا تبلغه أقوى العبارات وأعظم الدروس، فالزّي الذي يرتديه الحاج يدخل في شكله

ص: ٢٩

البسيط، ولونه الملائكى، يعرض بوضوح توحيد فضائل المجتمع الإسلامى، وتضامنه، ووحدته الشاملة التى سنتعرض إليها باختصار: الحجّ و وحدة المسلمين

إنّ الوحدة هى الكفيلة لحفظ كيان الأمة وتماسكها، وترسيخ وجودها، وتثبيت أقدامها .. وبأنّ التوحد والترابط، والتآلف والتماسك، هى مصدر القوّة والغلبه، ومنبع القدرة والمنعه .. وأنّ القوّة أمر ضرورى لحفظ الشرائع والمبادئ .. والوحدة مصدر قوّة، وفى الحجّ نجد هذه القوّة، حيث إنّ الحجّ ليس مجرد فريضة تهذبّ النفس، وتعصم السلوك، بل هو أيضاً عنوان للأخوّة الإنسانية العامه عبر التاريخ حول مسألتى العبودية لله، واجتناب الطاغوت، وذلك بشتى الأساليب التى تتناسق فيما بينها لتؤكد هذا المضمون الوجدوى العظيم فى الحجّ، ومسلك وخطّ جميع الأنبياء، وإعطاء القوّة للأمة.

وقد تابعت الثورة الإسلاميه فى إيران هذا الخط، وأكّدت على لزوم إعادة الدور الحقيقى للشعائر الإسلاميه، كصلاة الجمعة، والحجّ، باعتبارهما من أكبر المجالات المحققة للإحساس بضرورة الوحدة فى هذه الأمة.

إنّ الحجّ فريضة إلهيه، لها أبعاد توحيدية كبيرة، وهى مؤتمر كبير يجمع المسلمين من كل الأقطار، متحدة نحو قبله واحده، فى طاعة إله واحد، مستنين بسنة الرسول الأكرم (ص).

الخلاصة والنتيجة

كانت تلك نظرة موجزة عن البعد التربوى والإجتماعى للحجّ الذى فرضه الإسلام، وأداه الرسول (ص) واستوت على أساسه سيره أئمة الدين، وحفظه الشريعة الإسلاميه، إستناداً على الكتاب والسنة، وعلى ضوء أفكار علماء المسلمين ومفكريهم، لاسيّما الإمام الخمينى الراحل، ولاشكّ إذن فى كون أى حجّ يفتقد هذه الروح وذلك العقل، وتلك الأبعاد وغيرها من الآثار والمعطيات، مهما بلغت درجة

ص: ٣٠

سطوع ظاهره وتزينه بالمظاهر البرّاقة، لا يتعدى كونه ضجيجاً وحسب، ويكون حبّاً للنزهة والسياسة والتجارة، كما وصفه الرسول الأعم (ص) بقوله لإبن عباس في ذكر حوادث تقع في المستقبل لأناس آخر الزمان: «يحبّ أغنياء أمتي للنزهة، ويحبّ أوساطها للتجارة، ويحبّ فقراؤهم للرياء والسمعة». (١) وإثر إلقاء هذه النظرة الواقعية، الخالية من العنصرية والتحيز في مسألة الحجّ وأبعاده وآثاره، يطرح هنا السؤال نفسه على كلّ علماء الدين ومفكريهم الحريصين على حفظ الإسلام ورفق المجتمع الإسلامي، وكل المهتمين بشؤون الإسلام ومصير المسلمين، وهو: ما هي نسبة الاستفادة التربوية والاجتماعية التي تحصل عليها سيول المتدفقة تجاه بيت الله الحرام، و المتعطشين لمناسك الحج، والعاشقين لزيارة النبي الكريم (ص) هذا السفر الذي يستغلّ عادة الكثير من الإمكانيات المالية والمعنوية اللازمة لقطعه؟

وما هو الدور الذي يلعبه علماء المسلمين ومفكروهم، والذين تقع على عاتقهم المسؤولية الايدولوجية، والفكرية، والإرشاد، والتعليم، والأمر بالمعروف، ومراقبة المجتمعات الإسلامية كافة؟

وما هي التدابير التي ينبغي أن تتخذها الدول وحكّام الأقطار الإسلامية في هذا المجال؟

ولاشك أنّ الجواب هو لا يتعدى أمراً واحداً، وهو عودة علماء الإسلام إلى مكانتهم الطبيعية الأصلية في المجتمع، الذي أرادها الله ورسوله لهم، حيث يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً غيره.

ومن هنا تكون مسؤولية العلماء العاملين على إيصال الناس إلى ربهم، الذين نصبوا أنفسهم في مقام الوصل بين العباد وخالقهم، أكبر وأعظم وأكد، إذ عليهم أن يهيئوا أنفسهم في الدرجة الأولى للعمل الدؤوب على جعل مراسم الحج برنامجاً عبادياً، وميقاتاً إلهياً، يقربون به العباد من ربهم، ويهدّون نفوسهم على

١- مجمع النورين للمرندي: ٢٩٣؛ الميزان في تفسير القرآن ٤٣٤: ٥.

ص: ٣١

الإخلاص والطاعة، والتخلق بالأخلاق الإيمانية العالية حتى يكتبوا عند الله من المبلغين الرساليين، ثم يجعلونها برنامجاً جامعاً تربوياً، اجتماعياً، اقتصادياً، سياسياً، وثقافياً، يدفعون المجتمع الإسلامي به نحو الصواب، والرشاد، والإصلاح، والرقى في جميع مجالات الحياة.

وبتحقق هدف كهذا، فإنّ الجموع الإسلامية الغافلة ستستيقظ من غفلتها، وتذوق التجارب القيمة الموجودة في تاريخها المجيد والمشرق، وباعتمادهم روح الأمل، فإنهم سوف يسيرون خلف علمائهم و أمرائهم، وبذلك يحيون روح الحج الإسلامي، ويلبسون المجتمعات الإسلامية تلك الحياة الطيبة، وتتحقق بذلك الأمة الواحدة التي أرادها الله أن تكون خير الأمم أخرجت للناس، قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...) (١) وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير الخلق أجمعين محمد وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه الأخيار المنتجبين.

فهرس المصادر:

- القرآن الكريم.

- وسائل الشيعة/ الحر العاملي.

- سفينة البحار/ المحدث القمي.

- علل الشرايع/ الشيخ الصدوق.

- أصول الكافي/ الشيخ الكليني.

- الميزان/ محمد حسين الطباطبائي.

- بحار الأنوار/ العلامة المجلسي.

- تفسير القمي/ على بن إبراهيم.

- ثواب الأعمال/ الشيخ الصدوق.

- المحجّة البيضاء/ الفيض الكاشاني.

- من لا يحضره الفقيه/ الشيخ الصدوق.

١- سورة آل عمران: ١١٠.

ص: ٣٢

- جواهر الكلام / محمد حسن النجفي.
 - مستدرک الوسائل / المحدث النوري.
 - صحيح مسلم / مسلم بن الحجاج القشيري.
 - صحيح البخاري / محمد بن إسماعيل.
 - مسند أحمد بن حنبل، سنن ابن ماجه.
 - مصباح الشريعة / المنسوب للإمام الصادق (ع).
 - الحج في أحاديث الإمام الخميني / مجلة ميقات الحج.
- الأقراص الكمبيوترية (Cd)

- ١- جامع الأحاديث: (٤٤٢ مجلد في ١٨٧ عنوان من ٩٠ مؤلف)، إصدار مركز البحوث الكمبيوترية للعلوم الإسلامية، قم. الجمهورية الإسلامية الإيرانية، الإصدار الثاني.
- ٢- مكتبة أهل البيت: (٤٤٦٧ مجلد)، إصدار مركز المعجم الفقهي للمرجع الديني آية الله السيد الكلبايگاني، الإصدار الأول.

عدم اشتراط المَعرَم في حج المرأة

سماحة الشيخ محمد القايني

طرح أخيراً بعض المتصدّين في الحجاز: منع النساء من الحج في الجملة إذا انفردن و لم يكن لهنّ ذو محرم يصاحبهنّ في السفر إلى المشاعر.

وهذه مسألة مطروحة في الكلمات قديماً وقد اختلف الفقهاء في الحكم فيها جوازاً و منعاً؛ والمعروف والمشهور عدم اشتراط وجوب الحج بما ذكر، بل ذهب جلّ الفقهاء عدا أحمد و بعض إلى عدم الاشتراط، بل اختلفت الرواية عن أحمد فيما ذهب إليه و قد نسب إليه وجوه و القول بالاشتراط هو أحدها.

ولنفرض أنّ مذهب بعض فقهاء المسلمين هو اشتراط وجوب الحج بوجود محرم للمرأة في سفرها، بل ليفرض أن بعضهم ذهبوا إلى حرمة السفر تكليفاً على المرأة منفردةً غير مصاحبة للمحرم.

ولكن مذهب آخرين عدم حرمة السفر بل وجوب السفر إلى الحج على المرأة إذا تمكنت من السفر وحدها؛ فهل يسوغ - مع هذا - فضلاً عن أن يجب على الحكّام إذا انتحلوا بعض المذاهب الفقهية أن يجبروا غيرهم من سائر المسلمين ممن لا يعتقدوا بمذهبهم الفقهى، بل يختلفون معهم في ذلك، على السير على نهجهم، والمتابعة لهم، و السير على مذهب فقهي لا يعتقدون به، بل يعتقدون عدم صحّته؛ فهب إنّ الحنابلة لا يوجبون سفر الحج على المرأة المنفردة، فهل يجب على المالكي، والشافعي، وغيرهم، ممّن يرون وجوب الحج على المرأة مهما انفردت، و لم يكن معها مصاحب محرم أن يعدو عن طريقته، و يعدل عن مذهبه، و يخالف فقهه، فيترك الحج الواجب في مسلكه؟

ونحن وإن كنّا في هذا المجال بصدد البحث عن مسألة حكم سفر المرأة وحدها، و وجوب الحج عليها كذلك، على أساس ما تقتضيه

ص: ٣٤

الأدلة الاجتهادية حسب الصناعات، ولكن ينبغي قبل ذلك أن نتطرق إلى هذا الأمر الهام الذي يعمّ المسألة و غيرها من المسائل، ألا وهو شأن الحكام في التعامل مع المسلمين فيما اختلفوا فيه من المذاهب الفقهيّة، فهل لمسلم أو حاكم من المسلمين أن يجبر غيره على السير على مذهب خاص، و انزال مذهبه فضلاً عن أن يجب عليه ذلك؟

فالحنبلي يجبر الحنفي على العمل وفق المذهب الحنبلي، أهذا جائز، أو أن الحنبلي يجبر الإمامي على العمل على خلاف مذهبه الفقهي، فهذا سائغ فضلاً عن أن يجب؟!

و من جملة تطبيقات المسألة ما نحن بصدد البحث عنه، أعني إجبار مسلم لا يرى حرمة السفر على المرأة فيما انفردت و لم يصاحبها محرم من زوج و غيره، و منعها عن الحج و هي ترى وجوبه عليها، و عدم جواز تركه لها لكونها مستطيعه حسبما تعتقده في مذهبها، سواء كانت معتقده بمذهب الإمامية أو الشافعية أو المالكية بل و الحنبليّة على بعض التقادير، فإنّ كل هؤلاء لا يرون منعاً في السفر على المرأة، بمجرد كونها امرأة، إذا كانت واثقة من نفسها بالتمكّن.

فهل يجوز لبعض المسلمين منعها عن الحج، لمجرد أنّ هذا البعض ينتحل مذهباً في الفقه لا يوافق هذا الرأي أو يعتقد خلافه؟! ليس هذا منافياً لمصادقية مذاهب المسلمين في الفقه و لزوم الاعتراف بها؟ أو لا يكون هذا تحميلاً على المسلمين خلاف ما تقتضيه الحجّة عليهم؟ فمن اعتقد بمذهب و قلّد في مسائله ذلك المذهب، فقد تمت الحجّة عليه، أفلا يكون منعه من العمل على وفق مذهبه ظلماً و زوراً؟

والمجتهد و المقلّد مع إصابة الواقع مأجوران و مع الخطأ معذوران زيادة على الأجر؛ و من يدرى بمطابقة عقيدته للواقع في

ص: ٣٥

مجال الفقه؟ اللهم إلاً أن يكون معتقداً بكونه معذوراً أصاب أو أخطأ، صادف الواقع أو انحرف عنه.

ولولا- أن المسلمين أحرار فى العمل على وفق مذاهبهم فى الفقه بعد الإعتقاد بها و تمام الحجّة عليهم، كان الواجب عليهم رفض المذاهب المختلفة و الالتفات حول مذهب واحد، و مع هذا فأى ترجيح لمذهب الحنابلة على مذهب الشافعى، أو لمذهب الشافعى على الحنفى، أو لهم على مذهب مالك؟

و بعد كلّ هذا، فالشيعة الإمامية يعتقدون أن مذهبهم هو موافق لسنة رسول الله (ص) لأنهم اتبعوا فيه أهل بيته و عترته (عليهم السلام)، و حديث العترة و مذهبهم حديث جدّهم رسول الله (ص) و مذهبه؛ لا يقولون برأى أو اجتهاد، بل يتبعون سنة النبي (ص) بعد الكتاب، و يصدرّون عن معينه (ص) بعد القرآن، و مع الغض عن هذا، فهل يحقّ لبعض المسلمين أن يجتهد و لا يحقّ ذلك للعترة؟! و يكون اعتبار الاجتهاد حصراً على غيرهم و لا يعاب بمذهبهم إلاً أن يكون ذلك لعدم صدور الاجتهاد عنهم، لكونهم معصومين أو لروايتهم المسائل عن النبي (ص) بلا إعمال حدس أو اجتهاد، و معه فاعتبار مذهبهم أولى.

و على أية حال فهذا أمر هام لا ينبغي المرور عليه بسهولة، فإنّ المسلمين مختلفون فى كثير من المسائل الفقهية، إلاً فى المسائل الضرورية كوجوب الصلوات الخمس، و حج البيت، و صيام شهر رمضان، و نحو ذلك؛ و مع ذلك فهم فى فروع هذه المسائل على مذاهب و أقوال، قلماً تجد مسألة اتفقوا على حكمها، بل كثيراً ما تجد الاختلاف بين علماء مذهب واحد فى حكم المسألة، سيما فى الفروع المستجدة، بل و فى بعض الفروع القديمة حيث يختلفون فيما كان مذهب إمامهم فى تلك المسألة، و من جملة المسائل مسألة سفر المرأة و حدها، فقد نسب إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أقوال و إن مال بعض علمائهم إلى بعضها، ولكن ربّما يذهب غيره إلى غيره، و يعتقد أن مذهب أحمد كان غير ما مال إليه ذاك البعض.

ص: ٣٦

والاختلاف بين المذاهب الإسلامية في أحكام الفروع أمر واضح لا يختلف فيه إثنان، فلا يكون منع بعضهم من العمل على وفق مذهبهم إلما استكباراً عليهم، وازدراءً بمذهبهم، وتوهيناً لفقهم، دع عنك إنّه قديكون مذهب ذاك البعض الممنوع مدعوماً بأدلة تقوى على غيره، وترجح عند المعارضة غيرها، فإنّ عامّة الناس إنما وظيفتهم التقليد، ولا يقدرّون على الاستدلال في جزئيات المسائل، فإنّ التفصيل وظيفته أهل الخبرة و ليس وظيفته عامّة الناس.

فقد ترى أنّ بعض المتشبهين بأهل العلم يعارضون المسلمين ممّن لا يوافقونهم في الفروع، ويحتجون عليهم ببعض الآيات والنصوص، وليست هذه الآيات والنصوص خافية على العلماء الذين خالفوا مذهب هؤلاء في الفقه و الفروع، و لو ذكروا هذه النصوص عندهم لأجيبوا بما يقنعهم، أو لا يمكنهم أحياناً إلزامهم بمذهبهم، ولكن لاشأن للمقلّدين من عامّة المسلمين في هذه المسائل، ومعرفة تفصيل الاستدلال فيها ليجوز معارضتهم بنصوص أو أحاديث.

و حيث انتهى الأمر إلى هذا، فأنا اقترح على ولاة الأئمة و رعاهم، و على المؤتمرات الإسلامية التي يعترف بها المسلمون على شتى المذاهب أن تجعل هذه المسألة في جدول أعمالهم، و يقرّرون في ضمن قراراتهم حرية المسلمين ممّن ينتحلون المذاهب المختلفة في العمل وفق مذاهبهم في الفروع، و لا يحق لأحد أن يجبرهم على وفق مذهبه، فإنّه ظلم و زور، و لا يستثنى من هذا القرار أيّ بلد من بلاد المسلمين بما فيها الحرمان الشريفان مكّة المكرمة و مدينة الرسول (ص)؛ فبماذا يحقّ منع المرأة المصرية و هي مسلمة سوى إنّها لا تعتقد بمذهب ابن حنبل - في أكثر تقدير - منعها عن الحج بحجة أنّه ليس لها محرم، و ابن حنبل لا يرى وجوب الحج أو جوازه عليها مع أنّ مالكا و الشافعي و غيرهما يعتقدون خلاف ذلك؟!!

و بماذا يحقّ منع المسلمين من شتى المذاهب غير القليل منهم من التبرّك بضريح النبي (ص) و غيره من قبور الصالحين و الأولياء لمجرّد أنّ بعض المذاهب لا يجوز ذلك؟!!

ص: ٣٧

وبماذا يحقّ منع المسلمين من زيارة النبي (ص) بشدّ الرحال إليه لقصد زيارته، و التبرّك بقبره الشريف، و التوسل به إلى الله تعالى لمجرّد اعتقاد بعض المذاهب حرمة ذلك؟ استناداً إلى حديث: «لا تشدّ الرّحال إلّا إلى ثلاثة مساجد...» (١) و ليس قبر النبي (ص) من جملة المساجد!

مع أنّه لو صحّ الحديث سنداً و تمّ دلالته، فهو قابل للتخصيص والمعارضه بما دلّ على الترغيب على زيارة النبي (ص) حتى عدّ في بعض النصوص ترك زيارته جفاءً، و لا تقصر النصوص المرويّة من طرق أهل البيت عن غيرها؛ فقد يقطع الفقيه بسبب سيرة المسلمين على الذهاب لزيارة النبي (ص) سيّما زيارة الحجاج له، وهذه السيرة بمراى من عترة النبي (ص) و علماء الأمة باستحباب السفر لزيارته (ص) و تأكّد ذلك.

أو لا يكون حجر الأمة عن فهم ما لا يفهم البعض سدّاً لباب العلم بلاموجب، و استكباراً على سائر المسلمين، و تطاولاً عليهم؟ ثمّ لارجع إلى حكم المسألة التي لأجلها عقدنا الكلام وهي وظيفة المرأة في حجّها، و أنّه هل يشترط في وجوب الحج عليها أو جوازه وجود محرم لها يرافقها في سفرها؟ سيّما في هذه الأعصار التي سهل أمر السفر فيها و لا يحتاج إلى مؤونة كثيرة، و لا تطول الأسفار البعيدة، و لا تحتاج المرأة في سفرها إلى من يركبها أو ينزلها من المراكب، و لا تأثير للمرافقين عادةً في دفع ما قد يتفق من الأخطار، و الحوادث كسقوط الطائرة أو نحو ذلك.

قد اختلف علماء المسلمين في ذلك، و المعروف بينهم وفيهم الإمامية عدم اشتراط وجوب الحج بالمحرم، و ذهب قليل منهم إلى الاشتراط.

ص: ٣٨

بل من ينسب إليه الاشتراط ربّما ينسب إليه خلاف ذلك أيضاً، بل قد يكون مراد من يحكى عنه الاشتراط معنى لا ينطبق على الأسفار في هذه الأعصار، ممّا لا يتطلب حاجة المسافر في الركوب و النزول، إلى من يعين الشخص على ذلك حيث علل في بعض الكلمات الحكم بما يظهر منه أنّ الوجه في الإشتراط هو اضطرار المسافر إلى المعين في سفره، وهذا لا يعمّ السفر بالوسائل الحديثه.

و كيف كان نحن نقتصر في مجال حكاية الأقوال إلى عبارتين:

* إحداهما لصاحب الجواهر.

* و الأخرى لابن قدامة.

١. قال في الجواهر مازجاً كلامه بعبارة الشرايع:

لا يشترط في وجوب الحج وجود المحرم في النساء، مع عدم الحاجة إليه، بل يكفي غلبه ظنها بالسلامة على نفسها وبضعها للرفقة مع ثقات، و كونها مأمونة أو غير ذلك، بلاخلاف أجده فيه بيننا؛ لصدق الاستطاعة بعد جواز خروجها مع عدم الخوف نصاً وفتوى بدونه.

(١) ٢. و قال ابن قدامة في المغنى:

قال ابن سيرين ومالك والأوزاعي والشافعي ليس المَحْرَم شرطاً في حجها- يعنى المرأة- بحال؛ قال ابن سيرين: تخرج مع رجل من المسلمين لأبأس به؛ وقال مالك: تخرج مع جماعة من النساء؛ وقال الشافعي: تخرج مع حرّة مسلمة ثقة؛ وقال الأوزاعي: تخرج مع قوم عدول تتخذ سلماً تصعد عليه و تنزل ولا يقربها رجل إلّا أنه يأخذ رأس

١- جواهر الكلام ٣٣٠: ١٧، الحج.

ص: ٣٩

البعير وتضع رجلها على ذراعه؛ قال ابن المنذر: تركوا القول بظاهر الحديث، و اشترط كل واحد منهم شرطاً لاجته معه عليه. (١) وقد نقل في المغنى عن أحمد في اشتراط المحرم في وجوب الحج على المرأة وجوهاً حيث قال- بعد أن استظهر من عبارة ماتته عدم وجوب الحج على المرأة التي لامحرم لها-: وقد نص عليه أحمد، فقال أبو داود: قلت لأحمد: امرأة موسرة لم يكن لها محرم هل يجب عليها الحج؟ قال: لا.

وقال أيضاً: المحرم من السبيل؛ وهذا قول الحسن والنخعي وإسحاق وابن المنذر وأصحاب الرأي.

وعن أحمد: أن المحرم من شرائط لزوم السعي دون الوجوب، فمتى فاتها الحج بعد كمال الشرائط الخمس لموت أو مرض لا يرجى برؤه، أخرج عنها حجة، لأن شروط الحج المختصة به قد كملت، وإنما المحرم لحفظها فهو كتخليه الطريق وإمكان المسير. وعنه رواية ثالثة: إن المحرم ليس بشرط في الحج الواجب؛ قال الأثرم سمعت أحمد يسأل: هل يكون الرجل محرماً لأم امرأته يخرجها إلى الحج؟ فقال: أما في حجة الفريضة فأرجو، لأنها تخرج إليها مع النساء ومع كل من أمته، وأما في غيرها فلا. والمذهب الأول و عليه العمل. (٢) وقال في الشرح الكبير: اختلفت الرواية عن أحمد في وجود المحرم في حق المرأة، ثم ذكر نحواً مما تقدم في المغنى. (٣) وعلى أيّ تقدير فالبحث عن حكم المسألة في مرحلتين:

١- المغنى ١٩٠: ٣، كتاب الحج.

٢- المصدر السابق.

٣- المصدر السابق.

ص: ٤٠

إحداهما: ما تقتضيه القاعدة من الإطلاقات فى الكتاب العزيز و غيره، حتى إنّه لو فرض قصور الأدلة الخاصّة و لو بسبب التعارض أو الإجمال كان ما تقتضيه القاعدة هو المحكّم.

كما أنّه لا بأس بالإشارة- و لو إجمالاً- إلى ما تقتضيه الأصول العمليّة فى الباب.

ثانيتها: ما تقتضيه الأدلة الخاصّة.

أمّا البحث عن المرحلة الأولى: فلا ريب أن مقتضى الأصل العملى هو جواز السفر بدون محرم، و ذلك حيث شك فى التحريم فإنّ المقام كسائر ما شك فى ثبوت حكم إلزامى فيه ممّا يكون الأصل نافياً للإلزام، ما لم تقم حجة على الإثبات.

نعم، و الأصل يقتضى عدم وجوب السفر حيث يحتمل اشتراط الوجوب بالمحرم ما لم يثبت عدم الاشتراط.

و بعد هذا نقول: إنّ مقتضى إطلاق الكتاب المجيد و النصوص المعبرة التى تعبّر عن السنّة القويمه هو عدم اشتراط وجوب الحج

بالمحرم مادام أنّ المكلف يتمكّن من السفر بدونّه، و هو قادر على الاستقلال فى السفر، قال تعالى: **وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيْلًا**. (١)

فانّ الموضوع لوجوب الحجّ هو المستطيع الشامل لذى محرم، و لفاقده و الذى لا يفرّق فيه بين الرّجل و المرأة؛

فربّما يضطرّ الرّجل إلى من يساعده فى سفره فلا يكون مستطيعاً بدونّه، كما ربّما لا تحتاج المرأة إلى من يعينها فتستطيع بدونّه.

ص: ٤١

و بالجمله: فاشتراط المحرم للحاج تقييد في إطلاق الآية الشريفة و غيرها من إطلاقات أدلة وجوب الحج لا يصار إليه إلا حيث يقوم عليه دليل قاطع كسائر موارد الإطلاق.

وأما البحث عن المرحلة الثانية- أعني ماتقتضيه الأدلة الخاصّة:- فقد استدللّ لأشتراط وجوب الحج بل جوازه بوجود المحرم ببعض النصوص ونحن نذكرها و نتكلّم حول مدلولها.

الرواية الأولى: ما روى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): «لا يحلّ لإمرأة تؤمن بالله و اليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلّا و معها ذومحرم». (١) فرّبما يستدلّ بهذا الخبر على اشتراط وجوب الحج بوجود محرم للمرأة، وإلّا فلا يجب عليها، و وجه الاستدلال به هو إطلاق عدم حلّ السفر للمرأة بدون ذى محرم الشامل للحج كغيره؛ فإذا لم يحل السفر لم يجب لامحاله، حيث إنّ الممتنع شرعاً كالممتنع عقلاً.

و هذا الخبر و نحوه هو عمدة الدليل لمن ذهب إلى الاشتراط.

ولكن يرد على الاستدلال بهذا الخبر في المقام ووجه من الإشكال:

الوجه الأول:

إنّ النسبة بين هذا الخبر و نحوه، و بين إطلاق الكتاب و غيره- ممّا تضمّن وجوب الحج على المستطيع على الإطلاق- هي العموم و الخصوص من وجه؛ حيث يجتمعان في السفر للحج، و تفترق الآية في حج الرجل و تفترق الرواية في سفر المرأة لغير الحج.

ص: ٤٢

و مع هذا فتكون الرواية معارضة للكتاب العزيز، ولو بالعموم من وجه، فكيف تقدّم الرواية؟! بل لابدّ من طرحها بسبب المعارضة للكتاب ولا أقل من عدم موجب لتقديم الخبر.

لا يقال: إنّ الرواية تقدّم مع كون نسبتها العموم من وجه، لكونها حاكمة وناظرة، ولا تلحظ النسبة بين الحاكم وغيره.

فإنّه يقال: ليس هناك ما يدلّ على حكومة الرواية، وإلا كان مطلق المعارض بالعموم من وجه حاكماً.

مع أنّ تقديم أحد المتعارضين على الآخر بالحكومة ترجيح بلا مرجح، فهلّا يقدم ما دلّ على وجوب الحج على مطلق المستطيع؟ الوجه الثانى

أنّ هذه الرواية لا-إطلاق فيها من حيث اشتراط جواز سفر المرأة بالمحرم على وجه الاطلاق، بل أقصاها اشتراط السفر الذى يكون مقداره مسيرة يوم بذلك؛ وهذا غير ما هو المنسوب إلى القائل بالاشتراط من ثبوت الشرطية، بلا اختصاص بما هو مذكور فى الخبر؛ هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: هل العبرة بمسيرة يوم بحسب وسائل السفر المعاصرة لصدور النصوص، أو أنّ العبرة بمسيرة يوم فى كلّ عصر بحسب وسائل ذاك العصر؟ فإنّه إذا كان المعيار هو الأخير، لا يبقى فى كثير من الموارد مصداق للرواية، حيث إنّ الأسفار إلى الحج تكون نوعاً بالطائرة، ولا تطول الرحلة بها يوماً بل تكون بضع ساعات.

ربّما يظن وضوح الأمر، وأنّ العبرة بمسيرة يوم بحسب وسائل الروايات، حيث إنّ المتكلم يتكلم بحسب شرائط عصره، فإذا قال القائل: يطول السفر إلى بلده كذا يوماً، ويستغرق السير إليه كذا مدّة، فإنه يريد ذلك بحسب الوسائل المعاصرة له، ولا يريد بحسب

ص: ٤٣

الوسائل التي ليست درجة آنذاك، كالسفر بما كان يغدو به ويروح سليمان (ع) أو يسير به الطير، أو الملك، أو الجن وما شابه ذلك. ولكن الظاهر أنه ليس الأمر واضحاً كما ظن، بل كما يحتمل ذلك يحتمل أن تكون القضية حقيقية، ويختلف صدقها بحسب الأعصار المختلفة، ولها نظائر.

بل حمل سفر مسيرة يوم على خصوص مسيرة يوم في عصر خاص راجع إلى اعتبار القضية خارجية، و مشيرة إلى أمر خاص، ومقتضى الظهور في القضايا الشرعية كونها قضايا حقيقية، لا خارجية و مشيرة، وهذا يعين أن تكون العبرة في كل عصر بحسبه. نعم ربّما تكون مناسبات الحكم و الموضوع قاضية بخلاف ذلك، بأن يكون المراد من العنوان الإشارة إلى معين، وأن لا تكون القضية حقيقية، ولكنّه خلاف القاعدة لا بدّ من إثباتها، وبدونه فظهور القضايا الشرعية في الحقيقة يقتضى تطبيقها على كل عصر بحسبه. وإن شئت مزيد توضيح لذلك نقول:

مثلاً قد ورد في الكتاب العزيز الأمر بمعاشره النساء بالمعروف، كما ورد وجوب الإنفاق عليهنّ بالمعروف، ولا ريب أنّ المعروف في عصر نزول الكتاب و صدور النصوص كان يختلف بحسب المصداق عن المعروف في عصرنا، فهل تجد من نفسك حمل الأدلة على خصوص المعروف في تلك الأعصار؟ وهل يجزى في نظر الفقيه أن ينفق الرجل لامرأته من المركب ما كان متعارفاً في القديم أو يقدّم لها لباساً لو لبسه شخص فعلاً كان من لباس الشهرة يشار إليه بالبنان وهكذا.

بل واضح بحسب المتفاهم العرفي أنّ العبرة في العشرة بالمعروف والإنفاق به هو المتعارف في كل عصر، ويكون هذا من

ص: ٤٤

الاختلاف في المصداق بحيث لا ينطبق عنوان المعروف على ما لا يكون معروفاً فعلاً بعد ظهور المشتق في المتلبس. لِمَ لا يكون عنوان السفر مسيرة يوم في المقام من هذا القبيل؟ فإنه وإن كان مصداقه في عصر النصوص ثمانية فراسخ مثلاً، ولكن لا يصدق العنوان فعلاً على السفر ضعف هذه المسافة، بل لا بد في صدقه من ملاحظة ما يمكن السير في اليوم فعلاً بحسب المتعارف، ويكون ذلك هو المعيار، وإن سار شخص خاص ذاك المقدار في مدة أقل أو أكثر.

ومناسبات الحكم و الموضوع أيضاً تساعد على ذلك، لا على كون العبرة بتحديد المقدار بما كان يستدعيه سفر اليوم من المسافة في عصر النص؛ حيث إنَّ منع المرأة من السفر بحسب المتفاهم من حيث ضعفها وحاجتها إلى من يعينها، وهذا لا يصدق في الأسفار القصيرة، والمدة القليلة، ولذا حدَّ مقدار السفر في النص بمسيرة يوم بحيث لو كان المسير دون ذلك لم يكن في سفرها بدون محرم بأس.

الوجه الثالث:

أنَّ مناسبات الحكم والموضوع تقضى بأن المنع من سفر المرأة بدون محرم إذا زاد على مسيرة ثلاثة أيام أو يوم، إنما هو لما في السفر بهذا المقدار من المسافة من المؤونة والكلفة التي تستدعي رفيقاً مناسباً يساعد الضعيف - ومنه المرأة - على أعباء السفر ومستدعياته، ولذا لم يشترط المحرم في السفر القصير مثل مسيرة ساعة ونحوها، حيث إنَّ الضعيف يركب في المبدء ولو بإعانة الحاضرين، وينزل في المقصد كذلك، ولا يستدعي السفر القصير نزولاً وركوباً في الأثناء عادة، ليجتاج المسافر إلى مرافق معين. وهذا بخلاف الأسفار البعيدة، فإنَّ طول المسير يستدعي من رعاية الضعيف والعناية به ما يكون هو في غنى عنه حيث يقصر السفر.

ص: ٤٥

وحيث أنّ وضع السفر واقتضائه اختلفت عن القديم في هذه الأعصار، حيث لا يستدعى السفر ما كان يستدعيه سابقاً فلا موجب لاشتراط المحرم حينئذٍ، وقد أسمعناك ما عن الأوزاعي من قوله: تخرج مع قوم عدول تتخذ سلماً يصعد عليه وتنزل، ولا يقربها رجل إلّا أنه يأخذ رأس البعير وتضع رجلها على ذراعه. (١) فإنّ هذه العبارة تشهد بما يستدعيه السفر آنذاك و ملابساته، وعلى ضوء هذه الملابسات و المناسبات ورد النص.

ومن هنا يظهر أنّ تحديد شرط المحرم بما إذا كان السفر مسيرة يوم أو ثلاثة يناسب أن يكون المحرم شرطاً في المسير لا في المقصد؛ وأنّ عملية السفر بمعنى السير مشروط - على تقدير الاشتراط - بالمحرم لا كون السفر بمعنى البعد عن الأصل، والكون خارج الوطن مشروطاً بهذا الشرط.

فإنّه فرق بين أن يقول: لا يحلّ لامرأة أن تكون مسافرة إلّا و معها محرم وبين أن يقال: لا يحلّ لها أن تسافر.

فإنّ الأوّل يستدعى اشتراط رفقة المحرم حتى حال النزول في المقصد، لأنّ الشخص المسافر حال النزول في غير موطنه كحال سيره؛ بخلاف الثاني، فإنّه لا يستدعى أكثر من مرافقة المحرم حال السير، والنصوص وردت بمضمون الأوّل؛ نعم في رواية ابن عمر ما هو بمضمون الثاني و سيأتي الحديث.

الوجه الرابع:

إنّ هذه الرواية و نحوها مع الغضّ عن سندها و تسليم دلالتها معارضةً بجملة من النصوص وردت عن أهل البيت (عليهم السلام) - وهم أدري بما في البيت - نصّت على جواز حجّ المرأة بدون مراقب و محرم.

ص: ٤٦

مضافاً إلى معارضتها بما يروى من غير طريقهم من حديث أبي سعيد، حيث قيد النهي فيه بما كان قدر المسير ثلاثة أيام. (١) وما روى أنّ النبي (ص) قال لعدي بن حاتم: «يوشك أن تخرج الطعينة من الحيرة تؤم البيت لا جوار معها لا تخاف إلا الله». (٢) وهذا الحديث يفيد أنّ عدم خروج المرأة في السفر وحدها لعدم أمن الطرق والخوف، وحيث يؤمن الطرق وينعدم الخوف، فلا محذور في سفرها، وإلا كان الأولى التعرض لحكمه من النهي حتى آنذاك.

وبما ذكرنا يندفع ما ذكره ابن قدامة في الرد على الخبر بأنّ حديث عدي يدل على وجوب السفر لا على جوازه. (٣) ومن الغريب بعد ما عرفت من تقييد النص اشتراط المحرم، يكون السفر مسيرة يوم أو ثلاثة القضاء باشتراطه على الاطلاق، وأنه لا يحل السفر قليلاً كان أو كثيراً إلا بمرافقة المحرم، فإنه اجتهاد بعد النص الصريح، وغيره على النساء زائداً على الشرع المبين.

قال ابن قدامة: قال أبو عبدالله - يعني ابن حنبل - أما أبو هريرة فيقول يوماً وليلة، ويروى عن أبي هريرة: لا تسافر سفراً أيضاً، وأما حديث أبي سعيد يقول: ثلاثة أيام؛ قلت: ما تقول أنت؟ قال: لا تسافر سفراً قليلاً ولا كثيراً إلا مع ذي محرم. (٤) ولعمري إن مثل هذه الفتاوى جراً على الدين أن يقول الرجل ورد في الشرع كذا، وأنا أقول كذا، فهل هناك بعد الشرع الذي لا طريق لمعرفة إلا النصوص والروايات مجال لمقال؟

١- المغنى، لابن قدامة ١٩١: ٣.

٢- المصدر السابق.

٣- المغنى، لابن قدامة ١٩٢: ٣.

٤- المغنى، لابن قدامة ١٩١: ٣.

ص: ٤٧

وما جزأ القوم على مثل هذا إلاً الذين سبقوا، فكان يقول أحدهم: كان على عهد رسول الله كذا، وأنا أفعل كذا. الرواية الثانية: ما يروى عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: «لا يخلون رجل بامرأة إلاً ومعها ذومحرم، ولا تسافر امرأة إلاً ومعها ذومحرم»، فقام رجل فقال: يا رسول الله إني كنت في غزوة كذا، وانطلقت امرأتى حاجتاً، فقال النبي (ص): «انطلق فاحجج مع امرأتك». (١) وهذه الرواية كسابقتها متفق عليها في البخارى و مسلم، كما ذكره ابن قدامة، وفي رواية مسلم: ولا تسافر المرأة إلاً مع ذى محرم.

ويرد على الاستدلال بهذا الخبر ما تقدم في المروى عن أبى هريرة.

نعم هذه الرواية مطلقة من حيث قدر المسير إلاً أنه لامناص من تقيدها على تقدير صحّة الخبرين بخبر أبى هريرة، لأنه قيد النهى بما كان السفر مسيرة يوم، ولولا هذا كان التقييد لغواً لا ينبغي صدوره من الحكيم. الرواية الثالثة: ما يروى عن ابن عمر عن النبي (ص): «لا تسافر المرأة ثلاثاً إلاً ومعها ذومحرم». (٢) والكلام فى هذا الخبر نحو ما تقدم.

١- مسند أحمد ٢٢٢: ١ و ٣٤٦؛ البخارى ٢١٩: ٢؛ مسلم ١٠٤: ٤.

٢- مسند أحمد ١٣: ٢.

ص: ٤٨

الرواية الرابعة: ما رواه الدارقطني بإسناده عن ابن عباس، أن النبي (ص) قال: «لا تحبَّجَّ امرأة إلَّا ومعهها ذومحرم». وهذه الرواية وإن كان لا يرد على الاستدلال بها بعض ما أوردناه على الاستدلال بالنصوص المارة التي سبقت، إلَّا أنها مع الغض عن سندها، معارضتها ببعض النصوص؛ فغاية الأمر أنها دالة على الحكم بالاطلاق، لإمكان تقييدها بما إذا لم يكن السفر بدون المرافق مأموناً، كما هو الغالب في الأعصار السابقه، حيث لم يكن السفر للرجال فضلاً عن النساء مأموناً عادة، بل كان عرضة للأخطار، والذي يدل على التقييد ما ورد في نصوص أهل البيت (عليهم السلام).

هذا مضافاً إلى أن مناسبات الحكم والموضوع قد يمنع من انقداح الإطلاق للخبر، فإن المنع من سفر المرأة بدون محرم لكونه مشقة عليها سيما في الأعصار القديمة التي كان السفر يستدعى من المؤونة في الركوب، والنزول، والسير، وملابساتها، ما لا يستدعيه السفر في هذه الأعصار والطرق معتده، والأسفار الجوية لا تستدعى عادة مرافقاً في المسير.

الرواية الخامسة: ابن عمر: أن النبي (ص) قال: «لاتسافر المرأة ثلاثة أيام إلَّا مع ذى محرم». (١) وفي رواية مسلم: «ثلاثاً إلَّا» وفي نقل: «ثلاثة إلَّا» وفي رواية: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة ثلاث ليال إلَّا ومعهها ذومحرم».

الرواية السادسة: أبوسعيد الخدرى عن النبي (ص) قال: «لاتسافر المرأة يومين إلَّا معها زوجها أو ذومحرم». (٢)

١- صحيح البخارى ٣٥: ٢ و المسلم ١٠٢: ٤.

٢- صحيح البخارى ٥٨: ٢.

ص: ٤٩

وفي نقل آخر لمسلم: «لاتسافر المرأة يومين من الدهر إلّا ومعها ذومحرم منها أو زوجها». (١) وفي رواية لمسلم عن أبي سعيد: «لاتسافر المرأة ثلاثاً إلّا مع ذى محرم». (٢) وفي رواية أخرى له عنه: «لاتسافر امرأة فوق ثلاث ليال إلّا مع ذى محرم». (٣) وفي نقل: «أكثر من ثلاث» (٤) وفي موضع آخر: «لايحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعداً إلّا ومعها أبوها أو ابنها أو زوجها أو أخوها أو ذومحرم منها». (٥) وفي نقل: «مسيرة يومين وليلتين». (٦) والكلام في الخبرين الأخيرين يظهر مما سبقهما. وممّا يوهن الاعتماد على النصوص المروية في منع سفر المرأة بدون ذى محرم، اختلافها الشديد في الحدّ المذكور، كما سبقت الإشارة إليه، مع العلم بعدم صدور مثل هذا الاختلاف عن النبي (ص) فيقع التعارض بينها لامحالة، ومع ذلك فقد جمع النووي بين النصوص المختلفة جمعاً لايساعده العرف ولايؤيده الاعتبار.

١- مسلم ١٠٢: ٤.

٢- مسلم ١٠٣: ٤.

٣- المصدر السابق.

٤- المصدر السابق.

٥- مسلم ١٠٤: ٤؛ الترمذى ٣١٨: ٢ وذكر بعده حديث: «لاتسافر امرأة مسيرة يوم وليلة» وقال: والعمل على هذا عند أهل العلم يكرهون للمرأة أن تسافر إلّا مع ذى محرم.

٦- سنن البيهقي ١٣٨: ٣.

ص: ٥٠

قال في شرح مسلم:- تعليقاً على حديث: «لاتسافر المرأة ثلاثاً» وفي رواية: «فوق ثلاث»؛ وفي رواية: «ثلاثة»؛ وفي رواية: «لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة ثلاث ليال إلا ومعها ذومحرم»؛ وفي رواية: «لاتسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذومحرم منها أو زوجها»؛ وفي رواية: «نهى أن تسافر المرأة مسيرة يومين»؛ وفي رواية: «لايحل لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة إلا ومعها ذومحرم»؛ وفي رواية: «لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلا مع ذى محرم»؛ وفي رواية: «مسيرة يوم وليلة»؛ وفي رواية: «لاتسافر امرأة إلا مع ذى محرم». هذه روايات مسلم.

وفي رواية لأبي داود: «ولاتسافر بربداً والبريد مسيرة نصف يوم.

قال العلماء: اختلاف هذه الألفاظ لاختلاف السائلين، واختلاف المواطن، وليس في النهى عن الثلاثة تصريح بإباحة اليوم والليله أوالبريد.

قال البيهقي: كأنه (ص) سئل عن المرأة تسافر ثلاثاً بغير محرم، فقال: «لا»؛ وسئل عن سفرها يوماً فقال: (لا-ظ)؛ وكذلك البريد فأذى كل منهم ما سمعه وما جاء منها مختلفاً عن رواية واحد، فسمع في مواطن ... إلى آخر ما ذكر. (١) ثم زاد على ما ذكره من الاختلاف بعض ما لم يذكره مثل: «بعد يومين»، (٢) سيما الذي حكاه عن المنذرى؛ وراجع كلام ابن حجر في فتح الباري في مجال اختلاف هذه النصوص. (٣)

١- شرح مسلم للنووي ١٠٦: ٩.

٢- مسند الشاميين، ٤:؛ الطبراني ٣٦١: ١.

٣- فتح الباري ٦٥: ٤.

ص: ٥١

أقول: لو انفتح باب مثل هذه الاحتمالات في النصوص والأخبار، لجرّ على كلّها الوهن والسقوط، فلم يشقّ النفس بشيءٍ من الروايات بعد هذا، فيأتى الرواى ويسئل عن حكم فرض مع قيود، فيجاب بكلمة واحدة من أمر أو نهى، ثم يدخل كلّ القيود المفروضة في كلامه في كلام المجيب، فإنّ هذا تدليس واضح، وكذب فاضح، لا ينبغي صدوره ممّن له أدنى درجة الضبط، وأقل مراتب الوثوق. فإنّ ورود القيد في مقام الجواب ظاهر بل دال بوضوح شديد، بل صريح في مدخليته في الحكم ولو في الجملة، بناءً على أنّ القيد ليس له مفهوم مطلق، بخلاف ما إذا كان القيد مفروضاً في كلام السائل؛ فإنّ ورود الجواب لا يستدعى دخالة القيود المفروضة في كلام السائل في الحكم، فدرج القيود في كلام المجيب بما يظهر منه صدورها من المجيب خيانة في النقل، وكذب في الخبر. ثمّ إنّ ابن حجر بعد ذكره الاختلاف الكثير في هذه الروايات قال: وقد عمل أكثر العلماء في هذا الباب بالمطلق، لاختلاف التقييدات. (١) أقول: إنّ رواية التقييد لراوى المطلق يوجب وهن المطلق، واحتمال وهم الرواى، فينبغى الاقتصار في المنع - على تقديره - على القدر المتيقن وهو فرض القيد، وبالغض عن ذلك، فإنّ العمل بالمطلق على تقدير تعارض المقيّد إنّما يكون حيث لا يكون المتعارضات في القيد متفقاً على المعارضة مع المطلق، وإلّا فيكون المطلق أيضاً طرفاً للمعارضة، ويسقط عن الاعتبار. وممّا يوهن الاعتماد على نصوص المنع عن سفر المرأة بدون محرم، ما يظهر من بعض النصوص من انكار عائشة ذلك على روايه، وكيف نخفى مثل هذا الحكم على عائشة، وهى امرأة، والمسألة محل ابتلائها ولو كان السفر بدون محرم حراماً عليها لعلمته لا محالة.

ص: ٥٢

فقد روى عن ابن حبان بسنده عن عمرة بنت عبد الرحمن أنّها كانت عند عائشة، تقول لعائشة: إنَّ أباسعيد الخدرى يخبر عن رسول الله (ص) أنّه قال: «لايحلّ لامرأة تسافر فوق ثلاثة أيام إلّا مع ذى محرم»؛ قالت عمرة: فالتفت إلينا عائشة فقالت: ما كلّهنّ لها ذومحرم؛ (١) وفي نقل: مالكلكنّ ذو محرم. (٢) ومن بارد القول، ما نقله ابن حبان عن أبي حاتم، من أنّه لم تكن عائشة بالمتهمّة أباسعيد الخدرى فى الرواية، لأنّ أصحاب النبى (ص) كلّهم عدول ثقات، وإنّما أرادت عائشة بقول: ما لكلكم ذومحرم، تريد أن ليس لكلكم ذومحرم تسافر معه، فاتّقوا الله ولا تسافر واحدة منكنّ إلّا بذى محرم يكون معها. (٣) أقول: لو لم تكن عائشة متهمّة لأبى سعيد فى صدقه، فلا أقل من كونها متهمّة له فى ضبطه للحديث وفهمه.

روايات أهل البيت (عليهم السلام)

وأما روايات أهل البيت (عليهم السلام) فى مجال هذا الحكم فهى مستفيضة:

الرواية الأولى: صحيح سليمان بن خالد فى المرأة تريد الحج ليس معها محرم هل يصلح لها الحج قال: «نعم إذا كانت مأمونة». (٤) ونحوها رواية ثانية، هى معتبرة أبى بصير عن أبى عبد الله (ع) قال: سألت عن المرأة تحجّ بغير وليها؟ فقال: «إن كانت مأمونة تحجّ مع أخيها المسلم».

الرواية الثالثة: معتبرة معاوية بن عمّار قال: سألت أباعبدالله (ع) عن المرأة تحجّ إلى مكة بغير ولي؟ فقال: «لابأس تخرج مع قوم ثقات». وفى نقل الكليني: «عن المرأة الحرّة». (٥)

١- صحيح ابن حبان ٤٤٤: ٦.

٢- صحيح ابن حبان ٤٤٢: ٦.

٣- المصدر السابق.

٤- الوسائل ١٥٣: ١١، الباب ٥٨، الحديث ٢ و ٥.

٥- المصدر السابق، الحديث ٣.

ص: ٥٣

الرواية الرابعة: معتبرة معاوية بن عمار: «الابأس وإن كان لها زوج أو أخ أو ابن أخ فأبوا أن يحجّوا بها وليس لهم سعة، فلا ينبغي لها أن تقعد، ولا ينبغي لهم أن يمنعوها. (١) الرواية الخامسة: معتبرة صفوان الجمال قال: قلت لأبي عبد الله (ع): قد عرفتنى بعملى تأتىنى المرأة أعرفها بإسلامها وحبها إياكم، وولايتها لكم ليس لها محرم؟ قال: «إذا جاءت المرأة المسلمة فاحملها؛ فإنّ المؤمن محرم المؤمنة، ثمّ تلا هذه:

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. (٢) قال العلامة المجلسى فى مرآة العقول: قال سيد المحققين بعد هذه الرواية: وأما مقتضى هذه الروايات فهو الاكتفاء فى المرأة بوجود الرفقة المأمونة، وهى التى يغلب ظنّها بالسلامة معها. فلو انتفى الظنّ المذكور بأن خافت على النفس أو البضع أو العرض، ولم يندفع ذلك إلّا بالمحرم، اعتبر وجوده قطعاً؛ لما بالتكليف بالحج مع الخوف من فوات شىء من ذلك من الحرج والضرر. (٣) وقد حكم فى الملاذ بأنّ جواز الحج بغير محرم مجمع عليه بين الأصحاب. (٤) وقال فى معنى كون المرأة مأمونة: ظاهره أنّ هذا الشرط لعدم جواز منع أهلها من حجّها، فإنّهم إذا لم يعتمدوا عليها فى ترك ارتكاب المحرّمات وما يصير سبباً لذهاب عرضهم، يجوز لهم أن يمنعوها إذا لم يمكنهم بعث أمين معها. ويحتمل أن يكون المراد: مأمونة عند نفسها، أى آمنه من ذهاب عرضها، فيوافق الأخبار الأخيرة. (٥)

١- المصدر السابق، الحديث ٤.

٢- المصدر السابق، الحديث ١.

٣- مرآة العقول ١٧٢: ١٧.

٤- ملاذ الأخبار ٣٨٨: ٨.

٥- مرآة العقول ١٧٣: ١٧.

ص: ٥٤

وقال في الملاذ في معنى مأمونة: أى في نفسها، فهذا القيد للولى وتمكينها منه؛ أو مأمونة عند الناس فيكون جواز خروجها مشروطاً بكونها مأمونة عند الناس، لثلاثتهم في عرضها، فتكون مأمونة في قوة آمنه. (١) نعم ورد في معتبره عبدالرحمن بن الحسن عن أبي عبدالله (ع) قال: سألته عن امرأة تحجّ بغير محرم؟ فقال: «إذا كانت مأمونة ولم تقدر على محرم فلا بأس بذلك». (٢) وهذا الخبر وإن لم يشترط في وجوب الحج وجود المحرم الذى كان يقول به غيرنا، ولكن ظاهره التكليف بمرافقة المحرم مع التمكن، حيث شرط في جواز السفر بدون المحرم عدم التمكن منه، فالمرأة إذا قدرت أن تسترق محرم لها فلا ينبغي لها أن تخرج وحدها.

ونحوه خبر قرب الإسناد بإسناده عن أمير المؤمنين على (ع) كان يقول: «لا بأس أن تحجّ المرأة الصرورة مع قوم صالحين إذا لم يكن لها محرم ولا زوج». (٣) ولكن تقدّم أنّ مناسبات الحكم والموضوع تقضى باختصاص شرطية المحرم بتلك الأعصار الغابرة التى كان الرفيق والمصاحب مؤثراً في تخفيف ثقل السفر ورفع أعبائه، ومساعداً في دفع المشاكل وأخطاره، لا- في هذه الأعصار التى ربّما لا يكون الرفيق إلّا ثقلاً على المسافر، وكلفه عليه زائداً على كلفه السفر ومؤنته.

فقد تحصل ممّا تقدّم استفاضة النصوص من طرق أهل البيت (عليهم السلام) بعدم اشتراط المحرم في جواز السفر للمرأة، ولا في وجوب الحج عليها، بل إذا أمنت المرأة من نفسها، واستطاعت الحج بدون محرم، حجت وسافرت، ولا- يحقّ لأحد أن يمنعها حتى الزوج؛ وقد وردت نصوص عدّة في عدم اشتراط إذن الزوج أيضاً في الحج الواجب؛ والله العالم.

١- ملاذ الأخبار ٣٨٩: ٨.

٢- الوسائل ١٥٣: ١١، الباب ٥٨، الحديث ٦.

٣- نفس المصدر: الحديث ٧.

إخراج غير المسلم من الجزيرة العربية دراسة فقهية استدلالية

حيدر حب الله

تمهيد

الذي يبدو للباحث أنّ المعروف بين الفقهاء المسلمين، (١) هو الحكم بعدم استيطان المشركين خاصّة أو مع أهل الكتاب- ولو كانوا أهل ذمّة- جزيرة العرب على نقاش في التحديد الجغرافي لهذه المنطقة، لتشمل جزيرة العرب كلّها، وضيقت لتقتصر على مكّة المكرّمة والمدينة المنورة أو بلاد الحجاز.

وهذه الصيغة القانونية للمسألة توحى بالدرجة الأولى- من حيث المقدار الواضح منها- بلزوم إلغاء ظاهرة توطن غير المسلم في تلك المنطقة، بيد أنّ البحث الفقهي- وعلى ما هو مسجّل في جملة من الكتب الفقهية- قد تطرّق إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ طُرِحَ على بساط البحث موضوع دخولهم إلى هذه البقعة ولو لمجرّد المرور، كما لو هبطت الطائرة في مطار جدّة كمحطة «ترانزيت»، لتعود للإقلاع بعد مدّة قصيرة من الزمن، مكملّة مسيرها إلى حيث مقصدها الأصلي، كما أنّ مسألة زيارتهم هذه الأراضي ولو مجرّدة عن غرض الاستيطان، بل للسياحة أو التجارة أو .. كان هو الآخر كغيره- ربما- مورداً لتحفظ

١- أنظر: الطوسي، المبسوط ٤٧: ٢؛ والمحقق الحلي، شرائع الإسلام ٢٥٣: ١؛ والعلامة الحلي، تذكرة الفقهاء ٣٣٤: ٩؛ والشهيد الأوّل، الدروس الشرعية ٣٩: ٢؛ والمحقق الكركي، جامع المقاصد ٤٦٤: ٣.

ص: ٥٦

بعض الفقهاء المسلمين، ولا أقلّ محلّ جدل .. (١)، وذكر بعضهم جواز أن يأذن لهم الإمام بالبقاء ثلاثة أيام فقط. (٢) بل وصل الالتزام الفقهى بهذا الحكم إلى درجة الحكم بنبش قبره لو دفن فيه على حدّ تعبير بعض النصوص الفقهية (٣). ولم يخالف في أصل المسألة إلّا بعض قليل من الفقهاء استشكل فيها، مثل السيد أبو القاسم الخوئي (٤). وعلى أية حال، فلا بدّ لنا من دراسة المسألة من حيث الأساس، وأنه هل هناك ما يؤكّد ثبوت هذا التشريع أو ما كان من قبيله في المتوفّر لدينا من المصادر الدينية أم لا؟ كما أنه لا بدّ لنا - وفي إطار استعراض وملاحظة النصوص والأدلة المتوفرة في الموضوع - من ملاحظة المدى الذي تعطيه هذه الأدلة من حيث السعة والضيق على تقدير ثبوت الجذر والبنية الأولى له. نظرية الإفراج من الحجاز وجزيرة العرب، الأدلة والشواهد والمناقشات الذي يظهر من كلمات الفقهاء في هذا الإطار هو الاعتماد على مجموعة أدلّة لتثبيت هذا الحكم، وأهمّها:

١- المستند القرآني لنظرية الإفراج من الجزيرة العربية

اعتمد بعض العلماء هنا على قوله تعالى: **وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْنَاكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**

١- راجع: المحقق الحلّي، شرائع الإسلام ٢٥٣: ١.

٢- العلامة الحلّي، تحرير الأحكام الشرعية ٢١٢: ٢- ٢١٣؛ وقواعد الأحكام ٥١٥: ١.

٣- العلامة الحلّي، تذكرة الفقهاء ٣٣٧: ٩؛ والمحقق الكركي، جامع المقاصد ٤٦٥: ٣.

٤- أنظر: الخوئي، منهاج الصالحين ٤٠٠: ١؛ والوحيد الخراساني، منهاج الصالحين ٤٥٢: ٢؛ ومحمود الهاشمي، منهاج الصالحين ٤١٤:

١.

ص: ٥٧

وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. (١) حيث ذهب المحقق الأردبيلي إلى أن هذه الآية ظاهرة في وجوب إخراج المشركين من مكة، وفاقاً لما قاله الفقهاء في أبحاثهم الفقهية. (٢) والاستناد إلى هذه الآية الكريمة يقوم على تفسير: مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ بمعنى: من المكان الذي أخرجوكم منه، أما إذا فسّرناها بأنّها في مقام التعليل، بمعنى: أخرجوهم لأنهم أخرجوكم، فإنّها ستخرج عن مجال الاستدلال؛ لأنّ غايه ما تدلّ عليه حينئذٍ أنه يجب عليكم إخراجهم من مكة رداً على إخراجهم لكم منها، فيتحدّد الحكم ضمن إطار هذه المعادلة، فإذا انتهى الزمن الأول الذي عاش فيه من فعل ذلك - إخراج المسلمين من بلدهم - لم يعد هناك معنى لإخراج الأجيال اللاحقة؛ لعدم صدق الحيثية الإثباتية للحكم في موردهم، كما هو واضح. بل حتى لو فهمنا دلالة: مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ على بيان المكان، فإنّ قرينه أَخْرَجُوكُمْ شاهدة على الحيثية التعليلية لهذا الحكم، بوصفه حكماً عقابياً لهم على فعلهم ذلك بكم، وإلا لم يكن هناك معنى لبيان محلّ الإخراج بهذه الطريقة واللسان. والحيثية التعليلية التي أشرنا إليها، بصرف النظر عن تفسير حَيْثُ في الآية الكريمة تلوح من ظاهر كلمات بعض المفسرين أيضاً. (٣)

١- سورة البقرة: ١٩١.

٢- راجع: الأردبيلي، زبدة البيان: ٣٠٨.

٣- أنظر: الطبرسي، جوامع الجامع ١٨٩: ١؛ ومجمع البيان ٣٠: ٢؛ والفيض الكاشاني، التفسير الصافي ٢٢٨: ١؛ والطبري، جامع البيان ٢٦١: ٢؛ وتفسير السمعاني ١٩٢: ١؛ وتفسير البغوي ١٦٢: ١؛ والغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل ٧٣: ١؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٢٣٣: ١.

ص: ٥٨

يضاف إلى ذلك أن الآية- لو سلمنا بها- خاصة بمكة؛ لأنها هي التي تم إخراج المسلمين منها، كما أنها خاصة بالمشركون من عبدة الأوثان؛ لأنهم هم القدر المؤكد؛ حيث لم يشارك أهل الكتاب في إخراج المسلمين من مكة، ولا أهل سائر الديانات الأخرى. والنتيجة: إن الظاهر من الآية كونها وردت- على حدّ تعبير ابن كثير (٧٧٤هـ)- مورد القصاص والردّ بالمثل؛ فإنّ هؤلاء القوم أخرجوكم لحوالي عقد من الزمن من بلدكم ظلماً وعدواناً، فيجب أن يعاقبوا بالإخراج، وليس هذا اللسان لسان قانون يمنع دخول أىّ مشرك مطلقاً أرض الحجاز إلى يوم القيامة.

من هذا كله، يظهر أنّ ما ذكره بعض الباحثين من أنّ المشرك لا تؤخذ منه الجزية، ولا يقبل منه غير الإسلام، وهذا يعنى عدم جواز استيظانه بلاد الإسلام، (١) فضلاً عن استيظانه جزيرة العرب، غير صحيح؛ لأنّه من أخذ اللوازم بطريقة غير عرفية ولا قانونية، فلو كان هذا الحكم يتضمّن عدم استيظانهم بوصفه حكماً ثابتاً، كان معنى ذلك أنه لو ارتفع حكم القتل- ولو لعنوان ثانوى كالعهد والأمان و..- منعوا من استيظان العالم الإسلامى!! بل إنّ حكم القتل حكمٌ مستقل قائم بنفسه على تقدير الأخذ بإطلاقه، نعم عدم الاستيظان لازم خارجى لواقع القتل؛ لفرض موته، مع أنه لا يشمل جثته كى لا يجوز دفنها فى بلاد الإسلام، أو فى جزيرة العرب كما ذكره بعضهم؛ لعدم وجود معنى لشمول دليل القتل لقتل الجثة مثلاً.

وعليه، فالاعتماد على مستند قرآنى مفترض؛ لإثبات وجوب إخراج الكفار من الجزيرة العربية، غير دقيق.

٢- استدعاءات شرافة الموضوع

الدليل الثانى الذى ذكره هنا هو أنّ جزيرة العرب تعدّ من المواقع الشريفة من جهة كونها منزلاً ومركزاً للعرب الذين كان منهم

١- محمد على الأنصارى، الموسوعة الفقهية الميسرة ٣٢٥: ٣- ٣٢٦.

ص: ٥٩

رسول الله (ص) وحيثية الشرف المتضمنة فيها تستدعي عدم السماح بدخول غير المسلم إليها، مما يفرض حرمانه من ذلك. (١) غير أن هذا الكلام لا يعدو أن يكون محاولة لتقريب الحكم إلى الذهن من حيث حكمته، وإلا فإنه لا يمثل في حد ذاته أية قاطعية؛ إذ إن محض الشرفية لو استدعي هذا الحكم هنا، لكان يستدعي نماذج مشابهة لا يصح الالتزام بها؛ فمثلاً: هل يلتزم القائل به بحرمة إدخالهم أو دخولهم الكوفة والنجف والقدس ومشهد وباقي المناطق بما يؤدي إلى توسعة الحكم لأكثر من ذلك، مما هو غير ثابت في الشريعة، بملاحظة أنه لو كان لبان، بل قد بان عدمه؟!!

على أن تشرف بقعة معينة كيف عرفنا أنه يوجب حرمة دخول الكافرين إليها؟ وما هو المبرر المنطقي الذي جعلنا نقفز إلى هذا الحكم على أساسه؟! كما أن القضية من جهة أخرى قابلة وفق منطق هذا الاستدلال للتوسعة، من قبيل حرمة دخول الفاسقين المتهتكين ولو كانوا من المسلمين وشبه ذلك، مما لا يظن بالالتزام به؛ لقيام الشواهد التاريخية على عكسه.

والذي يبدو أن المستدل كأنه استوحى من استيطانهم تلك البلاد ما يفيد هتك حرمتها أو إضعاف عزتها أو أصالتها وأشبه ذلك، مما يلقي بظلاله على نفس الظاهرة الإسلامية والمجتمع الإسلامي بصورة سلبية، لما تمثله جغرافيا الحجاز من ارتباط وثيق بالتراث الإسلامي، ومن هذه الجهة قد يتم التوافق معه متى أحرزنا صغرى هذه المعادلة ومصدقها، الأمر الذي لا يملك وجهاً واضحاً إلا في بعض الحالات التي ربما نصنفها في حساب الحال النادر.

٣- مستند الإجماع في نظرية التحريم

استند بعض الفقهاء هنا إلى الإجماع، (٢) فضلاً عن الشهرة المؤكدة في عدة كلمات لهم. (٣)

١- الكركي، جامع المقاصد ٤٦٥: ٣.

٢- المبسوط ٤٧: ٢؛ وتذكرة الفقهاء ٣٣٤: ٩؛ والشهيد الثاني، مسالك الأفهام ٨٠: ٣؛ والمحقق النجفي، جواهر الكلام ٢٨٩: ٢١.

٣- شرائع الإسلام ٢٥٣: ١؛ والمحقق الأردبيلي، مجمع الفائدة والبرهان ٥٢١: ٧؛ والخوئي، منهاج الصالحين ٤٠٠: ١.

ص: ٦٠

وهذا الإجماع يمكن إثباته أيضاً من طريق آخر، غير ملاحظة كلمات الفقهاء في المسألة على ما أفاده الشيخ محمد حسن النجفي (١)، وذلك بالرجوع إلى نفس السيرة الإسلامية الجارية على ذلك.

ومتى تحقّق ذلك الإجماع وتلك الشهرة كانا بنفسيهما دليلاً على الحكم الشرعي.

وهذا الاستدلال يمكن تسجيل ملاحظتين عليه، هما:

الملاحظة الأولى: ما صار مكرراً جداً من احتمال المدركية على أقلّ تقدير في هذا الإجماع، إذا لم نقل بحصول الاطمئنان العرفي بهذه المدركية، من خلال تداول المسألة على مستوى المستند الحديثي في المصادر الشيعية والسنية، كما سوف نلاحظه إن شاء الله تعالى.

الملاحظة الثانية: إن قيام السيرة الإسلامية على ظاهرة منع دخول غير المسلمين أراضي الحجاز، لو تأكدنا منه في مختلف المراحل التاريخية، لا يفيد يقيناً بقيام إجماع فقهي؛ لأنّ الملاحظ في تشكّل هكذا ظواهر اجتماعية سياسية عامّة على أساس ديني أنه يعتمد بالدرجة الأولى على مزاجه بين الموقف السياسي الإسلامي التقليدي، والمرجعية الدينية العامّة، ومن الممكن جداً عدم تأثير الموقف المخالف في إلغاء أو تقليص مثل هذه الظواهر، فالموقف الرسمي الديني والسياسي كافٍ في حدّ نفسه في تشكيل سيرة وتعاقب اجتماعي عام في مثل هذه المسألة، تماماً كما يحصل في عصرنا في بعض الديار الإسلامية، حيث يكفي إصدار مفتي تلك الديار فتوى ثم قيام الدولة بتطبيق تلك الفتوى لتكون حالة عامّة،

ص: ٤١

رغم أنه قد يكون هناك الكثير من المعارضين لهذه الفتوى في الأروقة والمحافل العلمية. ومن هنا لا تكون السيرة شاهدة على توافق فقهي تخصصي لدى علماء الفقه على مستوى الدراسة العلمية للمسألة.

٤- مستند السيرة الإسلامية العامة

ذكر المحقق النجفي (١) هنا أنه يمكن التمسك مباشرةً بالسيرة الإسلامية القائمة على ذلك، بمعنى جعلها كاشفاً مباشراً عن الموقف الشرعي الإسلامي، بلا ضرورة لتوسط الإجماع الفقهي في عملية الكشف هذه. وهذا هو الفارق في كلامه بين تمسكه بالسيرة هنا وفي الدليل المتقدم، حيث جعلها هناك وسيطاً لاكتشاف الإجماع، أما هنا فجعلها دليلاً مستقلاً.

وهذا الدليل يمكن أن يلاحظ عليه أمرٌ عام، وهو أن السيرة المتشرعية يمكن أن تخضع لقانون المدركية كما يخضع لها الإجماع؛ حيث لا بد في السيرة من رفع تمام الاحتمالات التي تدعم نشوءها من عناصر غير الفقه والحكم الإسلامي. وهذه السيرة في الفترة اللاحقة لعصر النص يحتمل فيها في حالات كثيرة - كما في محلّ بحثنا - اعتمادها على الفتاوى والآراء الفقهية للفقهاء وأئمة المذاهب و.. ومع هذا الاحتمال لا تعود لهذه السيرة كاشفية تامة عن إسلامية الحكم الذي تختزنه. كما أن هذه السيرة في الفترة المعاصرة لزمان النص يحتمل فيها في كثير من الأحيان اعتمادها على عناصر غير مجرد الموقف الإسلامي، كما لو اعتمدت السيرة على فهم خاص للنص، كما في موردنا الذي يوجد فيه - كما سيأتي - نصّ وصية الرسول (ص) في هذا

١- المصدر السابق.

ص: ٦٢

المضمار، الأمر الذي يحتمل معه أنهم اعتمدوا- بوصفهم فقهاء وعلماء دين معاصرين للقرون الإسلامية الأولى - على هذا النص، كما أن الاستدلال بمسألة شرفية المكان ربما كان عاملاً مساعداً في نشوء هذه المفاهيم المرتبطة بمسألتنا؛ وربما كانت العوامل السياسية قد لعبت دوراً في تفرغ الجزيرة من غير المسلمين، الأمر الذي تُلقي فيما بعد على أنه أمرٌ ديني ثابت.

على أنه من غير المعلوم تكوّن مفهوم السيرة هنا في القرون الثلاثة الأولى؛ لأنّ هذا النوع من الأحكام له في الغالب جانب سياسي إجرائي يعنى الدولة وأجهزتها، وليس قضيةً عباديةً أو معاملةً ماليةً شائعةً، حتى تعيش في وعى الناس بشكل مستمرّ أو تمارس بشكل متواصل، ومعه يكفي في تصوّر انعقاد سيرة اتخاذ موقف فقهي رسمي من جانب بعض فقهاء الدولة مدعوماً بقرار سياسي في تلك المنطقة، وأين هذا من تكوّن مفهوم السيرة؟!

كما أنّ المسألة في دائرة أبناء الطائفة الشيعية لا تخرج عما قلناه آنفاً، انطلاقاً من وجود مدارس ورؤى متعدّدة في الوسط الشيعي، حتى في ظلّ وجود الإمام، نظراً لقلّة وضعف عمليّة التواصل المجتمعي العام الذي يسمح للإمام (ع) بالإشراف على كلّ المجتمع الشيعي، لاسيّما مع الظلم الذي مورس على أئمة أهل البيت النبوي في العصرين الأموي والعباسي، إذ لم يكن التواصل الجماهيري وعلاقة الإمام (ع) بالقاعدة كما هي الحال عليه اليوم.

وهذه الملاحظة العامّة - وكما أشرنا - وإن لم يكن مجال تفصيلها هنا، إلّا أنه اتضح أنها تعيق عملية الكشف في السيرة.

٥- مستند الأحاديث الشريفة

يمكن اعتبار هذا الدليل هو الأساس هنا، أي التمسك بالأخبار الواردة في المسألة من كتب الفريقين: السنّي والشيعي، وإن ذكر

ص: ٤٣

الشهيد الثاني وغيره عدم العثور على خبر في المسألة من طرق الإمامية، (١) وما عثرنا عليه نحن هو: الحديث الأول: الرواية المتضمنة لوصية النبي (ص) بإخراج اليهود من جزيرة العرب، أو إخراج المشركين منها، ففي الحقيقة خبر الوصية يشتمل على نصين: أحدهما: ما يدل على إخراج اليهود والنصارى أو اليهود فقط. وثانيهما: ما ورد في المصادر الحديثية السنية، ويشتمل على إخراج المشركين، وله وجود ما في مصادر الشيعة. وقد نقل النص الأول في الغالب عن أم سلمة زوج النبي (ص)، كما نقل النص الثاني عن ابن عباس، والنصان هما: أ- خبر أم سلمة المروي عن رسول الله (ص) أنه: أوصى عند وفاته: يُخرج اليهود من جزيرة العرب ... (٢) وبحسب نقل الحر العاملي عن أمالي الطوسي، جاءت إضافة النصارى إلى اليهود؛ (٣) وورد في مرسل ابن جريج بأن لا- يترك يهودى ولا- نصراني بأرض الحجاز. (٤) ب- خبر ابن عباس، الذي جاء بصيغة: «... أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ..». (٥) وقد جاء مضمون الوصية عن ابن عباس بنقل الفضل بن شاذان في وقائع حادثة يوم الخميس، وأن النبي (ص) قال فيما قال: «... وعليكم بهذه الثلاثة أشياء أنفذوها بعدى: أنفذوا جيش أسامة،

١- مسالك الأفهام ٨٠: ٣؛ ومجمع الفائدة والبرهان ٥٢١: ٧.

٢- الطوسي، الأمالي: ٤٠٤؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ٣٢٥: ٥، وذكر أن رجاله رجال الصحيح؛ والطبراني، المعجم الكبير ٢٦٥: ٢٣.

٣- تفصيل وسائل الشيعة ١٣٢: ١٥.

٤- الصنعاني، المصنّف ٥٧: ٥٨-٦، و ٣٦١: ١٠؛ والدر المنثور ٢٢٧: ٣.

٥- صحيح البخاري ١٣٧: ٥؛ ومسند ابن حنبل ٢٢٢: ١؛ وصحيح مسلم ٧٥: ٥؛ وسنن أبي داود ٤١: ٢؛ والبيهقي، السنن الكبرى ٢٠٧:

٩؛ والصنعاني، المصنّف ٥٧: ٦، و ٣١١: ١٠ ..

ص: ٤٤

وأجيزوا الوفد كما كنت أجيزهم، وانفوا المشركين من جزيرة العرب، حتى لا- يكون في جزيرة العرب إلما دين واحد..» (١) وهذه الوصية واضحة فيما تقرره على مستوى بحثنا؛ لأنها تقرّر إخراج الكافرين من جزيرة العرب، بمعنى عدم السماح لهم بالاستقرار فيها، وهو المطلوب، بل قد تشمل مطلق الزيارة والتردد، دون مثل الدفن ونحوه.

والبحث في هذه الوصية يقع تارةً على المستوى السندی الصدوري وأخرى على المستوى الدلالي:

أما الناحية السندية: فهي ضعيفة في رواية أم سلمة، حيث ورد في طريقها وهب بن حزم وهو مهمل جداً، نعم صحح السند في طرق أهل السنة، غير مرسل ابن جريج، وأما خبر ابن عباس ففي طريق ابن شاذان مشكلة إثبات صحته نسبة الكتاب الموجود بين أيدينا اليوم إليه، فإن نسخ هذا الكتاب (كتاب الإيضاح) قليلة جداً، ويبدو أن العلامة المجلسي والحرّ العاملی لم تصلهما نسخته، ولهذا أقرّ محققو الكتاب بندرة النسخ، وأنها بأجمعها غير كاملة وفيها غلط، (٢) وأقدم نسخته المتوفرة لا- يحرز عودها إلى قبل القرن الحادي عشر الهجري، فالاعتماد على كتاب من هذا النوع مشكل جداً.

وأما سند المصادر السنية برواية ابن عباس فهو تام وفقاً لأصول علم الجرح والتعديل عند أهل السنة؛ بعيداً عن التحفظ من موضوع ابن عباس حيث كان صغير السن.

وأما الناحية الدلالية: فقد تبرز عدّة ملاحظات، هي:

الملاحظة الأولى: إن النصين متناقضان؛ فإن أحدهما يجعل مورد الوصية أهل الكتاب، والآخر يجعلها واردةً في المشركين الذين صاروا علماء لبعده الأوثان؛ وحيث إن الوصية واحدة، فلا- محالة يقع التردد في موردها، فيعود الحديث مشوباً بالغموض من هذه الناحية.

١- ابن شاذان، الإيضاح: ٣٥٩-٣٦٠.

٢- أنظر مقدمة المصحح للإيضاح: ٦١. مير جلال الدين الأرموي.

ص: ٦٥

وقد يقال بأن هذه الملاحظة قابلة للمناقشة؛ لأنّ النصين لم يتصدّيا لإبراز وصيّة رسول الله (ص) بما هي نصّ كامل متكامل، وإنما أخبر كلّ نصّ منهما عن شيء أوصى به، ولعلّ كلّ نصّ منهما يخبر عن مقطع آخر، حتى لو فرضنا أنّ الوصية المخبر عنها كانت واحدة، وأنه لم يقدّم الرسول (ص) بالإيحاء مرّتين متباعدتين زماناً، كما هو غير بعيد.

إلّا أنّ ظاهر الروايات - لاسيما بطريق ابن عباس - الإخبار عن تمام الوصية؛ فإنها ذكرت أنّ الرسول بيّن ثلاثه أشياء في وصيته ثم ذكرت، وفي بعض المصادر جاء نسيان الثالثة من طرف الراوي، وهو ظاهر في بيان أحداث الوصية كلّها، لاسيما وأنّ بعض روايات إخراج اليهود عبر فيها بآخر ما تكلم به الرسول حيث جاء قوله: «أخرجوا اليهود من الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب»؛ (١) وفي خبر آخر إلى أبي عبيدة بن الجراح أيضاً أنه: «وأحسبه قال: أخرجوا اليهود من أرض الحجاز»، (٢) حيث لا يبدو من الراوي التأكيد من صدور هذه الجملة.

وهذا ما يفتح الباب على تردد آخر، في إضافة أهل نجران على صعيد الجزيرة العربية، وتخصيص اليهود بأرض الحجاز، بناءً على التمييز بين الجزيرة والحجاز؛ إلّا إذا جرى الإصرار على وجود عدّة وصايا له (ص) عند وفاته، في بعضها يذكر المشركين وفي بعضها الآخر اليهود، بل لقد تعددت الروايات في آخر ما نطق به الرسول (ص) من الصلاة وغيرها، ولعلّ التعبير بآخر ما تكلم به قائم على المسامحة العرفية.

الملاحظة الثانية: إنّ ظاهر رواية كتاب الإيضاح بيان للغاية بقوله: «حتى لا يكون في جزيرة العرب إلّا دين واحد»، وهذا معناه أنّ الإخراج كان لغاية عدم وجود دينين في جزيرة العرب، وستأتي رواية مستقلة بهذا الصدد؛ وعدم وجود دينين لا يقتضى منع الكافر من الاستيطان في الحجاز أو جزيرة العرب؛ لعدم صدق وجود دينين بذلك، بل إنّما يصدق بوجود جماعات كبيرة لها معابدها، وأماكن صلاتها،

١- سنن الدارمي ٢: ٢٣٣؛ والكوفي، المصنّف ٦٣٥: ٧؛ والبخاري، التاريخ الكبير ٥٧: ٤.

٢- مجمع الزوائد ٢٨: ٢.

ص: ٦٦

ومظاهرها الدينية، فهذا العنوان أخص من عنوان مطلق المنع من الاستيطان أو الزيارة أو الدفن أو نحو ذلك.

إلّا أنّ هذه الملاحظة لَمّا وردت على الرواية المذكورة في مصدر غير معتبر سنداً لم يكن يمكن التعويل عليها في مواجهة سائر الروايات قبل النظر في الروايات القادمة.

الملاحظة الثالثة: إنّ هذا النص - الوصية - قد صدر قبيل وفاة الرسول (ص) وبعد نزول سورة المائدة ورجوع النبي من حجّة الوداع، وقد تعرّضنا في مناسبة أخرى لما يصدر عن النبي بعد هاتين الحادثتين، وقلنا بأن مقتضى آية إكمال الدين أنه لم يعد هناك شيء ناقص في الدين، وأنّ حجّة الوداع قد أعلن فيها النبي (ص) أنه ما من شيء يقرب إلى الجنة ويبعد عن النار إلّا وقاله، إذأ فلم تعد هناك أشياء ناقصة في أصل الدين، من هنا تحمل النصوص النبوية التي أعقبت هذا الأمر، إما على تكرار ما كان قاله النبي من قبل، أو على بيان حكم حكومي ولائي، غير الأحكام الإلهية الثابتة.

وهنا يقال: إذا ثبت أنّ مسألة إخراج المشركين من جزيرة العرب قد صدرت من النبي قبل ذلك، كان بيانه هنا تكراراً للحكم الإلهي، ويتم الاستدلال، أما إذا لم يثبت ذلك، فيحتمل جداً أن يكون بياناً لحكم حكومي بينه النبي ليفعلوه لمصالح زمنية تستدعي تطهير الجزيرة العربية تماماً من الشرك، لتكون خالية تماماً من الوجود غير الإسلامي، ربما حمايةً لانطلاق الوجود الإسلامي بعد ذلك في الفتوحات أو غيرها.

ولعلّ ما يعزز هذا الأمر أنّ الموردين الآخرين اللذين ذكرهما النبي فيهما روح الحكم التاريخي، فإنّ إنفاذ جيش أسامة ليس حكماً إلهياً ثابتاً وإنما هو حكم مرحلي خاصّ بزمن النبي (ص) وإجازة الوفد كما كان يجيزهم - بمعنى إكرامهم وإنزالهم - ليس حكماً خاصاً بالوفود الآتية؛ لأنّ عنوانه عام، وإنما هو مصداق لوجوب الإكرام أو لنهج التعامل مع المؤلّفة قلوبهم أو نحو ذلك، فليس هناك تأسيس حكم جديد هنا أيضاً.

ص: ٦٧

وقد بحثنا في محلّه (١) من قبل، وتوصّينا إلى أن موارد الشك في تاريخية الحكم لا أصل فيها يثبت التاريخية أو عدمها، فيرجع إلى القدر المتيقن، ولا يقين هنا بشمول الحكم لغير ذلك الزمان.

الحديث الثانى: خبر ابن عباس أن رسول الله (ص) قال: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»، (٢) وفي مرسل عمر بن عبدالعزيز: «لا يبقين دينان بأرض العرب». (٣) وفي خبر عائشة قالت: كان آخر ما عهد رسول الله (ص) أن قال: «لا يترك بجزيرة العرب دينان»، (٤) وفي حديث آخر: «لا دينان بأرض العرب». (٥) وقد ذكر أن هذا الحديث جاء في سياق إجلاء عمر بن الخطاب أهل خيبر تارةً، وأهل نجران أخرى، ولهذا لاحظ الطبرى الشيعى أن ما فعله عمر بن الخطاب مع أهل نجران وخيبر يخالف عهود النبى معهم وصلحه وإقرارهم على ما هم عليه. (٦) ولعلّ الوسط السنّى كان يستشعر إشكالية قديمة من هذا النوع، حيث نجد عند الإمام مالك في الموطأ، نقلًا عن ابن شهاب قوله: «فحص عن ذلك عمر بن الخطاب حتى أتاه الثلج واليقين أن رسول الله (ص) قال .. فأجلى يهود خيبر .. وقد أجلى عمر بن الخطاب يهود نجران وفدك، فأما يهود خيبر فخرجوا منها ليس لهم من الثمر ولا من الأرض شىء، وأما يهود فدك فكان لهم نصف الثمر ونصف الأرض؛ لأن رسول الله (ص) كان صالحهم على نصف الثمر ونصف الأرض، فأقام لهم

١- حيدر حب الله، حجية السنّة في الفكر الإسلامى، قراءة وتقويم: ٦٦٣-٧٤٠.

٢- الصنعانى، المصنّف ٣٥٩: ١٠، ٣٦٠؛ والموطأ ٨٩٢: ٢-٨٩٣.

٣- البيهقى، السنن الكبرى ٢٠٨: ٩؛ والصنعانى، المصنّف ٣٦٠: ١٠.

٤- مسند ابن حنبل ٢٧٥: ٦؛ وتاريخ الطبرى ٤٥٣: ٢؛ البيهقى، السنن الكبرى ٢٦٦: ٦.

٥- الشافعى، الأم ٣١٧: ١؛ والتمهيد ٤٦٣: ٦.

٦- الطبرى، المسترشد: ٥٢٧.

ص: ٦٨

عمر نصف الثمر ونصف الأرض، قيمةً من ذهب وورق وإبل وحبال وأقتاب، ثم أعطاهم القيمة وأجلاهم منها». (١) ويلاحظ هنا تعرّض بعض علماء أهل السنّة للإجلاء الذي قام به النبي (ص) في حقّ يهود المدينة من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة. (٢) وهذا الوضع يفتح على فرضية أساسية، وهي أنّ الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لعلّه هو الذي اتخذ قرار إجلاء أهل الأديان الأخرى عن الجزيرة العربية، نتيجة اجتهادٍ منه أو قراءة ميدانية أو غير ذلك، ثمّ لما جاءت الأجيال اللاحقة، سعت لتبرير هذا الأمر عند ظهور إشكالية عدم التناسب بين فعله وما كانت الحال عليه أيام الرسول (ص) فنسبت مقولته عدم اجتماع دينين إلى النبي، ونسب الأمر بإخراج اليهود والنصارى إليه أيضاً.

ويعزّز ما نقول ما رواه ابن أبي شيبة الكوفي بسنده إلى ابن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب أنه قال "لا- يتركوا اليهود والنصارى بالمدينة فوق ثلاث قدر ما يبيعوا سلعتهم، وقال: لا يجتمع دينان في جزيرة العرب." (٣) هذا يعني أنّ قرار إخراج أهل الكتاب كان قراراً من الخليفة الثاني، وها هو النصّ عينه يُنقل عنه، وإنما نسب إلى الرسول (ص) بعد ذلك ربما إجابةً عن اعتراض معترض هنا أو هناك، ولا يهمنّا هنا تصويب فعل الخليفة أو تخطئته، بقدر ما يعيننا اكتشاف أنّ الحكم ليس إلهياً ثابتاً، وإنما هو حكم حكومي من خليفة المسلمين لمصالح وقتية رآها.

والذي يؤكّد ما نقول أيضاً، طريقة تعبير الراوي بأنّ عمر بن الخطاب فحص حتى أتاه الثلج واليقين، فهذا النوع من التعبير يستبطن - فيما أظن - رغبةً من الراوي في إضفاء طابع السكينة

١- مالك بن أنس، الموطأ ٨٩٣: ٢.

٢- البيهقي، السنن الكبرى ٢٠٨: ٩.

٣- المصنّف ٦٣٥: ٧.

ص: ٦٩

على الخطوة التي قام بها الخليفة الثاني، وإلّا فلماذا هذا التعبير وكأنّه يؤرّقه شيء؟! ثم ما معنى الفحص؟ فلو كان الرسول (ص) أوصى بذلك عند وفاته، كما تقول الروايات المتقدّمة، لعرفها كلّ الناس، بل لقد كان الخليفة الثاني حاضراً في تلك المواقع، فكيف لم يطلع، بل فحص ولم تقل الرواية: سأله؟!

على أنّي أستغرب أنه لو كان هذا النصّ موجوداً عن النبي، فلماذا لم يتداول قبل خلافة عمر بن الخطاب؟! ولماذا سكت الصحابة- سواء كانوا من الموالاة أم من المعارضة- الذين سمعوه عنه، وهو حكم إلهي، ولم يخبروا به الخليفة الأول أبا بكر، حتى كاد هذا الحكم الذي أخبر به النبي، بل أوصى به، يختفي إلى حدّ أنّ عمر بن الخطاب نفسه فحص وبحث حتى علم بالموضوع؟! إنّ هذا كلّه يثير الاستغراب في هذه القضية.

إنّ قرار الخليفة الثاني يرجع - كما قيل - إما إلى تكاثر أهل نجران حتى خاف المسلمون من هجوم قادم من طرف الجنوب، أو إلى عدم التزامهم بالعهد مع الخليفة، أو إلى أنّ بعضهم (سكان دعش) أسلموا ثم ارتدّوا؛ (١) أو كما في رواية البخاري اعتداء أهل خيبر على عبدالله بن عمر؛ وسوف نشرح بعض ذلك قريباً بعون الله تعالى.

وعلى أية حال، فرواية عدم اجتماع دينين في جزيرة العرب ضعيفة السند بالإرسال؛ حيث نسبها ابن شهاب الزهري إلى النبي بلا سند، ومراسيله لا تلحق بالمسانيد عندنا، وخبر عائشة فيه ابن إسحاق، والخبر الأخير كالثاني مرسل لا يحتجّ به، كما ورد الخبر الأوّل عن ابن المسيب مرسلًا.

الحديث الثالث: ما ورد في سياق إنباء النبي بنفسه أنّه سوف يخرج المشركين أو غيرهم من جزيرة العرب.

١- تامر باجن أوغلو، حقوق أهل الذمة في الفقه الإسلامي: ١٧؛ والسيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ١٤٩: ٨-١٦٣.

ص: ٧٠

فقد جاء في خبر جابر، أنه قال: قال رسول الله (ص): «لئن بقيت لأخرجنّ المشركين من جزيرة العرب»، فلما ولي عمر أخرجهم. (١) لكنّ جابر بن عبد الله الأنصاري يخبرنا في رواية أخرى أنه سمع هذا الخبر من عمر بن الخطاب عن رسول الله (ص)، إنّما بهذا النص: «الأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً». (٢) هذا النص الثاني الذي ينقل عن عمر بن الخطاب ينافي النصّ السابق الذي تحدّثنا عنه، والذي يذكر أنّ عمر بن الخطاب فحص حتى أتاه الثأج واليقين بأنه لا يجتمع دينان في جزيرة العرب، فلو كان عمر قد سمع هذا الحديث هنا من الرسول فما الموجب للشك أيام خلافته؟! وما الموجب للفحص ما دام هو مباشرة على علم بالموضوع من شخص الرسول (ص)؟!!

إنّ هذا يؤكّد ما قلناه من أنّ قرار إخراج اليهود والنصارى كان قراراً حكومياً من جانب الخليفة الثاني، وأنّ هذه النصوص جاءت - فيما بعد - لتدعم ما كان اتخذه الخليفة من قرار اجتهادي من قبل.

إنّ النص النبوي المنسوب إلى عمر بن الخطاب هنا، يواجه عدّة إشكاليات:

١- لقد ورد في بعض المصادر الحديثية أنّ يهود خيبر اعتدوا على عبد الله بن عمر بن الخطاب، ولما وصل الخبر إلى عمر، قام في الناس خطيباً، فقال: أيها الناس، إنّ رسول الله (ص) كان عامل يهود خيبر على أنّا نخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففرعوا يديه كما بلغكم، مع عدوتهم على الأنصار قبله، لا نشك أنّهم

١- الكوفي، المصنّف ٦٣٥: ٧.

٢- مسند أحمد ٢٩: ١، ٣٢، و ٣٤٥: ٣؛ وصحيح مسلم ١٦٠: ٥؛ وسنن أبي داوود ٤١: ٢؛ وسنن الترمذى ٨١: ٣؛ والحاكم، المستدرک ٢٧٤: ٤.

ص: ٧١

أصحابهم، ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمن كان له مال بخير فليلحق به، فإنى مخرج يهود، فأخرجهم. (١) فهذا النص من رسول الله يجعل لحاكم المسلمين الخيار فى الإفراج والإبقاء، فكيف يمكن التصديق بأن عمر بن الخطاب قد سمع النبى فى نصه الاستراتيجى المتقدّم على عدم إبقاء غير المسلم فى جزيرة العرب، ثم يستند لتبرير إخراج اليهود إلى نصّ يمنح صلاحية الإفراج للحاكم دون أن يأمر بالإخراج، مع أن الأول أهم وأوجب، فلو كان قد سمع هذا الخبر فى الخطبة النبوية لما استند إلى خبر خيار الحاكم.

٢- ما جاء فى خبر عامر بن عبد الرحمن بن نسطاس، أن الرسول صالح اليهود "على أنكم تكفونا العمل ولكم شطر الثمر، على أن أقرّكم ما بدا لله ورسوله.. فلم يزل خبير بيد اليهود على صلح النبى (ص) حتى كان عمر فأخرجهم، فقالت اليهود: لم يصلحنا النبى (ص) على كذا وكذا؟ قال: بلى! على أن تقرّكم ما بدا لله ورسوله، فهذا حين بدا لى إخراجكم، فأخرجهم.. (٢) فهذا الخبر يسند فيه عمر الإفراج إلى أن الاتفاق مع اليهود كان مع بقاء الخيار بيد المسلمين، وأن عمر بن الخطاب قد مارس حقّه هذا فى الأمر، وليس هناك مؤشر على إلزام شرعى.

لكن الرواية ضعيفة السند بابن نسطاس، فضلاً عن أنها لا تنفى وجود أمر شرعى يحتاج لتهيؤ ظروفه التى توافرت فى عصر الخليفة الثانى، والاستناد إلى خيار المسلمين منطقي لتبرير الأمر أمام اليهود.

٣- خبر يحيى بن سهل، فى قصّة تحريض اليهود على قتل مظهر بن رافع الحارثى، ثم مقتله بعد ذلك، وأنه لمّا وصل الخبر، قال عمر بن الخطاب "إنى خارج إلى خيبر، فقا سم ما كان بها من الأموال،

١- مسند أحمد ١٥: ١؛ سنن أبى داود ٣٥: ٢؛ السنن الكبرى ٥٦: ٩؛ وابن هشام، السيرة النبوية ٨١٧: ٣؛ والسيرة الحلبية ٧٧٢: ٢؛

وصحيح البخارى ١٧٧: ٣-١٧٨؛ والذهبي، تاريخ الإسلام ٤٢٥: ٢.

٢- الصنعانى، المصنف ١٢٥: ٤؛ ابن شبة، تاريخ المدينة ١٧٨: ١.

ص: ٧٢

حادث حدودها، ومورف أرفها، ومجل يهود عنها، فإن رسول الله (ص) قال: هلم، أقركم الله، وقد أذن الله في إجلائهم ففعل ذلك بهم." (١) هذا النص الذي يناقش في ثبوته تاريخياً يعطى دعماً لفكرة أن موضوع الإجلاء كان موكولاً لنظر المسلمين، وأنه كان يمكنهم عند أي خطأ أن ينطلقوا لإجلائهم، ولم يكن هناك أمرٌ قاطع بالإجلاء، وإلا لاستند عمر بن الخطاب إلى النص النبوي الأمر أو الراسم لسياسة الإجلاء، مع أنه لم يفعل، مما يدل على عدم وجود أمر نبوي في هذا الصدد.

٤- ما ورد عن ابن عمر من أن والده أجلى اليهود من المدينة، فقالوا: أقرنا النبي (ص) وأنت تخرجنا؟! قال: "أقركم النبي (ص) وأنا أرى أن أخرجكم من المدينة." (٢) والنص هنا واضح - بعد صرف النظر عن مسألة إثباته التاريخي الذي يبدو مشككاً - في أن القضية كانت اجتهاداً، إذا أردنا أن نستبعد المواجهة الصريحة لقرار النبي بالإقرار لهم بالبقاء، وأن النبي بوصفه إمام المسلمين أقرهم، وعمر اليوم بوصفه إمام المسلمين يخرجهم، فلو كان هناك تشريع ديني بالإخراج لكان هو الأول بالظهور، اللهم إلا أن يقال بأن كلام عمر هنا جاء جدلاً معهم، ولم يكن في سياق الكشف عن الدوافع الحقيقية والنهائية لقراره.

٥- خبر الأعمش، عن سالم، قال: كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفاً، قال: وكان عمر يخافهم أن يميلوا على المسلمين، فتحاسدوا بينهم. قال: فأتوا عمر، فقالوا: إننا قد تحاسدنا بيننا فأجلنا، وقال: وكان رسول الله (ص) قد كتب لهم كتاباً أن لا يجلوا، وقال: فاغتمها عمر فأجلهم، فندموا، فأتوه، فقالوا: أفلنا، فأبى أن يقلهم، فلما قدم علي أتوه، فقالوا: إنا نسألك بخط يمينك وشفاعتك عند نبيك إلا أقتلتنا، فأبى، فقال: ويحكم، إن عمر كان

١- المتقى الهندي، كنز العمال ٥٠٩: ٤.

٢- المصدر السابق ٥٠٧: ٤، نقلًا عن الغيلانيات.

ص: ٧٣

رشيد الأمر؛ قال سالم: فكانوا يرون أنّ علياً لو كان طاعناً على عمر في شيء من أمره، طعن عليه في أهل نجران. (١) يبدو لي هذا النص لا يمكن تصديقه، فهل يعقل أن تأتي أمية من الناس تطلب إجلاءها عن موطنها؟! مهما تحاسدوا وتشاجروا ... هذا النص على تقدير صحته يدل على أن قرار الإجلاء لم يكن لنص ديني، وإنما لتوافق تقدم بطلبه الطرف الآخر.

لكن هذا الخبر حتى لو كان موضوعاً يؤكد ما قلناه سابقاً، من أن التباساً أحاط خطوة عمر بن الخطاب، وأن هناك انتقادات أعتقد أنه سجلها خصوم الخلفاء الأوائل من العلويين، من بينها مخالفة سنة عمر لسنة النبي في موضوع أهل الكتاب، ولهذا نجد الراوي يشير في النهاية إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) وأنه لم يكن يطعن في عمر شيئاً، مما يعطى مؤشراً واضحاً على أن بعض أنصار خط الإمام علي (ع) كانوا بصدد النقد لسياسات عمر بن الخطاب، وأن الراوي اخترع هذه القصة ليبراً ساحة الخليفة الثاني أمام العلويين.

٦- إن مجموعة النصوص التاريخية والحديثية هذه تتحدث عن ملابس خاصة رافقت إجلاء عمر بن الخطاب لليهود من بعض المناطق، وليس فيها عين ولا أثر لفكرة وجود أمر إلهي نبوي أبدى بذلك قام عمر بتنفيذه، فلو كان هذا الأمر موجوداً لظهر أثناء هذه الأحداث وقيل اتخذ الخليفة قرار الإجلاء من هنا أو هناك؛ بل هذه النصوص توحى - حتى لو وضعت - بأن جدلاً أحاط خطوة الخليفة، وأن عملية الوضع هذه جاءت لتبرر قرار الخليفة الثاني، فلو كان النص الإلهي معروفاً في تلك الفترة لتناوله الوضع وأقحمه في هذه النصوص التاريخية التي تحدثت عن الإجلاء، ودافعوا به عن الخليفة الثاني.

ويجب أن لا نغفل عن أن كل ما تقدم كان بملاحظة الرواية بصيغة (اليهود والنصارى)، لا بالصيغة الأولى التي ورد فيها الحديث عن (المشركين)، فإنها سليمة عن هذه الإشكالات كلها.

١- الكوفي، المصنّف ٥٦٤: ٨؛ وكنز العمال ٥٠٦: ٤-٥٠٧.

ص: ٧٤

وإذا غضضنا الطرف عما تقدّم، فإنّ هذه الرواية - سواء وردت بلفظ (المشركين) أم (اليهود والنصارى) - لا تبين حكماً إلهياً؛ إذ غاية ما فيها أنّ النبي (ص) يخبرنا أنّه إذا سنحت له الظروف سوف يُخرج المشركين وأهل الكتاب من الجزيرة، وهذا المعطى أعمّ من أن يكون قراراً إلهياً إلزامياً أو يكون قراراً نبوياً زمنياً، بذلك استدعته ملاسبات وظروف تلك الفترة، فلو تعاطينا مع النبي على أنّ لديه نوعين من القرارات، فهذا النصّ بهذه الصيغة لن يؤكّد أيّاً من النوعين؛ ولهذا يؤخذ بالقدر المتيقن، وهو تاريخية الحكم.

ونشير هنا أيضاً إلى أنّ قرار إجلاء النبي (ص) يهود المدينة إلى خارجها - وليس إلى خارج الجزيرة - لا يدلّ على وجود قرار إلهي أبدي بالإجلاء، رغم أنّ تعبير بعض الروايات ورد فيه الإجماع؛ (١) لأنّ أحداث المدينة عرفت ملاسبات خاصّة، وبقاء اليهود كان يهدّد أمن الدولة الإسلامية، الأمر الذي أكّده بشكل قاطع أحداث معركة الأحزاب، التي دفعت النبي لانتخاذ قراره بغزوة بني قريظة، ثم بخيبر، ولهذا نجد في بعض نصوص قرار الإجلاء هذا عن المدينة ما يفيد استناد الحكم إلى قرار نبوي بوصفه حاكم المسلمين، لا إلى قرار شرعي أبدي ينفذه النبي (ص) ففي خبر أبي هريرة عن النبي (ص) في حوار النبي مع اليهود في سياق إرهابات قرار الإجلاء جاء: «اعلموا أنّما الأرض لله ورسوله، وإنّي أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلّا فاعلموا إنّما الأرض لله ورسوله». (٢) فإنّ الاستناد إلى سلطنة النبي على الأرض استناد إلى معيار مالكي لا إلى معيار شرعي قانوني إلهي ثابت، فكأنه يقول لشخص: هذه الدار داري وأنا قرّرت إخراجك منها، فإنّ هذا اللسان ليس لسان تشريع إلهي نازل بأمره بذلك إلى يوم القيامة، وإنما هو لسان حكومي زمني كما هو واضح.

١- صحيح البخاري ٤: ٦٥، و ٥٧: ٨، ١٥٦؛ ومسنّد أحمد ٤٥١: ٢.

٢- صحيح البخاري ١٥٦: ٨؛ وصحيح مسلم ١٥٩: ٥؛ وسنن أبي داود ٣٣: ٢.

ص: ٧٥

وبهذا لا يصح الاستناد إلى التجربة النبوية في المدينة لتعميمها إلى ما نحن فيه، لاسيما وأن الفعل دليل صامت لا إطلاق فيه، كما هو مقرّر في علم أصول الفقه.

الحديث الرابع: ما عن علي بن أبي طالب (ع) أنه قال: قال رسول الله (ص): «يا عليّ، إن أنت وليت الأمر بعدى فأخرج أهل نجران من جزيرة العرب». (١) إن هذا الأمر دليل على تشريع إخراج أهل نجران.

والجواب:

أولاً: إن الرواية وردت وفي طريقها قيس، وهو قيس بن الربيع، بقرينة ما جاء في أمالي المحاملي، (٢) وقد رجح الهيثمي كونه ابن الربيع، (٣) وعليه فيكون الخبر ضعيفاً بضعف قيس بن الربيع.

نعم ورد الخبر بغير طريق قيس بن الربيع في مصنف الصنعاني، لكن في الطريق يوجد الحسن بن عماره، وهو رجل متروك متهم بالكذب، كما نصّ على ذلك أئمة الجرح والتعديل، (٤) ولا أقلّ من أنه كثير الوهم والخطأ، وأنه ضعيف في الرواية، فالخبر لا قيمة له على المستوى السندي.

ثانياً: إن الخبر أخصّ من المدعى؛ لأنّه خاصّ بنجران وأهلها ولا- يشمل غير ذلك، فلا يمكن من خلاله إثبات حرمة توطن مطلق المشرك أو الكافر بلاد الحجاز أو جزيرة العرب.

ثالثاً: لا يوجد في هذا الحديث أيّ مؤشر على طبيعته القرار الذي أوصى به النبي، فقد تقتضى المصلحة الزمنية هذا الإخراج، والنبي لم تكن الظروف مؤاتية له فطلب من الخليفة بعده أن يقوم بهذه المهمة، وهذا أمر لا تُعرف حيثياته، وليس الخطاب فيه موجهاً

١- مسند أحمد ٨٧: ١؛ والصنعاني، المصنّف ٣٦١: ١٠؛ وعمر بن أبي عاصم، كتاب السنّة: ٥٤٩.

٢- أمالي المحاملي: ١٥٧.

٣- مجمع الزوائد ١٨٥: ٥.

٤- المزي، تهذيب الكمال ٢٦٥: ٦- ٢٧٧.

ص: ٧٦

للمسلمين، أو بنحو بيان الحكم مثل: يجب إخراج أهل نجران، أو إن الله فرض عليكم إخراج أهل نجران، فهذه الألسنة التي وردت بها هذه الرواية هنا لا تثبت حكماً إلهياً دائماً إلى يوم القيامة.

الحديث الخامس: خبر دعائم الإسلام، عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «لا يدخل أهل الذمة الحرم، ولا دار الهجرة، ويخرجون منهما». (١) فهذا الحديث يمنع دخول أهل الذمة دار الهجرة، فإذا منع من ذلك أهل الذمة، فبطريق أولى أن يمنع سائر الكفار لاسيما المشركين، والظاهر أن المراد بدار الهجرة المدينة المنورة أو مطلق الحجاز على أبعد تقدير؛ وظاهر الحديث مطلق دخولهم ولو للزيارة أو التجارة أو نحو ذلك؛ لأن التعبير جاء «لا يدخل» وهو شامل لذلك كله. والخبر جيد دلالة، لكنّه ضعيف السند جداً؛ فإنه ورد مرسلًا بلا سند أصلاً.

الحديث السادس: خبر علي بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر (ع) قال: وسألته عن اليهودى والنصرانى والمجوسى، هل يصلح أن يسكنوا فى دار الهجرة؟ قال: «أما أن يلبثوا فيها فلا يصلح»، وقال: «إن نزلوا نهاراً ويخرجوا منها بالليل فلا بأس». (٢) ودلالاتها على منعهم من الاستقرار واضحة، لكنها تجيز الزيارة بمقدار بسيط؛ لهذا فهى تخصّص إطلاق خبر الدعائم المتقدّم من هذه الناحية. لكنّ هذا الخبر ورد فى قرب الإسناد للحميرى وتهذيب الأحكام للطوسى بسند فيه عبد الله بن الحسن، وهناك فى السند أيضاً أحمد بن محمد بن يحيى العطار، وهما مجهولان، ولم ينقل هذه الرواية الحرّ العاملى عن مسائل على بن جعفر مباشرة حتى يصحّح الطريق ولو على مثل نظرية السيد الخوئى، ولعلّ نسخة مسائل على بن جعفر التى وصلت للحرّ العاملى ليس فيها هذا الحديث، وإنما هو

١- القاضى النعمان، دعائم الإسلام ٣٨١: ١.

٢- تهذيب الأحكام ٢٧٧: ٨؛ ومسائل على بن جعفر: ٢٩٦؛ قرب الإسناد: ٢٦٠.

ص: ٧٧

موجود في النسخة المطبوعة اليوم، والتي لا يحرز صحتها، فالخبر من الناحية السندية ضعيف.

ومن هذا كله، يظهر أن الرواية الوحيدة التامة سنداً هي الوصية النبوية بحسب ما نقلها لنا ابن عباس من طريق أهل السنّة، إذا غرضنا الطرف عن إشكاليّة ابن عباس نفسه، وهي خاصيّة بالمشرّكين ولا- تشمل سائر الديانات، كما أنّ ظاهرها إخراج الجماعات مقابل استيطانها، لا- إخراج الأفراد أو المنع من الزيارة والتجارة، فضلاً عن إشكاليّة احتمال التاريخيّة فيها، كما هي الحال في إنفاذ جيش أسامة الذي جاء في ضمن الوصية أيضاً، لاسيما وأننا لا نملك نصّ كلام النبي (ص) وإنما مضمونه الكليّ بحسب نقل الرواة، هذا ولا تسلم هذه الرواية شيعياً- كما هو المعروف- سنداً؛ لعدم ورودها بطريق صحيح من طرق الإمامية.

أما روايات إخراج اليهود والنصارى فنشكك فيها جداً من حيث كونها حكماً إلهياً، لمجمل الملاحظات التي تقدّمت.

والاحتمال الراجح عندي أنّ النبي (ص) أوصى وصيةً سياسيةً أمنيّةً بإخراج المشرّكين من الجزيرة بوصفها البلد الإسلامي الوحيد عند وفاته، حمايةً لوضع الدولة واستقرارها من أن يخطط هؤلاء شيئاً، وأنّ هذا النصّ تمّ فهمه فهماً أبدياً من جهة، ثم تمّ توظيفه بتعديل المشرّكين إلى ما يشمل اليهود والنصارى، لتفسير الخطوة التي قام بها عمر بن الخطاب فيما بعد تفسيراً دينياً، باعتقاد أنّ التفسير الديني هو الوحيد القادر على أن يعذره، فاتسع المفهوم وتحوّل إلى حكم شرعيّ عام وراسخ.

مساحة الحكم: جزيرة العرب أم الحجاز أم ..؟

وقع بحث بين العلماء في المنطقة التي يفترض إخراج المشرّكين منها، وقد لاحظنا أنّ الروايات نفسها طرحت عدّة عناوين في هذا الإطار مثل: جزيرة العرب، دار الهجرة، الحجاز، نجران.

وقد تعدّدت الكلمات في تحديد جزيرة العرب (أرض العرب) وبلاد الحجاز، وهذه بعض الكلمات:

ص: ٧٨

ذكر بعضهم - ونقل عن الأصمعي - أنّ جزيرة العرب هي من أقصى عدن إلى ريف العراق في الطول، ومن جدّة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام في العرض. (١) وقالوا: جزيرة العرب أربعة أقسام: اليمن، ونجد، والحجاز، والغور، وهي تهامة، فمن جزيرة العرب الحجاز وما جمعه، وتهامة واليمن وسبأ والأحقاف واليمامة والشحر وهجر وعمان والطائف ونجران والحجر وديار ثمود والبئر المعطلّة والقصر المشيد وإرم ذات العماد وأصحاب الأخدود وديار كندة طيء وما بين ذلك. (٢) وينقل عن الإمام أحمد بن حنبل فيما يظهر تعريف آخر لجزيرة العرب بأنّها المدينة وما والاها، (٣) ولعلّه ليس بصدد تعريفها بقدر ما هو بصدد بيان حدود مساحة الحكم بالإجلاء، أي بصدد تفسير المراد مما جاء في الأحاديث، على أساس أنه من المعلوم تاريخياً أنه لم يتم إجلاء أحد من شيماء ولا من اليمن؛ وهذا ما يظهر بوضوح من مقاربة غير واحد من الفقهاء للمسألة، مستدلّين بأنّ أحداً من الخلفاء لم يُجل أو يمنع الكفار من اليمن وشيماء. (٤) ويظهر من العلامة الحلبي أنّ «جزيرة العرب» قد تطلق على الحجاز، (٥) لكنّه في كتاب آخر ذكر عدم استيطانهم الحجاز، وفسّره

- ١- النووي، المجموع ٤٢٩: ١٩؛ لسان العرب ١٣٣: ٤ - ١٣٤؛ مغنى المحتاج ٢٤٦: ٤؛ وتنوير الحوالك: ٤٤٣؛ والفائق في غريب الحديث ١٨٢: ١؛ المعارف: ٥٦٦؛ ومعجم ما استعجم ٦: ١؛ هذا وحددت عرضاً من جدّة إلى ريف العراق أو أنف العراق، فانظر: معجم ما استعجم ٦: ١.
- ٢- معجم البلدان ١٣٨: ٢.
- ٣- ابن قدامة، المغنى ٦١٤: ١٠.
- ٤- البهوتي، كشف القناع عن متن الإقناع ١٥٥: ٣؛ والطوسي، المبسوط ٤٧: ٢؛ والمحقق الحلبي، شرائع الإسلام ٢٥٣: ١؛ والعلامة الحلبي، تذكرة الفقهاء ٣٣٥: ٩؛ ومنتهى المطلب حجري ٩٧١: ٢.
- ٥- تحرير الأحكام الشرعية ٢١٢: ٢.

ص: ٧٩

بخصوص مكة والمدينة، (١) مع أنه فسّر أرض الحجاز في موضع ثالث بأنها مكة والمدينة واليمامة وخيبر وينبع وفدك ومخالفها. (٢) وذكر بعضهم أنّ جزيرة العرب هي: "ما بين حفر أبي موسى الأشعري إلى أقصى اليمن في الطول، وفي العرض ما بين رمل يبرين إلى منقطع السماوة." (٣) وبهذا يرجح بمراجعة كلمات اللغويين وأمثالهم أنّ جزيرة العرب تدخل فيها اليمن والحجاز ووسط الجزيرة اليوم، بل نحن نرجح ذلك بتسميتها جزيرة؛ لأنّ هذا معناه أنهم فهموا منها أنها محاطة بالمياه، وهذا ما يؤكّد أنهم يرون حدودها من الجنوب عند اليمن وعمان هو البحر، ومن الشرق بحر الهند وبحر عمان، ومن الشمال الشرقي الخليج الفارسي، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشمال أطراف الشام وبلاد العراق، بل نهري دجلة والفرات كما يشير الطريحي إليهما، (٤) ولو كانت خاصّة بالحجاز أو لا تشمل اليمن ولا وسط الجزيرة فلماذا أطلقوا عليها هذه التسمية؟! وكذلك بشاهد جعلها جزيرة العرب؛ لأنّ العرب كانوا يسكنون هذه المنطقة كلّها.

أما الفقهاء، فقد اضطروا لطرح تفاسير أخرى لها كحصرها بالحجاز؛ للخروج من تعارض الروايات تارة، وتفسير عدم إخراج أحد من الكفار من اليمن، بل هذا هو المفهوم من كلماتهم، وما ذكره العلامة الحلبي من أنّهم يطلقون الجزيرة على خصوص الحجاز لم أعثر عليه.

وهذا ما يضعنا أمام إشكالية التشكيك في صدور الروايات التي ورد فيها التعبير بجزيرة العرب، فلو صدر هذا النص فلماذا لم يطالب أحد من الخلفاء بإجرائه؟ ولماذا لم يطالب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بذلك عندما قرّر إجلاء يهود خيبر وغيرهم ولم يذكره أحد من

١- قواعد الأحكام ٥١٥: ١.

٢- منتهى المطلب ٩٧١: ٢؛ وتحرير الأحكام الشرعية ٢١٢: ٢.

٣- الصحاح ٦١٣: ٢؛ ومعجم استعجم ٦: ١؛ والنهاية في غريب الحديث ٢٦٨: ١؛ ولسان العرب ١٣٤: ٤.

٤- مجمع البحرين ٣٧٠: ١.

ص: ٨٠

الصحابه؟! هذا الأمر يضعف الوثوق مجدداً بصدور هذه الروايات أو على الأقل يفرض الأخذ بالقدر المتيقن، وهو بلاد الحجاز خاصة.

نتائج البحث

نستنتج من مجموعة النقاط والمدخلات التي تقدّمت ما يلي:

أولاً: إنّنا نشكك في أصل الحكم بإخراج الكفار من جزيرة العرب أو بلاد الحجاز، وفقاً للسيد الخوئي ولأستاذنا السيد محمود الهاشمي، نعم مكة المكرمة أمرٌ يمكن القبول به في دائرة المشركين؛ انطلاقاً من قوله تعالى: .. فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِهِمْ هَذَا ... (١) فإنّ النهي عن الاقتراب إذا فهم منه الدخول اختصت الحرمه به دون سائر أحياء مكة، وأما إذا فهم منه أن يكونوا على مقربة منه، فهذا يعني عدم الاقتراب لا عدم الدخول، فيلزم المنع من دخولهم المنطقه المحيطة بالمسجد الحرام أيضاً، ما لم نفسّر المسجد الحرام بمطلق الحرم، فيكون الحكم شاملاً لمكة وأزيد بقليل.

ثانياً: لو سلّم الحكم، فهو خاصّ بالمشركين، وليس شاملاً لأهل الكتاب.

ثالثاً: المقدار المتيقن من المساحة الجغرافية المحظورة هو بلاد الحجاز، أمّا غيرها فمشكوك، ومقتضى الأصل عدم الحظر.

رابعاً: المقدار المتيقن هو استيطانهم بلاد الجزيرة، وأمّا مطلق الزيارة أو المرور أو الدفن فلا دليل عليه، نعم دخول المشركين إلى المسجد الحرام ممنوع مطلقاً.

خامساً: إذا لزم من دخولهم هذه الأرض، بل مطلق بلاد المسلمين، محذورٌ آخر أو عنوان ثانوي، حرّم دخولهم ومنعوا من ذلك، وهذا أمرٌ آخر واضح.

الإحصار في الحج والعمرة

الإحصار في الحج والعمرة (١)

.. فَإِنْ أَحْصِرْتُمْ ...

حسن محمد

وَأَتِمُّوا لِحَجِّ وَلِئِمْرَةَ اللَّهِ فَإِنْ أَحْصِرْتُمْ فَمَا سَتَيْسَرَ مِنْ لَهْدِي وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ لَهْدِي مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى لِحَجِّ فَمَا سَتَيْسَرَ مِنْ لَهْدِي فَمَنْ لَمْ يَجِدْ صِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي لِحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي لِمَسْجِدِ لِحْرَامٍ وَتَقَوُا لِلَّهِ وَعَلَّمُوا أَنَّ لِلَّهِ شَدِيدَ عُقَابٍ. «١» فبعد أن تحدث القرآن الكريم عن الصيام، وشهر رمضان، ونزول القرآن الكريم، وأحكام الصيام، وعن الأهل وأنها مواقيت للناس والحج، وعن القتال عند المسجد الحرام وهو الساحة الرئيسة لأعمال الحج والعمرة، والأشهر الحرم وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب،

ص: ٨٢

ففيها شهران من أشهر الحج؛ جاء كلامه عن الحج وأحكامه الذى تأتى أشهره بعد شهر رمضان مباشرةً: شوال وذو القعدة وذو الحجة، بعد ذكره للحج والعمرة هاتين العبادتين المباركتين وشعائرها بالآية: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ... التى قبل أن تبين أحكاماً عديدةً ومهمةً نأتى عليها، تؤكد شيئاً مهماً لاتتم العبادات إلّا به، وهو أن تكون لله تعالى خالصةً .. فالحج شعيرة من شعائر الإسلام وأحد أركانه، شرعته السماء على يدى نبي الله إبراهيم (ع)، وواظب عليه العرب قبل الإسلام والمسلمون بعده وهو أقسام ثلاثة: "حج التمتع، حج القران، حج الإفراد؛" وأما العمرة فهي قسمان "عمرة مفردة، وعمرة التمتع" ولكل من الحج والعمرة واجبات وأجزاء وشروط وآداب استوعبتها كتب مختصة بهما ..

ولكن هذه العبادة حجاً كانت أو عمرةً، قد يحرم لها شخص أو جماعة وحتى أمه من الناس، إلّا أنهم قد لا يوفقون لإتمام باقى مناسكها ومواقفها، لأسباب طارئه عليهم، كعدو يصددهم، أو مرض ينتابهم، فيحول بينهم وبين ما جاؤوا لأجله وهو الحج والعمرة، فأتى هذا الاستدراك الذى تحمله الآية، ليبين لهم الحالة التى حدثت لهم ووقعوا فيها، ويضع لها أحكاماً، تيسيراً لهم بما يتفق وروح الشريعة الموصوفة بالتسهيل والتيسير، وأداءً للطاعات مهما كانت العقبات، ووصولاً للهدف الذى ينشده الدين الحنيف: التقوى والتقرب إليه تعالى، وعدم حرمانهم حجاً كانوا أو معتمرين أجور حجهم وعمارهم، بسبب ما أحيط بهم من عدو وما حل بهم من مرض أو خوف .. فتوابهم محفوظ وأجرهم مضمون، وحالهم حال من أتم حجه وعمارته، شريطة أن ينحروا ما معهم من الهدى، فيحلوا إحرامهم على تفصيل يأتى بين حالات الإحصار أو الصد، بين مانع المرض، أو الحبس، أو الخوف، ومنع العدو ...

وقت النزول:

اختلف فى وقت نزول هذه الآية، فريق ذهب إلى أنها نزلت فى السنة السادسة للهجرة النبوية المباركة فى الحديبية، اسم بئر قريية من مكة وطريق جدة، طرف الحرم على تسعة أميال من مكة،

ص: ٨٣

وقيل: سميت بشجرة حذباء كانت فى ذلك الموضع، وتمت تحتها بيعه الشجرة المعروفة. (١) فالفخر الرازى ذكر أن المفسرين أجمعوا على أن سبب نزول هذه الآية أن الكفار أحصروا النبى (ص) بالحديبية؛ وذكر أيضاً قول أبى مسلم: ... إن هذه الآية إنما نزلت بعد أن منع الكفار النبى (ص) فى السنة الماضية عن الحج والعمرة .. وهذا المنع حدث فى السنة السادسة للهجرة، فيما يذكر فى موضع آخر من تفسيره للآية أنها نزلت فى السنة السابعة من الهجرة.

الشافعى: لا خلاف بين أهل التفسير أن هذه الآية نزلت فى حصر الحديبية.

القرطبى عند حديثه حول المراد من الحصر ذكر التالى: وقال بن عمر وبن الزبير وبن عباس والشافعى وأهل المدينة: المراد بالآية حصر العدو؛ لأن الآية نزلت فى سنة ست فى عمرة الحديبية حين صد المشركون رسول الله (ص) عن مكة.

قال بن عمر: خرجنا مع رسول الله (ص) فحال كفار قريش دون البيت، فنحر النبى (ص) هديه وحلق رأسه. ودل على هذا قوله تعالى: فَإِذَا أُمْتُمْ ولم يقل: برأتم؛ والله أعلم.

بل إن بن عاشور فى تحريره نفى الخلاف حيث يقول: ولا خلاف فى أن هذه الآية نزلت فى الحديبية سنة ست، حين صد المشركون المسلمين عن البيت - مستدلاً بحديث كعب بن عجرة - وقد كانوا ناوين العمرة وذلك قبل أن يفرض الحج، فالمقصود من الكلام هو العمرة؛ وإنما ذكر الحج على وجه الإدماج، تبشيراً بأنهم سيتمكنون من الحج فيما بعد، وهذا من معجزات القرآن.

حكى صاحب الحدائق عن العلامة فى المنتهى: ونقل النيشابورى وغيره اتفاق المفسرين على أن قوله تعالى: فَإِنْ أَحْصَوْكُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ نزلت فى حصر الحديبية.

١- أنظر كنز العرفان عن الخطابى فى أماليه؛ والروض المعطار فى خبر الأقطار ...

ص: ٨٤

السيد العلامة الطباطبائى: نزلت الآيات فى حجة الوداع آخر حجة حجها رسول الله (ص) وفيها تشريع حج التمتع.

الشيخ مكارم الشيرازى: لا يعلم بدقة تاريخ نزول الآيات المتعلقة بالحج فى القرآن الكريم، ولكن يرى بعض المفسرين العظام أنها نزلت فى حجة الوداع، فى حين يرى بعضهم أن جملة: فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ناظرة إلى حادثه (الحديبية) الواقعة فى السنة السادسة للهجرة، حيث منع المسلمون من زيارة بيت الله الحرام.

سيد قطب: وليس لدينا تاريخ محدد لنزول آيات الحج هذه إلا رواية تذكر أن قوله تعالى: فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ نزلت فى الحديبية سنة ست من الهجرة.

ولم يذكر الرواية، ولا أدرى فقد تكون رواية كعب بن عجرة التى استند عليها ابن عاشور وكما ذكرت فى أسباب النزول للواحدى.

كذلك ليس لدينا- والكلام لسيد قطب- تاريخ مقطوع به لفرضية الحج فى الإسلام، سواء على الرأى الذى يقول بأنه فرض بآية: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ أَوْ بِآيَةٍ: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا الواردة فى سورة آل عمران؛ فهذه كتلك ليس لدينا عن وقت نزولها رواية قطعية الثبوت.

وقد ذكر بن قيم الجوزية فى كتاب "زاد المعاد" أن الحج فرض فى السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة؛ ارتكناً منه إلى أن الرسول (ص) حج حجة الوداع فى السنة العاشرة؛ وأنه أدى الفريضة عقب فرضها إما فى السنة التاسعة أو العاشرة.

ولكن هذا لا يصلح سنداً- كما يقول سيد قطب- فقد تكون هناك اعتبارات أخرى هى التى جعلت الرسول (ص) يؤخر حجه إلى السنة العاشرة، وبخاصة إذا لاحظنا أنه أرسل أبا بكر أميراً على الحج فى السنة التاسعة؛ وقد ورد أن رسول الله (ص) لما رجع من غزوة تبوك هم بالحج؛ ثم تذكر أن المشركين يحضرون موسم الحج على عادتهم، وأن بعضهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم .. ثم نزلت براءة، فأرسل (ص) على بن أبى طالب (ع) يبلغ مطلع براءة للناس، وينهى بها

ص: ٨٥

عهود المشركين، ويعلن يوم النحر إذا اجتمع الناس بمنى: «لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله (ص) هو إلى مدته» ومن ثم لم يحج (ص) حتى تطهر البيت من المشركين ومن العرايا. وهناك ما يستأنس به- والقول ما زال لسيد قطب- على أن فريضة الحج وشعائره قد أقرها الإسلام قبل هذا؛ وقد ورد أن الفريضة كتبت في مكة قبل الهجرة، ولكن هذا القول قد لا يجد سنداً قوياً، إلا أن آيات سورة الحج المكيه "على الأرجح" ذكرت معظم شعائر الحج، بوصفها الشعائر التي أمر الله إبراهيم بها، الآيات: ٢٦- ٢٩، ٣١- ٣٣، ٣٦- ٣٧؛ وقد ذكر في هذه الآيات أو أشير إلى الهدى والنحر والطواف والإحلال من الإحرام وذكر اسم الله، وهي شعائر الحج الأساسية، وكان الخطاب موجهاً إلى الأمة المسلمة موصولاً بسيرة أبيهم إبراهيم، مما يشير إلى فريضة الحج في وقت مبكر، باعتباره شعيرة إبراهيم الذي إليه ينتسب المسلمون؛ فإذا كانت قد وجدت عقبات من الصراع بين المسلمين والمشركين- وهم سدن الكعبة إذ ذاك- جعلت أداء الفريضة متعذراً بعض الوقت، فذلك اعتبار آخر؛ وقد رجحنا في أوائل هذا الجزء- الثاني- أن بعض المسلمين كانوا يؤدون الفريضة أفراداً في وقت مبكر؛ بعد تحويل القبلة في السنة الثانية من الهجرة. (١) وعلى القول: إن هذه الآية نزلت في قصة الحديبية سنة ست هجرية حين خرج رسول الله (ص) من المدينة في ذي القعدة متوجهاً إلى مكة المكرمة معتمراً لا محارباً، ومكة بعد لم تفتح له أبوابها، فهي ما زالت بيد مشركي قريش، وقد صدوه والمسلمين عن البيت الحرام، وكان هذا العمل منهم الذي سماه القرآن الكريم صدأً وسماه إحصاراً: ... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا (٢)

١- أنظر تفسير الرازي؛ المغنى لابن قدامة ٣٧١: ٣؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي؛ الحقائق للبحراني؛ تفسير الميزان، للعلامة الطباطبائي؛ تفسير الأمل، للشيخ مكارم الشيرازي الذي أشار إلى تفسير الميزان؛ مستدرک الوسائل ٨٥: ٨، ح ٩١١٨٢؛ في ظلال القرآن، لسيد قطب.

٢- سورة المائدة: ٢.

ص: ٨٦

هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَشِجِدِ الْحَرَامِ وَالْهُدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ (١) وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَلُعْمَرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا سَتَيْسَرَ مِنْ لَهْدَى (٢) سبقته مقدمات سلمية وخطوات طيبة من قبل رسول الله (ص) ومر بمواقف متشنجة عنيدة وبكبرياء وتعسف من قبل المشركين ظهر هذا عبر ما دار من مفاوضات بينهم وبين المسلمين .. وترتبت على فعلهم المتجسد بالحيلولة دون دخول رسول الله (ص) ومن معه مكة، ودون إتمامهم مناسكهم التي بدأوها بالإحرام وجاؤوا لها لا لشيء غيرها، والذي سمته آيات قرآنية بالإحصار والصد، أمور وأحكام مفصلة للمحصور والمصدود من المسلمين، ذكرها هذا المقطع القرآنى الكريم والسنة النبوية الشريفة ...، وقد أفردت هذه المقالة للحديث عن بعض مباحث هذه الآية ذات المباحث العديدة والمفصلة واخترت:

* الإتمام

* الإحصار

* التحلل:

- بالذبح

- بالحلق

وقبل هذا لا بد لى من الرجوع إلى قضية مجيء رسول الله (ص) وأصحابه إلى مكة لأداء العمرة، فقد تكون هى وقت نزول هذه الآية على أكثر الأقوال، أو أنها مصداق لما وصفته الآية من الإحصار والصد الذى قد يحدث لمن قد أحرم لأداء نسكى الحج والعمرة، مبينة ما عليه فعله، وهو ما زال فى أول جزء من المناسك؛ ومن الله تعالى استمد التوفيق.

أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له؟!

عبارة صريحة لأحد المفوضين بين المسلمين والمشركين عثرت عليها، تبين لنا الموقف العنيد للمشركين من رسول الله (ص) والظلم

١- سورة الفتح: ٢٥.

٢- سورة البقرة: ١٩٦.

ص: ٨٧

الذى ألحقوه به وبأتباعه وقد جاء مكة بغصن أخضر تحمله يد كريمه؛ وبقلب لم ينو سوءاً لهم، فلا سلاح ولا تأمر - مع خشيته من أن تعرض له قريش بحرب أو منع من دخول مكة - إنما هو حب لهذا البيت وتعظيم له ووفاء له وأداء لزيارته، وصله لرحم قطعها قريش، وكلامه (ص): «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطه يسألوننى فيها صلته الرحم إلا أعطيتهم إياها» إضافة لما ذكرته لنا مصادر التاريخ أدلة على سلامة موقف المسلمين وأنهم لم ينووا من مجيئهم مكة إلا خيراً، بعد أن رفضتهم قريش من قبل، ووضعت أمام دعوتهم العراقيل، وأذتهم فى دينهم أيما أذى، وفتنتهم فى عقيدتهم أيما فتنة، وقاطعتهم وحاصرتهم، وسلبت أموالهم وفرقت جمعهم، وأخرجتهم من ديارهم مكة، وقتلتهم وغزتهم فى المدينة، وفعلت كل ما يحلو لها للقضاء عليهم جميعاً... ها هو رسول الله (ص) يأتى مكة، موطنه الحبيب الذى أكره على تركه، وساق (ص) معه الهدى، وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس فى مكة ومن حولها من حرب يظنونها ويخشونها! يريد (ص) زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدى سبعين بدنة؛ راح مشركو قريش يرفضون دخول رسول الله (ص) مكة "فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً."

"هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، وقد نزلوا بذى طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدّموها إلى كراع الغميم" لقد تجسدت هذه قراراً عملياً بمنع المسلمين عن زيارة بيت الله الحرام وكان أخيراً بنداً من بنود الصلح "صلح الحديبية"، بعد أن أمروا مندوبهم: "أنت محمداً فصالحه، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً."

هذا الصد عن البيت الحرام وهذا الإحصار سعة وأحكاماً نجده فى الكتاب والسنة وأقوال أئمة التفسير والفقهاء، بعد أن نقرأ

ص: ٨٨

باختصار قصته في أقوال المؤرخين كما جاءت في سيرة ابن هشام وفي غيرها:

أقام رسول الله (ص) بالمدينة شهر رمضان وشوالاً، وخرج في ذي القعدة معتمراً، لا يريد حرباً، واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي، واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا، أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله (ص) بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.

وفي خبر خرج رسول الله (ص) عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة نفر؛ وكان جابر بن عبد الله يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة.

وخرج رسول الله (ص) حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي ويقال بُشِر- فقال: يا رسول الله، هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر، وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدّموها إلى كراع الغميم.

فقال رسول الله (ص): يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة. ثم قال: «من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التي هم بها؟»، قال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله؛ فسلك بهم طريقاً وعرّاً أجرل (أي كثير

ص: ٨٩

الحجارة؛ ويروى: أجرد أى ليس فيه نبات) بين شعاب، فلما خرجوا منه، وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى.

قال رسول الله (ص) للناس: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه» فقالوا ذلك، فقال: «والله إنها للحطه» (يريد قول الله تعالى لبنى إسرائيل: وَقُولُوا حِطَّةً. (١) ومعناه حط عنا ذنوبنا) التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها؛ فأمر رسول الله (ص) الناس فقال: اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض فى طريق (تخرجه) على ثنية المرار مهبط الحديدية من أسفل مكة؛ فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأته خيل قريش قتره الجيش (غباره) قد خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش، وخرج رسول الله (ص) حتى إذا سلك فى ثنية المرار بركت ناقته؛ فقالت الناس: خلأت (بركت) الناقة، قال: ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطه يسألوننى فيها صلته الرحم إلا أعطيتهم إياها.

ثم قال للناس: «انزلوا». قيل له: يا رسول الله! ما بالوادى ماء نزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به فى قلب (بئر) من تلك القلب. فغرزته فى جوفه، فجاش (ارتفع) بالرواء (الكثير) حتى ضرب الناس عنه بعطن (العطن: مبرك الإبل حول الماء) ... فلما اطمأن رسول الله (ص) أتاه بديل بن ورقاء الخزاعى فى رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه: ما الذى جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً البيت، ومعظماً لحرمة، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً هذا البيت، فاتهموهم وجبهوهم (خاطبوهم بما يكرهون) وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث بذلك

ص: ٩٠

عنا العرب؛ وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله (ص) مسلمها ومشرکہا لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة؛ ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف أبا بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله (ص) مقبلاً قال: هذا رجل غادر؛ فلما انتهى إلى رسول الله (ص) وكلمه، قال له رسول الله (ص) نحواً مما قال لبدیل وأصحابه؛ فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله (ص) ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان، وكان يومئذ سيد الأحابيش، وهو أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله (ص) قال: إن هذا من قوم يتألهون (يتعبدون ويعظمون أمر الإله)، فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده (ما يعلق فى أعناق الهدى ليعلم أنه هدى) وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله (موضعه الذى ينحرف فيه من الحرم) رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله (ص) إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك. قال: فقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابى لا علم لك. غضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا عاقدناكم. أیصد عن بيت الله من جاء معظماً له! والذى نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفره رجل واحد. فقالوا له: مه، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسول الله (ص) عروة بن مسعود الثقفى؛ فقال: يا معشر قريش، إنى قد رأيت ما يلقى منكم من بعثموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد- وكان عروة لسيعة بنت عبد شمس- وقد سمعت بالذى نابكم، فجمعت من أطاعنى من قومى، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى؛ قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم؛ فخرج حتى أتى رسول الله (ص) فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب (أخلاق) الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل؛ قد لبسوا جلود النمر، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وأيم الله، لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً...

ثم

ص: ٩١

جعل يتناول لحيه رسول الله (ص) وهو يكلمه؛ والمغيرة بن شعبه واقف على رأس رسول الله (ص) فى الحديد؛ فجعل يقرع يده إذ تناول لحيه رسول الله (ص) ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله (ص) قبل أن لا- تصل إليك؛ فيقول عروة: ويحك! ما أفضك وأغلظك! فتبسم رسول الله (ص) فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا بن أخيك المغيرة بن شعبه؛ قال: أى غدر، وهل غسلت سوءتك إلا- بالأمس. أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبه قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بنى مالك من ثقيف، فتهايج الحيان من ثقيف: بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر. فكلمه رسول الله (ص) بنحو مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. فقام من عند رسول الله (ص) وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه. ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشىء أبداً، فروا رأيكم .. وإن رسول الله (ص) دعا خراش بن أمية الخزاعى، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له يقال له الثعلب، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله (ص) وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله، حتى أتى رسول الله (ص).

وفى خبر أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين رجلاً، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله (ص) ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً، فأتى بهم رسول الله (ص) فعفا عنهم وخلي سبيلهم، وقد كانوا رموا فى عسكر رسول الله (ص) بالحجارة والنبل. ثم دعا عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى، وقد عرفت قريش

ص: ٩٢

عداوتى إياها، وغلظتى عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان بن عفان؛ فدعا رسول الله (ص) عثمان بن عفان، فبعته إلى أبى سفيان وأشرف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظماً لحرمة.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله (ص) فانطلق عثمان حتى أتى أبى سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله (ص) ما أرسله به؛ فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله (ص) إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف؛ فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله (ص) واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله (ص) والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل، وفى خبر أن رسول الله (ص) قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم، فدعا رسول الله (ص) الناس إلى البيعة؛ فكانت بيعه الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله (ص) على الموت، وكان جابر بن عبدالله يقول: إن رسول الله (ص) لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر... وأنك ترجع عنا عامك هذا !!..

ثم بعث قريش سهيل بن عمرو، أخا بنى عامر بن لؤى، إلى رسول الله (ص) وقالوا له: ائت محمداً فصالحه، ولا يكن فى صلحه إلّا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوةً أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله (ص) مقبلاً، قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل».

فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله (ص) تكلم فأطال الكلام، وتراجعاً، ثم جرى بينهما الصلح؛ وكان آخر بنود الصلح هذا (وأنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام

ص: ٩٣

قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف فى القرب، لا تدخلها غيرها).
قدم (ص) إلى هديه فنحره!!

وكان رسول الله (ص) مضطرباً فى الحل، وكان يصلى فى الحرم، فلما فرغ من الصلح قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، وكان الذى حلقه فى ذلك اليوم خراش بن أمية بن الفضل الخزاعي؛ فلما رأى الناس أن رسول الله (ص) قد نحر وحلق توثبوا ينحرون ويحلقون. عن ابن عباس قال: حلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون. فقال رسول الله (ص): «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين» قالوا: «المقصرين» فقالوا: يا رسول الله: فلم ظهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: «لم يشكوا». (١) إذن منع رسول الله (ص) ومن معه من المسلمين من دخول مكة، فوقع الإحصار والصد، وبعد معرفته هذا نعود إلى ما أشرنا إليه من مباحث فى الآية الكريمة:

* الإتمام: وَأَتَمُّوا لِحَجِّ وَلُحْمَةَ لِلَّهِ

فهو من الفعل تم يتم تماماً؛ ومنه أتم الشئ أكمله وتمم الشئ تميماً وتممةً: أكمله؛ واستتم الشئ: أكمله ومنه التمام أى تمام الشئ: ما يتم به؛ والتم: الشئ التام، أى أن يؤتى بجميع أجزائه.

وقد اختلفت استفادتهم من هذا الفعل أتموا الذى تكرر ذكره فى القرآن الكريم: ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ. (٢) أمر يقتضى الوجوب

١- السيرة النبوية، لابن هشام، بحذف الأسناد وتصرف بسيط.

٢- سورة البقرة: ١٨٧.

ص: ٩٤

ولكن لا وجوب الصيام بل وجوب إتمام الصيام إلى الليل؛ فإنَّ وجوب الصيام لا يثبت بهذه الآية بل بغيرها من الآيات، كالأية: ١٨٣ البقرة.

فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ. (١) أيضاً هو أمر بإتمام العهد لا إنشاء العهد فقد أنشئ العهد من قبل. وهكذا الآية التى نحن بصدددها، فهى قد لا تدل على وجوب الحج، فوجوبه يستفاد من غيرها من الآيات (الآية ٩٦ من سورة آل عمران، والآية ٢٧ من سورة الحج والسنة النبوية) فيما حمله بعضهم على إيجاب الحج؛ لأنها أول آية نزلت تتحدث عن الحج وأحكامه، وذكروا أدلتهم على استفادة وجوب الحج والعمرة أيضاً منها، وأنَّ حمل هذه الآية على إيجاب الحج والعمرة أولى من حملها على إتمامهما حين الشروع بكل منهما؛ نعم الأمر بإتمام كل من الحج والعمرة لله دليل على أن كلاً منهما عبادة واجبة كانت أو مستحبة... هذا ما سنجدده من أقوال ونجد غيره من أحكام عند التعرض لكلماتهم.

إذن وقع كلام بينهم فى المعنى المراد بهذا الإتمام، واختلفت استفادتهم من هذا الأمر: أتمُّوا.

هل هو إنشاء لفريضة الحج دون العمرة أو لهما معاً؟

هل هو أمر بإتمام كل منهما متى بدئ بهما؟ ويحصل من هذا التأويل فائدة فقهية- كما يقول أبو مسلم- وهى أن تطوع الحج والعمرة كفرضيهما فى وجوب الإتمام.

أو أنَّ المراد من: أتمُّوا هو الإتيان بهما لا الإتمام بعد الشروع.

وبما أنَّ الحج واجب وهو أمر مفروغ منه للأدلة، هل يستفاد من هذه الآية وجوب العمرة؟ فتدرج هذه الآية فى الاستدلال الفقهي تحت عنوان أدلة وجوب الحج والعمرة لا- فقط فى باب أفعال وأنواع الحج والعمرة وأحكامهما، علماً بأنَّ هناك قولين للعلماء؛ قول بوجوب العمرة، وقول باستحبابها، فهل يستفاد وجوبها من الآية المذكورة؟ وحتى عند من يقول باستفادة استحباب العمرة من هذه الآية، فإنَّ الشروع بها يوجب إتمامها، وإن كان هناك من يقول بأنَّ الإتمام فى الآية يعنى وجوب أدائهما.

ص: ٩٥

هذه النقاط وغيرها سنجد الإجابة عنها فيما ذكره من تفصيل:

يقول سيد قطب: وقد فهم بعض المفسرين من هذا الأمر أنه إنشاء لفريضة الحج، وفهم بعضهم أنه الأمر بإتمامه متى بدىء- وهذا هو الأظهر- فالعمرة ليست فريضة عند الجميع، ومع هذا ورد الأمر هنا بإتمامها كالحج، مما يدل على أن المقصود هو الأمر بالإتمام لا إنشاء الفريضة بهذا النص؛ ويؤخذ من هذا الأمر كذلك أن العمرة- ولو أنها ابتداء ليست واجبة- إلا أنه متى أهل بها المعتمر فإن إتمامها يصبح واجباً، والعمرة كالحج فى شعائرها ما عدا الوقوف بعرفة، والأشهر أنها تؤدى على مدار العام، وليست موقوتة بأشهر معلومات كالحج.

ابن كثير: ... شرع فى بيان المناسك، فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما؛ ولهذا قال بعده: فَإِنَّ أَحْصِرْتُمْ أَى صَدَدْتُمْ عَنِ الْوَصُولِ إِلَى الْبَيْتِ وَمَنْعْتُمْ مِنْ إِتْمَامِهِمَا، ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع فى الحج والعمرة ملزم سواء قيل بوجود العمرة أو باستحبابها كما هو قولان للعلماء.

الشيخ الطبرسى: وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ أَى أْتَمُّوا بِمَنَاسِكِهِمَا وَحُدُودِهِمَا وَتَأْدِيَهُ كُلِّ مَا فِيهِمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَقِيمُوهُمَا إِلَى آخِرِ مَا فِيهِمَا وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع) وَعَلَى بَنِ الْحُسَيْنِ (ع) وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَمَسْرُوقٍ وَالسُّدِّىِّ. فى حين ذكر القرطبي الاختلاف فى المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة لله مبيناً أن هناك مذهبين: من يوجب العمرة.

من لا يوجبها.

ولكل منهما فهمه لمراد: وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ قِيلَ: أَدَاؤُهُمَا وَالِإِتْيَانُ بِهِمَا؛ كَقَوْلِهِ: فَاتَّمَّهُنَّ. (١) وَقَوْلِهِ: ثُمَّ أْتَمُّوا لَصِّيَامٍ إِلَى اللَّيْلِ. (٢) أَى اتُّوا بِالصِّيَامِ؛ ثُمَّ يَعْقِبُ قَائِلًا: وَهَذَا عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ أَوْجِبِ الْعُمْرَةَ.

١- سورة البقرة: ١٢٤.

٢- سورة البقرة: ١٨٧.

ص: ٩٦

ومن لم يوجبها قال: المراد تمامهما بعد الشروع فيهما، فإنَّ مَنْ أَحْرَمَ بُنْسَكَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْمَضَى فِيهِ وَلَا يَفْسُخُهُ؛ قَالَ مَعْنَاهُ الشَّعْبِيُّ وَبْنُ زَيْدٍ.

وعن علي بن أبي طالب (ع): إتمامهما أن تُحْرَمَ بِهِمَا مِنْ دُوَيْرَةٍ أَهْلَكَ.

وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص، وفعله عمران بن حصين.

وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن تخرج قاصداً لهما لا لتجارة ولا لغير ذلك؛ ويقوى هذا قوله: لَلَّهِ.

وقال عمر: إتمامهما أن يُفْرَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ غَيْرِ تَمَتُّعٍ وَقِرَانٍ؛ وَقَالَ بَنُ حَبِيبٍ.

وقال مقاتل: إتمامهما ألما تستحلوا فيهما ما لا ينبغي لكم؛ وذلك أنهم كانوا يشركون في إحرامهم فيقولون: لَبَيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْكَ، لَا

شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكاً هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَكَ. فَقَالَ: فَأَتَمُّهُمَا وَلَا تَخْلُطُوهُمَا بِشَيْءٍ آخَرَ.

هذا ما ذكره القرطبي من أقوال بخصوص أتموا.

فيما أضاف ابن الجوزي في تفسير زاد المسير، قولين آخرين: أن معنى إتمامها، أن يفصل بينهما، فيأتي بالعمرة في غير أشهر الحج،

قاله عمر بن الخطاب، والحسن، وعطاء؛ أنه فعل ما أمر الله فيهما، قاله مجاهد.

الرازي يقول: إنَّ أَهْلَ التَّفْسِيرِ ذَكَرُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ هِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْحَجِّ، فَحَمَلَهَا عَلَى إِجْبَابِ الْحَجِّ أَوْلَى مِنْ حَمَلِهَا عَلَى الْإِتْمَامِ

بشروط الشروع فيه.

وأما عن قراءة الرفع والتي قصدوا بها إخراج العمرة عن حكم الحج في الوجوب، فالرازي يدفعها لشذوذها وضعفها. (١) وقد استدل

الرازي على أن العمرة واجبة في حجته الثانية، التي احتج بها في وجوب العمرة قوله تعالى: يَوْمَ لَحَجَّ لِأَكْبَرٍ. (٢) يدل

١- مجلة ميقات الحج، العدد: ٣٠، قراءة في آية من آيات الحج.

٢- سورة التوبة: ٣.

ص: ٩٧

على وجوب حج أصغر على ما عليه حقيقةً أفعّل، وما ذاك إلّا العمرة بالاتفاق، وإذا ثبت أنّ العمرة حج، وجب أن تكون واجبةً لقوله تعالى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَلِقَوْلِهِ: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ بُيُوتِهِ. (١) ثم ذكر عدداً من الروايات تأييداً لما ذهب إليه من وجوب العمرة، وهو ما جاء فى الحجّة الثالثة.

ما أورده ابن الجوزى فى المتفق بين الصحيحين أنّ جبريل (ع) سأل رسول الله (ص) عن الإسلام، فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج وتعتمر».

عن أبى رزين أنه سأل النبى (ص) فقال: إنّ أبى شيخ كفى أدرك الإسلام، ولا يستطيع الحج والعمرة ولا الطعن، فقال (ص): «حج عن أبيك واعتمر»، فأمر بهما، والأمر للوجوب.

عن زيد بن ثابت أنه (ص) قال: «الحج والعمرة فرضان لا يضرك بأيهما بدأت».

عن عائشة أم المؤمنين، قالت: قلت يا رسول الله هل على النساء جهاد؟ فقال (ص): «عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة».

وفى الحجّة الرابعة والأخيرة يأتي بما قاله الشافعى: اعتمر النبى (ص) قبل الحج، ولو لم تكن العمرة واجبةً لكان الأشبه أن يبادر إلى الحج الذى هو واجب.

هذه الأدلة ساقها الرازى على ما ذهب إليه من وجوب العمرة؛ لينتقل إلى ذكر ومناقشة أدلة من لم يذهب إلى وجوبها وردها جميعاً... أما القرطبى فهو الآخر يذهب إلى أنّ هذه الآية تعد دليلاً على وجوب العمرة؛ لأنه تعالى أمر بإتمامها كما أمر بإتمام الحج، وهو ما تعرض له فى المسألة الرابعة من تفسيره.

ص: ٩٨

فكل من الرازي والقرطبي يذهبان إلى وجوب العمرة بهذه الآية. (١) وأما الأردبيلي في زبدة البيان - بعد أن يحكى عن الكشاف وتفسير القاضى ومجمع البيان: وأتموهما يعنى إئتوا بهما تامين مستجمعين للشرائط مع جميع المناسك وتأديه كل ما فيهما، أى المراد الإتيان بهما لا الإتمام بعد الشروع فيهما؛ ويؤيده قراءة "أقيموا الحج والعمرة" وبعد أن يذكر حسنة عمر بن أذينة التى قال فيها: كتبت إلى أبى عبد الله (ع) بمسائل بعضها مع أبى بكر وبعضها مع أبى العباس، وجاء الجواب ياملائه (ع): سألت عن قول الله عزوجل: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا يعنى به الحج والعمرة جميعاً؛ لأنهما مفروضان؛ وسألت عن قول الله عزوجل: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ قَالَ: يعنى بتمامهما أداءهما واتقاء ما يتقى المحرم فيهما؛ وسألت عن قوله تعالى: الْحَجُّ الْأَكْبَرُ ما يعنى بالحج الأكبر؟ فقال: الحج الأكبر الوقوف بعرفة ورمى الجمار، والحج الأصغر العمرة. (٢) - فينتهى إلى نتيجتين:

الأولى يقول فيها: فعلى هذه التفاسير كلها تدل الآية على وجوب الحج والعمرة ابتداءً، وإن لم يكن شرع فيهما، والظاهر أنه لا خلاف عندنا فيه، ويدل عليه الأخبار أيضاً، وعلى وجوب القربة فى فعلهما، فيفهم وجوب النيء فيهما وفى سائر العبادات لعدم القائل بالفصل كما هو مذهبا.

وأما دلالتها حينئذ على إتمام الحج المندوب وإتمام الحج الواجب الفاسد والعمرة كذلك كما قيل ليست بواضحة إلا بتكلف؛ نعم لا يبعد إتمامهما فى الفاسد بدليل وجوب أصلهما، وأصل عدم سقوط الباقي بالإفساد والأصل بقاؤه. والنتيجة الأخرى التى استظهرها بعيداً عما ذكره: ولكن ظاهر الآية مع قطع النظر عن التفاسير التى تقدمت وجوب إتمامهما

١- أنظر تفسيرى الرازى والقرطبي: الآية، بتصرف.

٢- الكافى ٢٦٤: ٤.

ص: ٩٩

بعد الشروع، فنفيد وجوب إتمام كل منهما بعد الشروع فيهما ندباً، أو مع الإفساد؛ وحينئذ لا تدل على وجوبهما أصالةً وقبل الشروع. وأيضاً الزمخشري في تفسير الكشاف لا يرى أن الآية تدل على كونهما واجبين أو تطوعين، حيث يقول: فإن قلت: هل فيه دليل على وجوب العمرة؟ قلت: ما هو إلّا أمر بإتمامهما، ولا دليل فى ذلك على كونهما واجبين أو تطوعين، فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعاً.

إلّا أن تقول: الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما، بدليل قراءة من قرأ «وأقيموا الحج والعمرة» والأمر للوجوب فى أصله، إلّا أن يدل دليل على خلاف الوجوب كما دلّ فى قوله: فاضطأذوا. (١) فانتشروا. (٢) ونحو ذلك.

فيقال لك: فقد دلّ الدليل على نفي الوجوب، وهو ما روى: أنه قيل: يا رسول الله: العمرة واجبة مثل الحج؟ قال: «لا، ولكن أن تعتمر خير لك». وعنه: «الحج جهاد والعمرة تطوع».

فإن قلت: فقد روى عن ابن عباس أنه قال: إن العمرة لقرينة الحج؛ وعن عمر: أن رجلاً قال له: إنى وجدت الحج والعمرة مكتوبين على، أهلت بهما جميعاً فقال: «هديت لسنة نبيك». وقد نظمت مع الحج فى الأمر بالإتمام فكانت واجبة مثل الحج؟

قلت: كونها قرينة للحج أن القارن يقرب بينهما، وأنهما يقترنان فى الذكر فيقال: حج فلان واعتمر والحجاج والعمار، ولأنها الحج الأصغر، ولا- دليل فى ذلك على كونها قرينة له فى الوجوب. وأمّا حديث عمر فقد فسر الرجل كونهما مكتوبين عليه بقوله: أهلت بهما، وإذا أهل بالعمرة وجبت عليه كما إذا كبر بالتطوع من الصلاة؛ والدليل الذى ذكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فبقى الحج وحده فيها، فهما بمنزلة قولك: صم شهر رمضان وستة من شوال، فى أنك تأمره بفرض وتطوع.

ما ورد على الزمخشري:

١- سورة المائدة: ٢.

٢- سورة الأحزاب: ٥٣.

ص: ١٠٠

وهنا يرد إشكال عليه أو تدافع فى قوله الأخير فهو وإن حمل الآية على محض الأمر بإتمامهما بعد الشروع فيهما، واختار كون العمرة غير واجبة وهو ما عليه آخرون غيره، إلا أن الكلام فى اجتماع الأمر للوجوب والندب وكما يراه الزمخشري فى آية وَأْتُمُوا... وفيما ذكره بعد فى آية الوضوء.

والدليل الذى ذكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فى الحج وحده فيها، فهما بمنزلة قولك: صم شهر رمضان وستة من شوال، فى أنك تأمره بفرض وتطوع.

عبارة أطلقها هنا فى كلامه عن هذه الآية: وَأْتُمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ مخرجاً العمرة من صفة الوجوب، ومبقياً الحج وحده مشمولاً بالوجوب، فهما بمنزلة وجوب صيام شهر رمضان، واستحباب صيام ستة من شهر شوال؛ فاجتمع الوجوب والاستحباب بأمر واحد، وهو يتنافى مع ما ورد عنه فى تفسيره لآية الوضوء ٦ من سورة المائدة.

هل يجوز أن يكون الأمر شاملاً للمحدثين وغيرهم لهؤلاء على وجه الإيجاب ولهؤلاء على وجه الندب؟

قلت: لا؛ لأن تناول الكلمة لمعنيين مختلفين من باب الإلغاز والتعمية؛ فقد قيل الاجتماع هناك وعده هنا ألغازاً وتعمية!! وللمحقق الأردبيلي فى زبدة البيان تنبيه على ما وقع به صاحب الكشاف من تدافع وغبابة أثارت عجب المحقق، فراح يناقشه فيما وقع فيه، وترك نقاشه مطالب نافعاً لمن أراد ذلك.

وقد ذكر صاحب كنز العرفان أقوالاً عديدة قبل أن يصل إلى القول المتبنى من قبله، فيقول:

تمام الحج والعمرة قيل: هو أن يحرم بهما من دويرة أهله.

وقيل: أن يفرد لكل واحد منهما سفراً.

وقيل: إخلاصهما للعبادة لا للمعاش.

ثم يقول: والحق أن المراد أن يؤتى بجميع أجزائهما وكيفيات تلك الأجزاء؛ ثم يقول: لكن لكون كل واحد منهما مركباً من أجزاء مختلفة ربما يوهم أن من أتى ببعض تلك الأجزاء وأخل بالباقي عمداً يصح منه ذلك المأتي به، ويجب عليه قضاء الباقي كمن صام بعض رمضان وترك الباقي، وذلك وهم باطل، فإن كل

ص: ١٠١

واحد من تلك الأجزاء شرط فى صحته الباقي كأجزاء الصلاة، فإذا لم يأت الحاج أو المصلى بكل الأجزاء بطل حجه وصلاته بخلاف الصوم، فإن كل يوم من أيام رمضان عبادة مستقلة لا ارتباط لها بيوم آخر ولا شرطية لأحدهما بالآخر، ولذلك قال المحققون من أصحابنا: إن كل يوم من أيام رمضان يفتقر إلى نية مستقلة.

ثم راح يذكر التالى:

١. ما قاله أصحابنا أن من أفسد حجه، وجب عليه إتمامه والحج من قابل لوجوب إتمام الحج، والإفساد غير مانع منه؛ ثم إن الإفساد عندنا سبب مستقل لوجوب الحج كغيره من الأسباب كالنذر والاستيجار، فيجب حج آخر غير الأول ولو كان مندوباً؛ وكذا نقول فيمن أفسد صومه الواجب المعين أنه يجب إتمامه وقضاؤه.

٢. استدل أصحابنا بالآية أيضاً على وجوب إتمام الحج والعمرة المندوبين.

٣. أن الأمر بإتمامهما قد يستدل به على وجوب كل واحد منهما؛ لأن الأمر للوجوب، ووجوب كل واحد من الأجزاء يستلزم وجوب الماهية المركبة من تلك الأجزاء ضرورة، فتكون العمرة واجبة خلافاً لأبى حنيفة فإنه جعلها سنةً وكذلك قال مالك، وأولا الآية بأن المراد إذا شرعتم فيهما، فإنّ الشروع فى الندب يوجب إتمامه عندهم أيضاً.

محمد متولى يقول عن وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ: نفهم منه أن الأمر بإتمام الشىء لا يكون إلّا إذا جاء الأمر بفرض هذا الفعل، فكأنك بدأت فى العمل بعد التشريع به، ويريد منك سبحانه إلّا تحج فقط، ولكن يريد منك أن تتمه وتجعله تاماً مستوفياً لكل مطلوبات المشرع له؛ وساعه يقول الحق: وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ لقائل أن يقول: إن الحج شىء والعمرة شىء آخر، بدليل عطفها عليه، والعطف يقتضى المغايرة كما يقتضى المشاركة، فإن وجدت مشاركة ولم توجد مغايرة فلا يصح العطف، بل لابد أن يوجد مشاركة ومغايرة. والمشاركة بين الحج والعمرة أن كليهما نسك وعبادة، وأما المغايرة فهى أن للحج

ص: ١٠٢

زمناً مخصوصاً ويشترط فيه الوقوف بعرفة، وأما العمرة فلا زمن لها ولا وقفه فيها بعرفة؛ ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى مشروعته الحج: **وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ بُيُوتِ مِّنْ شَرِيحٍ إِلَيْهِ سَبِيلاً. (١)** ولم يأت فى تلك الآية بذكر العمرة، ومنها نعرف أن الحج شىء والعمرة شىء آخر، والمفروض علينا هو الحج؛ ولذلك أقول دائماً لابد لنا أن نأخذ القرآن جملة واحدة، ونأتى بكل الآيات التى تتعلق بالموضوع لنفهم المقصود تماماً، فحين يقول الحق فى قرآنه أيضاً: **وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّٰهِ نعرف من ذلك أن العمرة غير الحج،** وحين تقرأ قول الله فى سورة براءة: **وَأَذَانٌ مِّنَ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ لِأَكْبَرِ. (٢)** نعرف أن هناك حجاً أكبر، وحجاً ثانياً كبيراً، ولذلك فآية: **وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ بُيُوتِ مِّنْ شَرِيحٍ إِلَيْهِ سَبِيلاً** جاءت بالبيت المحرم، وهو القدر المشترك فى الحج والعمرة، ونعرف أن الحج الأكبر هو الحج الذى يقف فيه المسلم بعرفة؛ لأن الرسول (ص) قال: «الحج عرفة»، وهو الحج الأكبر؛ لأن الحشد على عرفة يكون كبيراً، وهو يأتى فى زمن مخصوص ويشترط فيه الوقوف بعرفة.

إذن قوله تعالى: **وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ بُيُوتِ مِّنْ شَرِيحٍ إِلَيْهِ سَبِيلاً** هو القصد إلى معظم وهو: **حِجُّ بُيُوتِ مِّنْ شَرِيحٍ إِلَيْهِ سَبِيلاً** أما العمرة فهى الحج الكبير، وزمانها شائع فى كل السنة، والقاصدون للبيت يتوزعون على العام كله؛ وذلك قد ثبت بالتشريع بقوله سبحانه: **وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ بُيُوتِ مِّنْ شَرِيحٍ إِلَيْهِ سَبِيلاً** وما دام جاء بالأمر المشترك فى قوله: **حِجُّ بُيُوتِ مِّنْ شَرِيحٍ إِلَيْهِ سَبِيلاً** فهو يريد الحج الأكبر والحج الكبير.

١- سورة آل عمران: ٩٧.

٢- سورة التوبة: ٣.

ص: ١٠٣

وابن عاشور يذكر أنّ من معانى وَأَتَمُّوا أنه أمر بأكمل الحج والعمرة، بمعنى ألا يكون حجاً وعمرة مشوبين بشغب وفتنة واضطراب .. وله كلام مفصل. (١) فى قوله: لله يقول السيورى: يدل صريحاً على وجوب ايقاعهما خالصين لله تعالى، لا للرياء والسمعة، ولا لقصد المعاش خاصةً، وعلى وجوب النية فى كل فعل من الأفعال، وعلى عدم صحته وقوعهما من الكافر لعدم الإخلاص منه، وإن كانا واجبين عليه، خلافاً للشافعى فإنه جعل الإسلام شرطاً فى وجوب الحج، مع قوله إن الكافر مكلف بالفروع.

يقول ابن عاشور: وقوله: لله أى لأجل الله وعبادته، والعرب من عهد الجاهلية لا ينون الحج إلا لله ولا العمرة إلا له؛ لأن الكعبة بيت الله وحرمة، فالتقييد هنا بقوله: لله لتلويح إلى أن الحج والعمرة ليسا لأجل المشركين، وإن كان لهم فيهما منفعة وكانوا هم سدنة الحرم، وهم الذين منعوا المسلمين منه، كى لا- يسأم المسلمون من الحج الذى لا تقوا فيه أذى المشركين، فقيل لهم: إن ذلك لا يصد عن الرغبة فى الحج والعمرة؛ لأنكم إنما تحجون لله، لا لأجل المشركين، ولأنّ الشىء الصالح المرغوب فيه إذا حف به ما يكدره، لا ينبغي أن يكون ذلك صارفاً عنه، بل يجب إزالة ذلك العارض عنه، ومن طرق إزالته القتال المشار إليه بالآيات السابقة؛ ويجوز أن يكون التقييد بقوله: لله لتجريد النية مما كان يخامر نوايا الناس فى الجاهلية من التقرب إلى الأصنام، فإنّ المشركين لما وضعوا هبلاً على الكعبة، ووضعوا إسافاً ونائلة على الصفا والمروة، قد أشركوا بطوافهم وسعيهم الأصنام مع الله تعالى؛ وقد يكون القصد من هذا التقييد كلتا الفائدتين.

١- تفسير القرآن الكريم، لابن كثير؛ مجمع البيان، للطبرسى؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي؛ الكشاف، للزمخشري؛ زبدة البيان، للأردبيلي؛ كنز العرفان، للسيورى؛ تفسير محمد متولى الشعراوى؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور.

ص: ١٠٤

والشعراوى يقول: والحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده ويعلم أن بعض الناس سيقبلون على العبادات إقبالاً شكلياً، وقد يقبلون على العبادة لأغراض أخرى غير العبادة، فكان لابد أن يبين القصد من الحج والعمرة، وأن المطلوب هو إتمامهما، ولا بد أن يكون القصد لله لا لشيء آخر، لا- ليقال: الحاج فلان! أو ليشتري سلعة رخيصة ويبيعها بأعلى من ثمنها بعد عودته؛ ونحن نعلم أن الحج هو العبادة الوحيدة التى يستمر اقترانها بفاعلها، فمثلاً لا يقال: المصلى فلان! ولا المزكى فلان! فإن كان الحاج حريصاً على هذا اللقب، وهو دافعه من وراء عبادته، فلا بد ألا يخرج بعبادته عن غرضها المشروعة من أجله، إن الحق يقول: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ وَكَلِمَةً لِلَّهِ تَخْدُمُنَا فِي قَضَايَا مُتَعَدِّدَةٍ، فما هى هذه القضايا؟

إن المسلم عندما يريد أن يحج لله، فلا يصح أن يحج إلّا بمال شرع الله وسأله؛ كثير من الناس حين يسمعون الحديث الشريف: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» يعتقدون أن الإنسان له أن يرتكب ما يشاء من معاص ومظالم، ثم يظن أن حجة واحدة تُسقط عنه كل ذنوبه، نقول لهؤلاء: أولاً: لابد أن تكون الحجة لله، وثانياً: أن تكون من مال حلال، وما دامت لله ومن مال حلال فلا بد أن تعرف ما هى الذنوب التى تسقط عنه بعد الحج، فليست كل الذنوب تسقط، وإنما الذنوب المتعلقة بالله سبحانه وتعالى؛ لأنّ الذنوب المتعلقة بالله أنت لم تظلم الله به لكن ظلمت نفسك، ولكن الذنوب المتعلقة بالبشر فيه إساءة لهم أو انتقاص من حقوقهم، وبالتالي فإنّ ظلم العباد لا يسقط إلّا برّد حقوق العباد. (١) إذن بعض النظر عن استفادتهم من الآية وجوب العمرة أو عدمه، فإنّ المراد من الآية كما هو بين من أرجح كلماتهم: أداؤهما والإتيان بهما تامين كما عند من أوجب العمرة.

١- كنز العرفان فى فقه القرآن؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ و الشعراوى فى خواطره، سورة البقرة: ١٩٦؛ وانظر القرطبي فى تفسيره للآية.

ص: ١٠٥

إتمامهما بعد الشروع بهما كما عند من لم يوجب العمرة.

فهو أمر بإكمال كل من الحج والعمرة وفق أحكامهما وشرائطهما، دون نقص، إلا أن هذا المطلوب قد يواجههم ما يعيقهم ويمنعهم عن تحقيقه بعد إحرامهم، وهو: الإحصار

﴿ الإحصار فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ

الإحصار والحصر والصدّ لغةً:

لما أمر الله سبحانه وتعالى بإتمام الحج والعمرة، ذكر ما يمنع من ذلك الإتمام، ألا وهو الإحصار، وكلمات اللغويين كأقوال المفسرين اضطربت في كل من الإحصار والحصر، وكان بعضهم جعل (أحصر) مختصاً بما يقع للشخص من داخله، ما يحدث له من ذاته من خوف أو مرض يصيبه، وجعل (حصر) مختصاً بما يقع على الشخص من الخارج بفعل فاعل؛ سجنه فلان وحبسه فلان، وضيق عليه وأحاط به، كما أن الأخبار فرقت بينهما والصد، مع أن القرآن الكريم وصف الحالة التي حدثت في الحديبية المتمثلة بمنع المشركين لرسول الله (ص) من دخول مكة بالإحصار والصد، وكل منهما يحمل معنى (المنع) المنع الحاصل من العدو؛ نعم لهم أن يتوسعوا في ذلك بإضافة مصاديق لهذه المفردات، ولعلّ لم أجد خلافاً كالاختلاف حول مفردة كهذه خصوصاً وقد رتبوا أحكاماً على كل من الإحصار الذي جعلوه بسبب المرض والحصر الذي جعلوه بسبب العدو وفقاً لكلمات بعض علماء اللغة، وللنصوص التي وردت وأعطت للأول حكماً غير الذي أعطته للآخر، كما أن الإحصار وحكمه إن ثبت بسبب العدو فهل هو ثابت بوجود موانع أخرى؟ إذن هناك فرق بين لفظتي الإحصار والحصر وبينهما والصد، كما أن هناك ثمرة فقهية مترتبة على هذا التفريق بين هذه المفردات وأسبابها، بأن يكون لكل منها حكم ليس لغيرها، وهو ما نجده في كلمات اللغويين والمفسرين والفقهاء.

ص: ١٠٦

فلغة:

حصر فلاناً: ضيق عليه وأحاط به؛ ويقال: حصره المرض أو الخوف: منعه من المضى لأمره، فهو محصور وحصير. وأحصر البعير: حصره؛ وأحصر فلاناً: حبسه؛ ويقال: أحصره المرض وأحصره الخوف.

وحاصره محاصرةً وحصاراً: أحاط به ومنعه من الخروج من مكانه؛ فالإحصار هو المنع من الوصول إلى المطلوب.

هذا وأن التنزيل العزيز استعمل مفردة (أحصروا، واحصروهم) وكل منهما تعنى التالى كما جاءت به التفاسير: حبسهم الجهاد عن الكسب، احبسوهم؛ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. (١) الذين حبسوا ومنعوا فى طاعة الله أى منعوا أنفسهم من التصرف فى التجارة للمعاش؛ وقوله فى سبيل الله يدل على أنهم حبسوا أنفسهم عن القلب لاشتغالهم بالعبادة والطاعة.

وَحُدُّوهُمْ وَأَحْصِرُوهُمْ. (٢) معناه واحبسوهم، وامنعوهم دخول مكة والتصرف فى بلاد الإسلام، والمنع لم يكن مقيداً بالمرض.

والصد من الفعل صد، وصد فلاناً عن كذا: منعه وصرفه؛ وفى التنزيل العزيز: فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ. (٣) أى صرفهم ومنعهم عن طريق الحق.

وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. (٤) فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ. (٥) وفى آيات أخرى؛ والمعنى: منعوا غيرهم إما عن طريق الإيمان أو عن طريق الدين الحق، منعوا المؤمنين.

كما أن القرآن الكريم استعمل كلاً من الإحصار والصد للتعبير عما يحدث من منع وإعاقة، فمرةً عبر عن ذلك بقوله: فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ عَمَّا فَعَلَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالْمُسْلِمِينَ بِمَنْعِهِمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

١- سورة البقرة: ٢٧٣.

٢- سورة التوبة: ٥.

٣- سورة النمل: ٢٤.

٤- سورة النساء: ١٦٧.

٥- سورة التوبة: ٩.

ص: ١٠٧

أو عن مكه عند من يرى نزول الآية فى الحديدية، وحتى عند من لا يرى ذلك ولكن ما حصل فى الحديدية مثال لهذا الإحصار والمنع. وتارة: أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وهل حصر وأحصر بمعنى أو بينهما فرق؟

سؤال يطرحه السمين الحلبي بعد ذكره أن الحصر هو المنع، ومنه قيل للملك: الحصر؛ لأنه ممنوع من الناس. وجوابه: خلاف بين أهل العلم: فقال الفراء والزجاج والشيباني: إنهما بمعنى، يقالان فى المرض والعدو جميعاً وأنشدوا: وما هجر ليلي أن تكون تباعدت عليك ولا أن أحصرتك شغول

وفرق بعضهم، فقال الزمخشري: يقال: أحصر فلان إذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز قال تعالى: الَّذِينَ أَحْصَتْ رُؤَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَحَصْرٌ إِذَا حَبَسَهُ عَدُوٌّ أَوْ سَجَنٌ، هذا هو الأ-كثر فى كلامهم، وهما بمعنى المنع فى كل شىء مثل صدّه وأصدّه؛ وكذلك الفراء والشيباني، ووافقه ابن عطية أيضاً، فإنه قال: والمشهور فى اللغة: أحصر بالمرض وأحصر بالعدو؛ وقال ثعلب: حصر فى الحبس أقوى من أحصر، والحصر أيضاً: الملك كما تقدم لاحتجابه قال لبيد: ... جن لدى باب الحصر قيام.

الشيخ الطبرسى: والإحصار: المنع، يقال للرجل الذى منعه الخوف أو المرض عن التصرف: قد أحصر فهو محصور؛ ويقال للرجل الذى حبس: قد حصر فهو محصور؛ وقال الفراء: يجوز أن يقوم كل واحد منهما مقام الآخر؛ وخالفه فيه أبو العباس المبرد والزجاج. (١) وينقل ابن عاشور التالى: والإحصار فى كلام العرب منع الذات من فعل ما، يقال: أحصره منعه مانع قال تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَتْ رُؤَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. (٢) أى منعهم الفقر من السفر للجهاد.

ثم يقول: وهو فعل مهموز لم تكسبه همزته تعديته، لأنه مرادف حصره ونظيرهما صدّه وأصدّه؛ هذا قول المحققين من أئمة

١- المعجم الوسيط: ١٧٨؛ والدر المصون فى علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي ٣١٣: ٢- ٣١٤؛ مجمع البيان فى تفسير القرآن، للطبرسى؛ الآيات.

٢- سورة البقرة: ٢٧٣.

ص: ١٠٨

اللغة، ولكن كثر استعمال أحصر المهموز في المنع الحاصل من غير العدو، وكثر استعمال حصر المجرد في المنع من العدو، قال: وَخُدُّوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ. (١) فهو حقيقة في المعنيين ولكن الاستعمال غلب أحدهما في أحدهما كما قال الزمخشري في «الكشاف»، ومن اللغويين من قال: أحصر حقيقة في منع غير العدو وحصر حقيقة في منع العدو وهو قول الكسائي وأبي عبيدة والزجاج، ومن اللغويين من عكس وهو ابن فارس لكنه شاذ جداً.

وفي القاموس الفقهى: والمشهور عن أكثر أهل اللغة أن الإحصار إنما يكون بالمرض، وأما العدو فهو المحصر؛ وقال غيرهم: يقال في جميع ما يمنع الإنسان من التصرف.

قول ابن قتيبة كما حكاه ابن الجوزي: أحصره المرض والعدو: إذا منعه من السفر.

والرازي في تفسيره يقول: اتفقوا على أن لفظ الحصر مخصوص بمنع العدو إذا منعه عن مراده وضيق عليه.

أما لفظ الإحصار فقد اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال:

الأول: وهو اختيار أبي عبيدة وابن السكيت والزجاج وابن قتيبة وأكثر أهل اللغة أنه مختص بالمرض، قال ابن السكيت: يقال أحصره المرض إذا منعه من السفر؛ وقال ثعلب في فصيح الكلام: أحصر بالمرض وحصر بالعدو.

والقول الثاني: أن لفظ الإحصار يفيد الحبس والمنع، سواء كان بسبب العدو أو بسبب المرض وهو قول الفراء.

والقول الثالث: أنه مختص بالمنع الحاصل من جهة العدو، وهو قول الشافعي، وهو المروي عن ابن عباس وابن عمر، فانهما قالوا: لا حصر إلا حصر العدو، وأكثر أهل اللغة يردون هذا القول على الشافعي.

هذه آية مشكلة، عضله من العضل!!

كل ذلك دفع ابن عربي أن يقول: هذه آية مشكلة، عضله من العضل؛ فيجيبه القرطبي في تفسيره للآية بقوله: لا إشكال فيها،

ص: ١٠٩

ونحن - والقول ما زال للقرطبي - نيينها غاية البيان، فنقول: الإحصار هو المنع من الوجه الذي تقصده بالعوائق جملة؛ أي بأي عذر كان، كان حَصْرُ عدوّ أو جورٍ سلطان أو مرضٍ أو ما كان.

وختلف العلماء في تعيين المانع هنا على قولين:

قال علقمة وعروة ابن الزبير وغيرهما: هو المرض لا العدو.

وقيل: العدو خاصة؛ قاله بن عباس وابن عمر وأنس والشافعي.

قال بن العربي: وهو اختيار علمائنا؛ ورأى أكثر أهل اللغة ومحضليها على أن «أحصِر» عُرِضَ للمرض، و«حَصِر» نزل به العدو.

والقرطبي وبعد كلام مفصل ومفيد يرد به قول ابن عربي ويبين ما ورد عن علماء اللغة واختلافهم في (أحصِر وحصر) ويذكر أن الأكثر من أهل اللغة على أن "حصر" في العدو، و"أحصِر" في المرض ويختم بقول الزجاج: الإحصار عند جميع أهل اللغة إنما هو من المرض، فأما من العدو فلا يقال فيه إلا حَصِرَ؛ يقال: حَصِرَ حَصْرًا، وفي الأول احصِرَ إحصارًا. (١) والآلوسي في رده الزجاج يقول: والإحصار والحصر كلاهما في أصل اللغة بمعنى المنع مطلقًا، وليس الحصر مختصًا بما يكون من العدو، والإحصار بما يكون من المرض، والخوف - كما توهم الزجاج - من كثرة استعمالهما كذلك فإنه قد يشيع استعمال اللفظ الموضوع للمعنى العام في بعض أفراد، والدليل على ذلك أنه يقال: حصره العدو وأحصره كصده وأصده فلو كانت النسبة إلى العدو معتبرة في مفهوم الحصر لكان التصريح بالإسناد إليه تكراراً ولو كانت النسبة إلى المرض ونحوه معتبرة في مفهوم الإحصار لكان إسناده إلى العدو مجازاً وكلاهما خلاف الأصل.

١- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي؛ التحرير والتنوير لابن عاشور، والتفسير الكبير للرازي: الآية: ١٩٦ من سورة البقرة؛ روح المعاني للآلوسي.

ص: ١١٠

الفائدة:

كل هذه أمثلة على مدى الخلاف الحاصل بينهم عن المفردة محل البحث، فهل هناك ثمرة منه؟ إن فائدة هذا البحث تظهر فى مسألة فقهية، وهى أنهم اتفقوا على أن حكم الإحصار عند حبس العدو ثابت، وهل يثبت بسبب المرض وسائر الموانع؟

يقول الرازى: قال أبو حنيفة: يثبت.

وقال الشافعى: لا يثبت.

ثم يواصل الرازى كلامه: وحجة أبى حنيفة ظاهرة على مذهب أهل اللغة وذلك لأن أهل اللغة رجلا: أحدهما: الذين قالوا: الإحصار مختص بالحبس الحاصل بسبب المرض فقط، وعلى هذا المذهب تكون هذه الآية نصاً صريحاً فى أن إحصار المرض يفيد هذا الحكم.

والثانى: الذين قالوا: الإحصار اسم لمطلق الحبس سواء كان حاصلًا بسبب المرض أو بسبب العدو، وعلى هذا القول حجة أبى حنيفة تكون ظاهرة أيضاً؛ لأن الله تعالى علق الحكم على مسمى الإحصار، فوجب أن يكون الحكم ثابتاً عند حصول الإحصار سواء حصل بالعدو أو بالمرض.

وأما على القول الثالث: وهو أن الإحصار اسم للمنع الحاصل بالعدو، فهذا القول باطل باتفاق أهل اللغة وبتقدير ثبوته فنحن نقيس المرض على العدو بجامع دفع الحرج وهذا قياس جلى ظاهر فهذا تقرير قول أبى حنيفة وهو ظاهر قوى.

وأما تقرير مذهب الشافعى، فهو أنا ندعى أن المراد بالإحصار فى هذه الآية منع العدو فقط، والروايات المنقولة عن أهل اللغة معارضة بالروايات المنقولة عن ابن عباس وابن عمر، ولا شك أن قولهما أولى لتقدمهما على هؤلاء الأذنى فى معرفة اللغة وفى معرفة تفسير القرآن، ثم إنا بعد ذلك نؤكد هذا القول بوجوه من الدلائل:

الحجة الأولى: أن الإحصار إفعال من الحصر والإفعال تارة يجىء بمعنى التعدية نحو: ذهب زيد وأذهبته أنا، ويجىء بمعنى صار ذا كذا نحو: أغد البعير إذا صار ذا غدة، وأجرب الرجل إذا صار ذا إبل جربى،

ص: ١١١

ويجىء بمعنى وجدته بصفة كذا نحو: أحمدت الرجل أى وجدته محموداً، والإحصار لا يمكن أن يكون للتعدية، فوجب إما حمله على الصيرورة أو على الوجدان والمعنى: أنهم صاروا محصورين أو وجدوا محصورين، ثم إن أهل اللغة أتفقوا على أن المحصور هو الممنوع بالعدو لا بالمرض، فوجب أن يكون معنى الإحصار هو أنهم صاروا ممنوعين بالعدو، أو وجدوا ممنوعين بالعدو، وذلك يؤكد مذهبنا.

الحجة الثانية: أن الحصر عبارة عن المنع وإنما يقال للإنسان: إنه ممنوع من فعله ومحجوس عن مراده، إذا كان قادراً عن ذلك الفعل متمكناً منه، ثم إنه منعه مانع عنه، والقدرة عبارة عن الكيفية الحاصلة بسبب اعتدال المزاج وسلامة الأعضاء، وذلك مفقود في حق المريض فهو غير قادر ألبتة على الفعل، فيستحيل الحكم عليه بأنه ممنوع؛ لأن إحالة الحكم على المانع تستدعى حصول المقتضى، أما إذا كان ممنوعاً بالعدو فهنا القدرة على الفعل حاصلة، إلا أنه تعذر الفعل لأجل مدافعة العدو، فصح هنا أن يقال: إنه ممنوع من الفعل، فثبت أن لفظة الإحصار حقيقة في العدو، ولا يمكن أن تكون حقيقة في المرض.

الحجة الثالثة: أن معنى قوله: اخصرتُم أى حبستم ومنعتم والحبس لا بد له من حابس، والمنع لا بد له من مانع، ويمتنع وصف المرض بكونه حابساً ومانعاً؛ لأن الحبس والمنع فعل، وإضافة الفعل إلى المرض محال عقلاً، لأن المرض عرض لا يبقى زمانين، فكيف يكون فاعلاً وحابساً ومانعاً، أما وصف العدو بأنه حابس ومانع، فوصف حقيقي، وحمل الكلام على حقيقته أولى من حمله على مجازه. الحجة الرابعة: أن الإحصار مشتق من الحصر ولفظ الحصر لا إشعار فيه بالمرض، فلفظ الإحصار وجب أن يكون خالياً عن الإشعار بالمرض قياساً على جميع الألفاظ المشتقة.

الحجة الخامسة: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَعُطِفْ عَلَيْهِ الْمَرِيضُ، فلو كان المحصر هو المريض أو من يكون المرض داخلاً فيه، لكان هذا عطفاً للشئ على نفسه.

ص: ١١٢

فإن قيل: إنه خص هذا المرض بالذكر؛ لأن له حكماً خاصاً، وهو حلق الرأس، فصار تقدير الآية إن منعتم بمرض تحللتهم بدم، وإن تأذى رأسكم بمرض حلقتهم وكفرتهم.

قلنا: هذا وإن كان حسناً لهذا الغرض، إلا أنه مع ذلك يلزم عطف الشيء على نفسه، أما إذا لم يكن المحصر مفسراً للمريض، لم يلزم عطف الشيء على نفسه، فكان حمل المحصر على غير المريض يوجب خلو الكلام عن هذا الاستدلال، فكان ذلك أولى.

الحجة السادسة: قال تعالى في آخر الآية: فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَىٰ لَحَجِّجْ وَلَفْظُ الْأَمْنِ إِنَّمَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ لَا فِي الْمَرَضِ، فإنه يقال في المرض: شفى وعفى ولا يقال أمن.

فإن قيل: لا نسلم أن لفظ الأمن لا يستعمل إلا في الخوف، فإنه يقال: أمن المريض من الهلاك وأيضاً خصوص آخر الآية لا يقدر في عموم أولها؛ قلنا: لفظ الأمن إذا كان مطلقاً غير مقيد فإنه لا يفيد إلا الأمن من العدو، وقوله خصوص آخر الآية لا يمنع من عموم أولها؛ قلنا: بل يوجب لأن قوله: فَإِذَا أَمِنْتُمْ ليس فيه بيان أنه حصل الأمن مماذا، فلا بد وأن يكون المراد حصول الأمن من شيء تقدم ذكره، والذي تقدم ذكره هو الإحصار، فصار التقدير: فإذا أمنتم من ذلك الإحصار، ولما ثبت أن لفظ الأمن لا يطلق إلا في حق العدو، وجب أن يكون المراد من هذا الإحصار منع العدو.

وخلص الرازي من مناقشته القيمة هذه إلى قوله: فثبت بهذه الدلائل أن الإحصار المذكور في الآية هو منع العدو فقط، أما قول من قال: إنه منع المرض صاحبه خاصة فهو باطل بهذه الدلائل، وفيه دليل آخر، وهو أن المفسرين أجمعوا على أن سبب نزول هذه الآية أن الكفار أحصروا النبي (ص) بالحديبية، والناس وإن اختلفوا في أن الآية النازلة في سبب هل تناول غير ذلك السبب؟ إلا أنهم اتفقوا على أنه لا يجوز أن يكون ذلك السبب خارجاً عنه، فلو كان الإحصار اسماً لمنع المرض، لكان سبب نزول الآية خارجاً عنها، وذلك باطل بالإجماع، فثبت بما ذكرنا أن الإحصار في هذه الآية عبارة عن منع العدو، وإذا ثبت هذا فنقول: لا يمكن قياس منع المرض عليه، وبيانه من وجهين:

ص: ١١٣

الأول: أن كلمة إن، شرط عند أهل اللغة، وحكم الشرط انتفاء المشروط عن انتفائه ظاهراً، فهذا يقتضى أن لا يثبت الحكم إلّا في الإحصار الذي دلت الآية عليه، فلو أثبتنا هذا الحكم في غيره قياساً كان ذلك نسخاً للنص بالقياس، وهو غير جائز.

الوجه الثاني: أن الإحصار شرع لازم لا يحتمل النسخ قصداً، ألا ترى أنه إذا جامع امرأته حتى فسد حجه لم يخرج من إحرامه، وكذلك لو فاتته الحج حتى لزمه القضاء والمرض ليس كالعدو، ولأن المريض لا يستفيد بتحلله ورجوعه أمناً من مرضه، أما المحصر بالعدو فإنه خائف من القتل إن أقام، فإذا رجع فقد تخلص من خوف القتل.

الشيخ الطبرسي: فَإِنَّ أَحْصِيَهُ زُتْمٌ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ مَعْنَاهُ مَنَعَكُمْ خَوْفٌ أَوْ عَدُوٌّ أَوْ مَرَضٌ فَامْتَنَعْتُمْ لِذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقِتَادَةَ وَعَطَا وَهُوَ الْمُرُوءِيُّ عَنْ أُنْمَتِنَا.

الثاني: معناه إن منعكم حابس قاهر عن مالك.

ويقول عن الآية: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. (١) أى لأجل أنهم صدوكم يعنى النبي (ص) وأصحابه عام الحديبية.

ثم ذكر سبحانه سبب منعه رسول الله (ص) ذلك العام دخول مكة فقال: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّةً. (٢) أن تطوفوا وتحلوا من عمرتكم يعنى قريشاً، أى وصدوا الهدى وهى البدن التى ساقها رسول الله (ص).

السيد العلامة فى الميزان: ... الإحصار هو الحبس والمنع، والمراد الممنوعية عن الإتمام بسبب مرض أو عدو بعد الشروع بالإحصار. (٣) يقول الأردبيلي فى زبدة الأحكام: الحصر والإحصار هو المنع كالصد والإصداد؛ وبعد أن ينقل ما ذكره بعض علماء اللغة يقول: فقد علم أنه فى الأصل المنع عن الشيء مطلقاً سواء كان المانع المرض

١- سورة المائدة: ٢

٢- سورة الفتح: ٢٥.

٣- مجمع البيان، للطبرسي الآيات ١٩٦ البقرة و ٢ المائدة و ٢٥ الفتح، مع تفصيل لصلح الحديبية؛ الميزان فى تفسير القرآن، للعلامة الطباطبائي؛ القاموس الفقهي، لسعدى أبوجيب.

ص: ١١٤

أو العدو؛ ولكن الظاهر مما قيل فى سبب نزوله من أنه نزل فى الصد فى الحديبية، وقوله: فَإِذَا امْتَنَّمْ أَنْ المَرَادُ بِهِ هُنَا الصَّدُّ بِالْعَدُوِّ؛ وقوله: حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ يدل على أنه بالمرض، إذ البعث إنما هو فى المرض عند أصحابنا، وأما حكم الصد بالعدو عند أصحابنا والشافعى فهو الذبح موضع الصد، ونقل من فعله (ص) ذلك فى الحديبية وهى من الحل على ما قالوا؛ ثم يقول الأردبيلى: أما أصحابنا فكأنهم يجعلونه مخصوصاً بالمرض، وما يسلمون سبب النزول ويجعلون امْتَنَّمْ بمعنى أمتنم من المرض فقط أو العدو أيضاً، وإن لم يكن منع العدو مذكوراً بخصوصه. (١) الإمامية:

بعد هذا، فالإمامية ولأخبارهم الناطقة بذلك أن المحصور والمصدود كل منهما غير الآخر - أى بخلاف ما عليه فقهاء المذاهب الأخرى من أن الحصر والصد واحد، وهما من جهة العدو - وأيضاً بينهما فرق فى الأحكام. فلا شك أن مراد كل من اللفظين هو المنع، إلا أنهم ميزوا بين منع من قبل عدو فهو المصدود، ومنع بسبب آخر غير العدو كالمرض فهو المحصور. فالمصدود: هو من تلبس بالإحرام لحج أو لعمرة، فمنعه عدو أو نحوه عن دخول مكة إن كان معتمراً، أو منعه عن الموقفين (موقف عرفات وموقف المزدلفه) أو عن أحدهما مع فوات الآخر إن كان حاجاً شريطة أن لا يكون له طريق إلا موضع الصد، أو له طريق إلا أن نفقته قصرت به عن بلوغه.

والمحصر: هو الممنوع بالمرض ونحوه عن الوصول إلى مكة إن كان معتمراً أو عن الموقفين إن كان حاجاً. ولا فرق بين أن يكون المحصور أو المصدود أمة من الناس أو كان شخصاً واحداً فى صدق العنوان وفى الأحكام.

١- زبدة البيان، للأردبيلى، السورة والآية.

ص: ١١٥

وهذا التفريق بين اللفظين ترتبت عليه أحكام وافرة لكل منهما تكفلت بها الكتب الفقهية.

وفي الحدائق الناضرة للشيخ يوسف البحراني المتوفى سنة ١١٨٦ هـ - وهو من كبار علماء الإمامية وبعد نقله لما ورد عن بعض علماء اللغة وأقوال بعض الفقهاء، وبعد أن يقرر التالي: والذي يظهر مما قدمنا من كلامهم اتحاد الحصر والصد، وأنهما بمعنى المنع من عدو كان أو مرض؛ وهذا هو الذي عليه عامة فقهاء الجمهور. (١) يقول: إن المراد من الحصر في الآية الشريفة إنما هو المعنى اللغوي الذي قدمنا نقله عن جملة أهل اللغة الشامل للحصر والصد، وهو عبارة عن مطلق المنع بعدو كان أو مرض أو نحوهما؛ والفرق بين المصدود والمحصر إنما هو عرف خاص عندهم صلوات الله عليهم، كما نطقت به أخبارهم...؛ ويعضد ما ذكرناه من معنى الآية ما صرح به أمين الإسلام الطبرسي في كتاب مجمع البيان...، ولكن الشهيد الثاني في المسالك يقول: اختصاص الحصر بالمرض هو الذي استقر عليه رأى أصحابنا ووردت به نصوصهم وهو مطابق للغة، قال في الصحاح: أحصر الرجل على ما لم يسم فاعله، قال ابن السكيت: أحصره المرض إذا منعه من السفر أو من حاجة يريد بها؛ قال الله تعالى: فَإِنْ أَحْصِرْتُمْ ثُمَّ قَالَ: وقد حصره العدو يحصرونه إذا ضيقوا عليه وأحاطوا به وحاصروه محاصرةً وحصاراً. (٢) وأما عند الإمامية - والكلام لصاحب الحدائق - وهو الذي دلت عليه أخبارهم فهو أن اللفظين متغايران، وإن الحصر هو المنع من تنمة أفعال الحج أو العمرة بالمرض، والصد هو المنع بالعدو.

العلامة في المنتهى: الحصر عندنا هو المنع من تنمة أفعال الحج بالمرض خاصة، والصد بالعدو، ويفترقان أيضاً في أن المصدود يحل له بالمحلل جميع ما حرمه الأحرار حتى النساء، دون المحصور فإنه يحل له ما عدا النساء، وفي مكان الذبح، فالمصدود يذبحه في محل الصد،

١- الحدائق الناضرة ٣: ١٦.

٢- المصدر السابق، المقصد الخامس في الإحصار والصد.

ص: ١١٦

والمحصور يبعث به إلى مكة فيذبح بها إن كان الصد في العمرة، أو إلى منى إن كان في الحج؛ انتهى ما حكاه صاحب الحدائق عن العلامة.

وأذكر هنا بمن ذهب من أهل السنة إلى أن الإحصار بالمرض، فالرازي حيث ذكر اتفاقهم على أن لفظ الحصر مخصوص بمنع العدو إذا منعه عن مراده وضيق عليه؛ أما لفظ الإحصار فقد اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال، وكان أولها اختيار أبي عبيدة وابن السكيت والزجاج وابن قتيبة وأكثر أهل اللغة أنه مختص بالمرض، قال ابن السكيت: يقال أحصره المرض إذا منعه من السفر وقال ثعلب في فصيح الكلام: أحصر بالمرض وحصر بالعدو.

والكسائي وأبي معاذ أنهما فرقا بين الإحصار فجعلوه من المرض، والحصر الذي جعلوه من العدو، فعلى هذا كانت الآية خاصة في الممنوع من المرض؛ كما جاء في الفقه الاستدلالي للزحيلي ٢٨٨: ٣.

كما أن سيد قطب في تفسيره يرجح صحة تفسير الإحصار بالمرض حيث يقول: ويستدرك من هذا الأمر العام بإتمام الحج والعمرة حالة الإحصار من عدو يمنع الحاج والمعتمر من إكمال الشعائر - وهذا متفق عليه - أو من مرض ونحوه يمنع من إتمام أعمال الحج والعمرة - واختلفوا في تفسير الإحصار بالمرض والراجح صحته -.

والقرطبي: فالأكثر من أهل اللغة على أن «حصر» في العدو، و«أحصر» في المرض؛ وصاحب القاموس الفقهي نسب القول بأن الإحصار إنما يكون بالمرض إلى المشهور.

الروايات:

ومن الأخبار الدالة على تغايرهما ما رواه صاحب كتاب الوسائل في أبواب الاحصار والصد - باب أن المصدود بالعدو تحل له النساء بعد التحلل، والمحصور بالمرض لا تحل له النساء حتى يطوف طواف النساء أو يستناب فيه، وجملة من أحكام الاحصار والصد:

ص: ١١٧

عن معاوية بن عمار، قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: «المحضور غير المصدود، وقال: المحضور هو المريض، والمصدود هو الذى رده المشركون، كما ردوا رسول الله (ص) ليس من مرض؛ والمصدود تحل له النساء، والمحصر لا تحل له النساء».

ص: ١١٨

ثم قال: «والمحصور والمضطر يذبحان بدنتيهما في المكان الذي يضطران فيه، وقد فعل رسول الله (ص) ذلك يوم الحديبية حين رد المشركون بدنته وأبوا أن تبلغ المنحر، فأمر بها فنحرت مكانه».

عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سألت أبا الحسن (ع) قلت: أخبرني عن المحصور والمصدود هما سواء؟ فقال: «لا». قلت: فأخبرني عن النبي (ص) حين صده المشركون، قضى عمرته؟ قال: «لا ولكنه اعتمر بعد ذلك».

وما رواه معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال: سألته عن رجل أحصر فبعث بالهدى. قال: «يواعد أصحابه ميعاداً، إن كان في الحج فمحل الهدى يوم النحر، فإذا كان يوم النحر فليقص من رأسه، ولا يجب عليه الحلق حتى يقضى المناسك، وإن كان في عمرة فلينظر مقدار دخول أصحابه مكة والساعة التي يعدهم فيها، فإذا كان تلك الساعة قصر وأحل. وإن كان مرض في الطريق بعد ما أحرم فأراد الرجوع رجع إلى أهله ونحر بدنه، أو أقام مكانه حتى يبرأ إذا كان في عمرة، وإذا برئ، فعليه العمرة واجبة، وإن كان عليه الحج رجع أو أقام ففاته الحج، فإن عليه الحج من قابل، فإن الحسين بن علي صلوات الله عليهما خرج معتمراً فمرض في الطريق، فبلغ علياً (ع) ذلك وهو في المدينة فخرج في طلبه، فأدركه بالسقيا وهو مريض بها، فقال: يا بني ما تشتكى؟ فقال: اشتكى رأسي؛ فدعا علي (ع) ببدنه فنحرها، وحلق رأسه، وردّه إلى المدينة، فلما برئ من وجعه اعتمر». قلت: أرايت حين برأ من وجعه قبل أن يخرج إلى العمرة حلت له النساء؟ قال: «لا- تحل له النساء حتى يطوف بالبيت وبالصفا والمروة»، قلت: فما بال رسول الله (ص) حين رجع من الحديبية حلت له النساء ولم يطف بالبيت؟ قال: «ليسا سواء، كان النبي (ص) مصدوداً والحسين (ع) محصوراً». (١)

١- الوسائل الباب ١ من الإحصار والصد، ح ٢، ٣، ٤، ٥. و الباب ٨ من الإحصار والصد؛ التهذيب ٤٢٣: ٥ و ٤٦٤.

ص: ١١٩

إذن فعند الإمامية أنّ الإحصار يختص بالمرض، والصد بالعدو وما مائله؛ لاشتراك الجميع في المنع من بلوغ المراد؛ ولما كان لكل منهما حكم ليس للآخر اختصاص باسم، فإن حكم الممنوع بالمرض أن يبعث هديه مع أصحابه ويواعدهم يوماً لذبحه فيتحلل في ذلك اليوم من كل شيء إلا من النساء حتى يحج في القابل إن كان حجه واجباً، أو يطاف عنه إن كان حجه ندباً؛ والممنوع بالعدو يذبح هديه حينئذ، ويحل من كل شيء حتى النساء.

بم يتحقق الصد أو الحصر؟

في كثر العرفان: يتحقق الصد عند الإمامية بالمنع عن الموقفين معاً لا عن أحدهما مع حصول الآخر.

في زبدة البيان: معلوم تحققه بالمنع عن الموقفين معاً في الحج، والظاهر عدم التحقق بالمنع عن أحدهما فقط، مثل إن حصر عن عرفه فحصل له وقوف المشعر، أو وقف بها ثم حصر عنه، ويدل عليه ما ورد في الصد في صحيحه فضل بن يونس الثقة قال: سألت أبا الحسن الأول (ع) عن رجل عرض له سلطان فأخذه ظالماً له يوم عرفه قبل أن يعرف - بتشديد الراء المكسورة - فبعث به إلى مكة فحبسه، فلما كان يوم النحر خلى سبيله، كيف يصنع؟ قال: «يلحق فيقف بجمع، ثم ينصرف إلى منى، فيرمى ويلحق ويذبح ولا شيء عليه». قلت: فإن خلى عنه يوم الثاني كيف يصنع؟ قال: «هذا مصدود عن الحج، فإن كان دخل مكة متمتعاً بالعمرة إلى الحج، فليطف بالبيت أسبوعاً ويسعى أسبوعاً ويلحق رأسه ويذبح شاء. وإن كان دخل مكة مفرداً، فليس عليه ذبح ولا حلق». وفي الكافي: «ولاشيء عليه».

يقول المحقق الأردبيلي: وهذه وإن كانت في الصد، ولكن الظاهر عدم الفرق بينهما في ذلك...؛ وفي هذا الخبر فوائد استنتجها المحقق، ألخص بعضاً منها بالتالي:

عدم تحقق الصد إذا كان محبوساً بالحق وذلك يفهم من قوله ظالماً.

إدراك الحج بإدراك المشعر اضطرارياً كان أو اختيارياً.

ص: ١٢٠

عدم تحقق الصد بالمنع من عرفه فقط مع تيسر المشعر.

تحقق الصد إذا أخرج من الحبس بعد فوت المشعر.

أنه لو كان بعد التعريف أيضاً لم يكن مصدوداً لقوله: قبل أن يعرف.

وجوب الذبح والحلق مع العمرة.

عدم وجوب كفارة بفوت منسك بغير الاختيار.

ثم يقول: فلا يتحقق الحصر في الحج إلّا عن الموقفين أو عن أحدهما مع فوات الآخر به.

وعن العمرة لا يتحقق الحصر إلّا عن الطواف. وأما الصد فلا شك في تحققه أيضاً عما يتحقق عنه الحصر. (١) وعند باقي المذاهب:

الإحصار هو المنع ولكن شرعاً:

عند الحنفية: منع المحرم عن أداء الركنتين (الوقوف والطواف)، ويتحقق بعدو أو بمرض أو ضياع نفقة أو حبس أو كسر أو عرج

وغيرها من الموانع التي تمنع المحرم من إتمام ما أحرم به حقيقة أو شرعاً؛ ومن أحصر بمكة وهو ممنوع من الركنتين: الوقوف

والطواف، كان محصراً؛ لأنه تعذر عليه الإتمام، فصار كما إذا أحصر في الحل؛ وإن قدر على أحد الركنتين فليس بمحصراً؛ لأنه إن قدر

على الطواف تحلل به، وإن قدر على الوقوف فقد تم حجه، فليس بمحصراً.

واستدلوا على عموم أسباب الإحصار بعموم قوله تعالى: فَإِنْ أَحْصَرَ زُمْرًا مِمَّا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَيْدِيِّ وَالْمَنْعِ كَمَا يَكُونُ مِنَ الْعَدُوِّ يَكُونُ مِنَ

المرض وغيره، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ إذ الحكم يتبع اللفظ لا السبب.

وعن الكسائي وأبي معاذ أن الإحصار من المرض، والحصر من العدو، فعلى هذا كانت الآية خاصة في الممنوع من المرض.

وعند الجمهور: منع المحرم من جميع الطرق عن إتمام الحج أو العمرة؛ والمنع الذي يعد به المحرم محصراً عندهم هو ما يكون بعدو،

ودليلهم:

١- كنز العرفان، للسيوري؛ زبدة البيان، للأردبيلي.

ص: ١٢١

- أن آية الإحصار نزلت في أصحاب رسول الله (ص) حين أحصروا من العدو.

- وإن آخر الآية: فَإِذَا أُمِنْتُمْ وَالْأَمَانُ مِنَ الْعَدُوِّ يَكُونُ.

- ورواية ابن عباس وابن عمر أنهما قالوا: لا حصر إلا من عدو. (١) * التحلل - بالذبح: فَمَا سَتَيْسَرَ مِنْ لَهْدِي

هناك إحصار للمؤمنين وهناك صد عن مكة وعن المسجد الحرام وعن أركان الحج والعمرة، فلم تتركهم الشريعة دون علاج، بعد أن تحملوا عناء الطريق ووعناء السفر؛ شدته ومشقته، وما يتضمنه منسك الإحرام الذي تلبسوا فيه من واجبات عليهم أداؤها وتركها عليهم اجتنابها؛ لا لشيء إلا ليؤدوا حجةً لله تعالى وعمرةً، فإذا بمرض يبتابهم أو يصيب بعضهم، أو عدو يحاصرهم أو يصددهم عن تحقيق ما يأملونه وما يبتغونه من مناسك لعبادتين كبيرتين مباركتين. فجاءت الآية الكريمة لتنقدهم من موقف كهذا بما سهل عليهم وبما توفر لديهم من هدى وبه يتم خروجهم من حالة الإحرام التي هم فيها، فجاز لهم ما كانوا ممنوعين منه على تفصيل فقهي. الفاء رابطة لجواب الشرط، وما: اسم موصول في محل رفع مبتدأ خبره محذوف، أي فعليكم ما استيسر، والجملة جزم جواب شرط. واستيسر: فعل ماض.

وفي مجمع البيان: موضع ما رفع كأنه قال فعلية ما استيسر، ويجوز أن يكون موضعه نصباً، وتقديره فاهدوا ما استيسر، والرفع أولى لكثرة نظائره كقوله: فديء من صيام...؛ فعدة من أيام...؛ فصيام ثلاثة أيام في الحج. فهناك وجهان في إعراب الآية، أحدهما: أن «ما» في مَا اسْتَيْسَرَ مبتدأ، وخبرها محذوف بتقدير (عليكم) فتكون الجملة: (فعليةكم ما استيسر من الهدى) والثاني: أن «ما» مفعول لفعل مقدر تقديره: (فاهدوا ما استيسر من الهدى).

١- الفقه الإسلامي وأدلته، للدكتور وهبة الزحيلي ٢٨٦: ٣ بإيجاز بسيط.

ص: ١٢٢

وفى التحرير والتنوير: فإنه لما أمر بإتمام الحج والعمرة ذكر حكم ما يمنع من ذلك الإتمام، فلا بد من تقدير دل عليه قوله: مِنْ أَلْهَدِي وقدره فى «الكشاف» فعليكم، والأظهر أن يقدر فعل أمر أى فاهدوا ما استيسر من الهدى، وكلا التقديرين دال على وجوب الهدى، ووجوبه فى الحج ظاهر وفى العمرة كذلك؛ بأنها مما يجب إتمامه بعد الإحرام باتفاق الجمهور.

وفى الدر المصون: مِنْ تَبْعِيضِهِ محلها النصب على الحال من الضمير المستتر فى استيسر العائد على ما، أى حال كونه بعض الهدى. مِنْ: بيانية لبيان الجنس فتعلق بمحذوف أيضاً.

الهدى: جمع هدية، مصدر وقع موقع المفعول أى المهدى؛ فيقع للإفراد والجمع.

وفى مجمع البيان: وفى أصل الهدى قولان:

أحدهما أنه من الهدية يقال: أهديت الهدية إهداءً وأهديت الهدى إلى بيت الله إهداءً، فعلى هذا إنما يكون هدياً لأجل التقرب به إلى الله، والآخر أنه من هداه إذا ساقه إلى الرشاد، فسمى هدياً؛ لأنه يساق إلى الحرم الذى هو موضع الرشاد.

والهدى هنا كما هو معروف: يطلق على الحيوان الذى يسوقه الحاج أو المعتمر هدية لأهل الحرم؛ ولهذا كانت تأخذ شيئاً من اهتمامهم وتقديرهم فكانوا يقسمون بها فى أيامهم؛ قال العلاء بن حذيفة الغنوى:

يقولون من هذا الغريب بأرضنا أما و الهدايا إننى لغريب

وقال آخر:

حَلَفْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ وَالْمُصَلَّى وَأَعْنَاقِ الْهَدْيِ مُقَلَّدَاتِ

الهدى ما يهدى إلى بيت الله تعالى تقرباً إليه، بمنزلة الهدية يهديها الإنسان إلى غيره؛ يقال: أهديت إلى البيت الحرام هدياً وهدياً بالتشديد، والتخفيف، وقيل: التشديد لغة تميم، ومنه قول زهير:

فلم أر معشراً أسروا هدياً ولم أر جار بيت يستباء

وفى اللغة ما أهدى من دراهم أو متاع أو نعم أو غير ذلك يسمى هدياً، لكن الحقيقة الشرعية خصت الهدى بالنعم.

ص: ١٢٣

يقال: تيسر، يسر الأمر واستيسر؛ فما استيسر من تيسير يقال: تيسر، يسر الأمر واستيسر؛ المراد جميع وجوه التيسر كما يذهب إليه ابن عاشور.

الشعراوى: تعنى أيضاً إن كان الحصول على الهدى سهلاً، سواء لسهولة دفع ثمنه، أو لسهولة شرائه، فقد توجد الأثمان ولا يوجد المثلن.

والهدى اسم الحيوان المتقرب به لله فى الحج، فإن كان اسماً فمن بيانية، وإن كان جمعاً فمن تبعيضية، وهذا الهدى إن كان قد ساقه قاصد الحج والعمرة معه ثم أحصر فالبعث به إن أمكن واجب، وإن لم يكن ساقه معه فعليه توجيهه على الخلاف فى حكمه من وجوبه وعدمه.

وهنا نجد إلتفاتة جميلة من ابن عاشور: والمقصود من هذا تحصيل بعض مصالح الحج بقدر الإمكان، فإذا فاتت المناسك لا يفوت ما ينفع فقراء مكة ومن حولها.

فى تفسير الأمثل: ثم إن الآية تشير إلى الأشخاص الذين لا يحالفهم التوفيق لأداء مناسك الحج والعمرة بعد لبس ثياب الإحرام بسبب المرض الشديد أو خوف العدو وأمثال ذلك، فتقول: فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فمثل هذا الشخص عليه أن يذبح ما تيسر له من الهدى ويخرج بذلك من إحرامه؛ وعلى كل حال فإن الأشخاص الذين منعهم مانع ولم يتمكنوا من أداء مراسم الحج والعمرة فيمكنهم بالاستفادة من هذه المسألة أن يحلوا من إحرامهم؛ الشعراوى: "الهدى" هو ما يُهدى للحرم، أو ما يهدى الإنسان إلى طريق الرشاد، والمعنى مأخوذ من الهدى، وهو الغاية الموصلة للمطلوب.

سيد قطب: ويستدرك من هذا الأمر العام بإتمام الحج والعمرة حالة الإحصار من عدو يمنع الحاج والمعتمر من إكمال الشعائر- وهذا متفق عليه- أو من مرض ونحوه يمنع من إتمام أعمال الحج والعمرة؛ واختلفوا فى تفسير الإحصار بالمرض والراجح صحته، وفى هذه الحالة ينحر الحاج أو المعتمر ما تيسر له من الهدى ويحل من إحرامه فى

ص: ١٢٤

موضعه الذى بلغه. ولو كان لم يصل بعد إلى المسجد الحرام ولم يفعل من شعائر الحج والعمرة إلا الإحرام عند الميقات (وهو المكان الذى يهل منه الحاج أو المعتمر بالحج أو العمرة أو بهما معاً، ويترك لبس المخيط من الثياب، ويحرم عليه حلق شعره أو تقصيره أو قص أظافره كما يحرم عليه صيد البر وأكله...) وهذا ما حدث فى الحديبية عندما حال المشركون بين النبى (ص) ومن معه من المسلمين دون الوصول إلى المسجد الحرام، سنة ست من الهجرة؛ ثم عقدوا معه صلح الحديبية، على أن يعتمر فى العام القادم؛ فقد ورد أن هذه الآية نزلت؛ وأن رسول الله (ص) أمر المسلمين الذين معه أن ينحروا فى الموضع الذى بلغوا إليه ويحلوا من إحرامهم فتلبثوا فى تنفيذ الأمر، وشق على نفوسهم أن يحلوا قبل أن يبلغ الهدى محله- أى مكانه الذى ينحر فيه عادة- حتى نحر النبى (ص) هديه أمامهم وأحل من إحرامه .. ففعلوا.

وأما عن حكمه هذا الاستدراك فيقول سيد قطب: والحكمة من هذا الاستدراك فى حالة الإحصار بالعدو كما وقع فى عام الحديبية، أو الإحصار بالمرض، هى التيسير، فالغرض الأول من الشعائر هو استجاشه مشاعر التقوى والقرب من الله، والقيام بالطاعات المفروضة؛ فإذا تم هذا، ثم وقف العدو أو المرض أو ما يشبهه فى الطريق فلا يحرم الحاج أو المعتمر أجر حجته أو عمرته، ويعتبر كأنه قد أتم، فينحر ما معه من الهدى ويحل؛ وهذا التيسير هو الذى يتفق مع روح الإسلام وغاية الشعائر وهدف العبادة. (١) أيسر الهدى: إذن فعليكم ما سهل من الهدى أو فاهدوا ما تيسر من الهدى إذا أردتم الإحلال، ولكن ما هو أيسر الهدى؟ فى الكافى عن الإمام الصادق (ع) فى قوله: فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ شَاءَ.

١- مجمع البيان فى تفسير القران؛ والدر المصون للسمين الحلبي؛ والتحرير والتنوير لابن عاشور؛ تفسير البحر المحيط، أبو حيان؛ وتفسير الأمثل، للشيخ مكارم الشيرازى؛ وتفسير الشعراوى؛ فى ظلال القرآن.

ص: ١٢٥

الطبرسى: والهدى يكون على ثلاثة أنواع: جزور أو بقره أو شاء؛ وأيسرها شاء وهو المروى عن على وابن عباس والحسن وقتادة وروى عن ابن عمر وعائشه أنه ما كان من الإبل والبقر دون غيرهما والأول هو الصحيح.

القرطبي: «مَا سَتَيْسِرَ» عند جمهور أهل العلم شاء؛ وقال بن عمر وعائشه وبن الزبير: «ما ستيسر» جمل دون جمل، وبقره دون بقره لا يكون من غيرهما؛ وقال الحسن: أعلى الهدى بدنه، وأوسطه بقره، وأخسه شاء؛ وعند الرازى: قال على وابن عباس والحسن وقتادة: الهدى أعلاه بدنه، وأوسطه بقره، وأخسه شاء، فعليه ما تيسر من هذه الأجناس.

سيد قطب: أى ما تيسر، والهدى من النعم، وهى الإبل والبقر والغنم والمعز، ويجوز أن يشترك عدد من الحجاج فى بدنه أى ناقة أو بقره، كما اشترك كل سبعة فى بدنه فى عمره الحديبية، فيكون هذا هو ما استيسر؛ ويجوز أن يهدى الواحد واحدة من الضأن أو المعز فتجزىء.

ابن عاشور: وأقل ما هو معروف عندهم من الهدى الغنم، ولذلك لم يبينه الله تعالى هنا. الشيخ مكارم: ونعلم أيضاً أن الهدى يمكن أن يكون بغيراً أو بقره أو خروفاً، وهذا الأخير أقل الهدى مؤنثاً، ولهذا كانت جملة (فما استيسر من الهدى) تشير غالباً إلى الغنم. (١)

١- مجمع البيان؛ وجامع الأحكام؛ والتفسير الكبير؛ وفى ظلال القرآن؛ والأمثل.

ص: ١٢٦

التحلل - بالخلق: وَلَا تَخْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ لِهْدَىٰ مَحَلَّهُ

وَلَمَّا تَخْلِقُوا: أى لا- تزيلوا شعور رؤوسكم؛ واختلف المفسرون والفقهاء فى أن هذا الحكم فى الآية حكم يشمل جميع الحجاج والمعتمرين أو أنه خاص بمن حوَصر أو صد عن إتمام باقى مناسك هاتين الشعيرتين المباركتين؛ الحج والعمرة، أو أنه يشمل الحاليتين معاً:

الفريق الأول: ذهب إلى أنه حكم عام يشمل جميع الحجاج والمعتمرين من غير المحصورين والمصدودين.

ابن كثير: وبعطفه آية: وَلَا تَخْلِقُوا عَلَىٰ آيَةٍ: وَأَتَمُّوا كَمَا يَأْتِينَا يشمل غير من تعرضوا للإحصار.

سيد قطب: يذهب إلى أن هذا الحكم حكم عام من أحكام الحج والعمرة، ثم يقول عن حكم هذه الآية: وهذا فى حالة الإتمام وعدم وجود الإحصار.

الفريق الثانى: حكم عام يشمل الحجاج والمعتمرين بما فيهم المحصورون والمصدودون.

مكارم الشيرازى: ومع الأخذ بنظر الاعتبار عموميّة التعبير الوارد فى الآية الشريفه، يشمل المحصور وغير المحصور.

القرطبى: ذكر أن الخطاب لجميع الأمة: مُخَصَّرٌ وَمُخَلَّى.

الفريق الثالث: ذهب إلى أنه حكم خاص بالمحصورين والمصدودين، فهو استدراك من الحكم الوارد بالآية السابقة: فَمَا شَتَّيْتِيزَ مِنْ لِهْدَى.

القرطبى: ومن العلماء من يراها للمحصرين خاصّةً.

فهذه الآية تنشئ حكم التحلل من الإحرام، والتحلل: من حل الشيء حللاً صار مباحاً فهو حل وحلال، وحل المحرم وأحل: خرج من إحرامه، وجاز له ما كان ممنوعاً منه. (١)

١- القاموس الفقهي لسعدى أبو جيب؛ الجامع لأحكام القرآن.

ص: ١٢٧

مَحَلُّهُ: وقع كلام بين الأعلام فى هذه المفردة:

القاموس الفقهي: محله، بلغ الهدى الموضع الذى يحل فيه نحره.

القرطبي: أى لا تتحللوا من الإحرام حتى يُنْحَرَ الْهَدْيُ، وَالْمَحِلُّ، الموضع الذى يحل فيه ذبحه.

السمين الحلبي: يجوز أن يكون مَحَلُّهُ ظرف مكان أو زمان، ولم يقرأ إلا بكسر الحاء فيما علمت إلا أنه يجوز لغته فتح حائه إذا كان

مكاناً. وفرق الكسائي بينهما فقال: المكسور هو الإحلال من الإحرام، والمفتوح هو مكان الحلول من الإحصار.

ومن حيث كونه مكاناً اختلف فيه على قولين:

مجمع البيان: أنه الحرم فإذا ذبح به فى يوم النحر أحل عن ابن عباس وابن مسعود والحسن وعطا.

أنه الموضع الذى يصد فيه؛ لأن النبي (ص) نحر هديه بالحديبية وأمر أصحابه أن يفعلوا مثل ذلك وليست الحديبية من الحرم عن

مالك.

وأما على مذهبن الكلام ما زال للطبرسى: فالأول حكم المحصر بالمرض، والثانى حكم المحصور بالعدو.

وإن كان الإحرام بالحج فمحله منى يوم النحر، وإن كان الإحرام بالعمرة فمحله مكة.

وأما مَحَلُّهُ عند غيرهم، فهم على قولين:

الأول: عند مالك والشافعى، أينما وقع الإحصار، فهو موضع الحصر، ودليلهم: الاقتداء برسول الله (ص) زمن الحديبية؛ وقوله تعالى:

وَلْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ قِيلَ: محبوساً إذا كان محصراً ممنوعاً من الوصول إلى البيت العتيق.

الثانى: عند أبى حنيفة، محل الهدى فى الإحصار: الحرم؛ لقوله تعالى: ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَىٰ لُبَيْتِ لَعْتِيقِ. (١) وحتجوا من السنة بحديث ناجية

بن جندب صاحب النبى (ص) أنه قال للنبي (ص): ابعث معى الهدى فأنحره بالحرم؛ قال: «فكيف تصنع

ص: ١٢٨

به» قال: أخرجه فى الأودية لا يقدرّون عليه، فانطلق به حتى أنحره فى الحرم.

وأجيب عن الآية بأنّ المخاطب الآمن الذى يجد الوصول إلى البيت، فأما الْمُخَصِّر فخرج من الآية بدليل نحر النبى (ص) وأصحابه هَدَيْهِم بالحديبية وليست من الحَرَم.

وأما استدلالهم بحديث ناجية، فجوابه بأنّ هذا لا يصح، وإنما يُنحر حيث حلّ؛ قتداءً بفعله (ص) بالحديبية؛ وهو الصحيح الذى رواه الأئمة، ولأنّ الهُدَى تابع للمُهْدَى، والمهْدَى حلّ بموضعه؛ فالْمُهْدَى أيضاً يحلّ معه. (١) هذان الحكمان على القول بأنّ هذا الحكم خاص بالمحصورين، وأما على القول الآخر أنه حكم لا يشمل المحصورين بل هو لغيرهم من عموم الحجاج وهم الذين أمروا بالإتمام ولم يتعرضوا للإحصار أو الصد، فهذا ابن كثير فى تفسيره يذكر أنّ قوله: وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ لُهْدَى مَحَلَّهُ معطوف على قوله: وَأَتُمُوا لِحَجِّ وَلْعُمْرَةَ لِلَّهِ وليس معطوفاً على قوله: فَإِنْ أَحْصَيْتُمْ فَمَا سَتَّيَسَّرَ مِنْ لُهْدَى كما زعمه ابن جرير؛ لأنّ النبى (ص) وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما فى حال الأمن والوصول إلى الحرم، فلا يجوز الحلق حَتَّى يَبْلُغَ لُهْدَى مَحَلَّهُ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان منفرداً أو متمتعاً؛ كما ثبت فى الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة، ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: «إنى لبدت رأسى، وقلدت هدى، فلا أحل حتى أنحر». انتهى.

وبالتالى تكون منى مكان الذبح كما صرح به سيد قطب: فلا يجوز حلق الرؤوس إلّا بعد أن يبلغ الهدى محله، وهو مكان نحره، بعد الوقوف بعرفة، والإفاضة منها؛ والنحر يكون فى منى فى اليوم العاشر من ذى الحجة، وعندئذ يحل المحرم؛ أما قبل بلوغ الهدى محله فلا حلق ولا تقصير ولا إحلال.

ص: ١٢٩

وأذكر هنا أنه يرى الآية أو حكمها للذين لم يمنعهم الإحصار وهو واضح من كلامه: (وهذا فى حالة الإتمام وعدم وجود الإحصار)).
(١) وهذا هو حكم الآمنين المطالبين بالإتمام دون عائق يمنعهم من إحصار أو صد.
وللمقالة صلة.

١- تفسير ابن كثير؛ فى ظلال القرآن: الآية.

ص: ١٣٠

الحج في الأدب العربي

الشيخ حسن طراد

الحج للأجيال أفضل معهد تجنى به عفو الإله السرمدي
وتسير في درب التقى بتضامن وتعارف وتعاطف وتودد
إحرامه نزع لثوب مطامع و طوافه إجلال ربّ أوحده
وصلاته صلّة القلوب بخالق باري الوجود ونيع عيش أرغد

ص: ١٣١

والسعى سعى للفضيلة والعلی وقضاء حاجات الفقير المُجهد
وكذلك التقصير رمز تجرّد من كل خُلُقٍ عن كمالك مُبعدٍ
أما الوقوفُ فوقه لتعارف وتقارب رغم المكان الأبعد
والإزدلاف لمشعر نرنو به لرضا السماء بتضرع وتعبد
والرمي رمى للطغاه بموقفٍ حُرٍّ من الجمع الغفير مُوحدٍ
والذبح ذبح للهوى وتأثر بسخاء إبراهيم بالغض الندى
والحلق زينه مؤمن متمسك بعرى التقى رغم الزمان الأنكد
أما المبيت لدى منى فضيافه محموده عند الإله الأجود
هى تلك فلسفه المناسك أشرفت وعياً بيدد حيره المتردد
فالله لا يدعو الأنام لغير ما يُجدى البريه فى القريب و فى الغد
وكذاك إن ينهى فعن مُردٍ لنا جسماً وروحاً دون أى تردد
هو عالمٌ بمفاسدٍ ومصالحٍ تعطى السعادة للتقى المهتدى
فمن اتقى يجنى المُنَى بتعبدٍ وسواه يغرق فى الشقا بتمرد (١)

١- فلسفه الحج فى الإسلام: ٢٣٣.

مقتطفات من كتاب: الأماكن المأثورة المتواترة في مكة المكرمة «٣»

لمؤلفه الأستاذ الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان

إعداد وتقديم: محمد علي المقدادي

المقدمة

إنّ من كان له أدنى إلمام بالمعالم الإسلامية، يعلم بأنّ قسماً كبيراً منها يرتبط بالآثار الباقية من رسول الله (ص) وأهل بيته الطيبين (عليهم السلام) والصالحين؛ ولا شك أنّ الأجيال سواء أكانت المؤمنة أم الأخرى التي تريد الاطلاع والدراسة التي لم تكن حاضرة في تلك العصور لا يمكنها التعرّف على هؤلاء القادة السادة إلّا من خلال الاطلاع على آثارهم التي تبين تاريخهم النير، ودورهم الكبير، وعطاءهم المبارك، وتضحياتهم الجسام، حقاً «إنّ آثارهم تدلّ عليهم».

فالآثار خير وسيلة وأنجع طريقة للتعرف على سيرتهم وأخلاقهم، وللتعرف على ما حملوه من قيم ومبادئ، راحت تترك بصماتها على سلوكهم وأخلاقهم، وظلت هذه الآثار تحكى بصدق عظمة جهودهم التي بذلوها في سبيل رسالة السماء، وهداية الناس، وانقاذهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الحياة الإيمانية، غير مكنتين بأنفسهم وأهليهم ومن حولهم في عصرهم، بل حتى للذين يأتون بعدهم بما يتركونه من تراث مقروء، أو مسموع، أو مرئي

ص: ١٣٣

يمكن الاستفادة منه؛ في الاقتداء بهم، والسير على نهجهم القيم، المنبثق من كتاب الله تعالى وسنة نبيه (ص).
 فلو علم الإنسان المسلم أن رسول الله (ص) الذي وصفه القرآن الكريم بقوله: وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ قد تجسد خلقه هذا، وهو يعيش حياةً متواضعةً مشحونةً بالتواد والتراحم، بعيدةً عن الفظاظة والغلظة؛ تتلمسها في دار صغيرةً بسيطةً اتخذها سكناً، وفي مسجد اتخذته مقراً لعبادته وقيادته للأمة والدولة، وهكذا في كل موقعه ومواقفه ومنازله وعلاقاته.. فسيأخذ هذا الإنسان المسلم طريقاً صحيحاً مماثلاً لما عليه رسول الله (ص) وأهل بيته (عليهم السلام) والصالحون رضوان الله تعالى عليهم لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ. .. (١) و يقتدى بهم بسبب ما رأى من آثارهم، ويعيش حتماً مثل ما رأى وعرف من كيفية منازلهم، وبساطة عيشهم؛ وبسبب هذا التعرف على آثارهم يصير ذلك الإنسان أنموذجاً حياً في عصره، وإن كان عصره بعيداً عنهم بقرون، فضلاً عما يترتب على زيارة هذه المواقع من بركات وأجر وثواب ...

وليس هذا من منافع التعرف على آثارهم القيمة فحسب، بل ستكون هذه الآثار معلماً واضحاً، وداعياً قوياً، للتعرف على المنهج المبارك نفسه الذي ساقته السماء والتزم به الصالحون، فيا حبذا لو كانت دار رسول الله (ص) وآثاره المباركة باقية في عصرنا، لتكون داعية حقيقية إلى الإسلام العزيز الحنيف!!

ولكن يا للمصيبة! فقد ابتلى الإسلام والأمة الإسلامية بفرقة فاسدة حاقدة، بدأوا بتكفير أبناء الأمة الإسلامية، واتهموهم بالشرك والإلحاد! ولم يكتفوا بهذه الاتهامات الكاذبة، بل بدأوا بهدم كل ما تعلق به نفوس المؤمنين من الأماكن الإسلامية، وتخريب الآثار المقدسة التي بقيت من عصر الرسول الأكرم (ص).

ص: ١٣٤

إنّ الذي ارتكبه هؤلاء ضدّ آثار الرسول (ص) و أهل بيته (عليهم السلام)، وتكفير المجتمع المسلم وقتلهم الأبرياء، لا يقل بشاعة مما يرتكبه الصهاينة، وهو يلبي ما يأمله أعداء الإسلام ويهدفون إليه من إيجاد الخلافات وإثارة النعرات بين الأمة الواحدة... إنّ الأستاذ الدكتور عبدالوهاب إبراهيم، قد بذل جهده في هذا الكتاب لإثبات قدسية الأماكن الشريفة والمعالم الأثرية في مكة المكرمة وأهميتها، تلك الآثار التي كانت عامرة منذ قرون و سنين، قبل أن يقوم الوهابيون الجاهلون بهدمها وتخريبها، فحرموا الناس من منافعها وبركاتها.. إنهم لا يسمعون شيئاً ولا يعقلون سوى ما يلبي أهدافهم واعتقادهم الضال!

إنّ ما قام به الدكتور لجهده واسع نافع، مع أنه كان يعيش في ظروف صعبة و خطيرة؛ وليس في هذه المجلة ما يسع كل ما تفضل به الدكتور من مباحث كتابه القيم، فاقطفنا من ثمار هذه الروضة الجليئة بحثاً يستفيد منها القراء الكرام؛ وهذا هو القسم الثالث من الكتاب.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يحبّ ويرضى، إنه سميع قريب مجيب.

مقدمه المؤلف

إنّ الأماكن التاريخية ذاكرة الأمم الحية، والشاهد القائم الذي لا يكذب، والدليل الناطق الباقي إذا اندثرت الأجيال. مكة المكرمة مهد الإسلام، ومبعث النور، ومنطلق خاتمة الرسالات، شرفت بولادة المصطفى (ص)، واحتضنت كبار صحابته الكرام على أرضها المباركة، شهدت عرصات ومرابعتها ملحمة الصراع بين الحق والباطل، وزكت تربتها بالدماء الزكية، دماء الشهداء. في كلّ شعب منها وزاوية وبقعة أثر خالد، ومنار مضيء يحكي قصصاً من جهادهم، وأمثلة من كفاحهم، تظل وقائعه حية في نفوس الأجيال المسلمة سماعاً، ومشاهدة، تكتحل بها نواظرهم، و تردد على أسماعهم مآثرهم، ترسخ بها معاني الإيمان، تتقوى بها

ص: ١٣٥

عزائمهم، وتتجدد بها هممهم؛ لنشر العقيدة السليمة، والمبادئ، والقيم الصحيحة، يستنطقون من خلال السيرة والمسيرة والآثار القائمة أمجاد التاريخ الإسلامي في مراحل المبكرة؛ ليعث حياً في النفوس.

مكة المكرمة قد ضمت العديد الكثير من تلك الأماكن التاريخية المهمة في تاريخ الإسلام، حظيت بعناية المسلمين واهتمامهم منذ العصور الإسلامية المبكرة تأليفاً وتدويناً، توثيقاً، ورواية متواترة، علمياً ومحلياً، فهي سجل حافل في صفحات موثقة، يتوارث معرفتها الخلف عن السلف في تسلسل تاريخي منتظم، منذ ظهور الرسالة المحمدية، حتى الوقت الحاضر، حرص السلف الصالح: محدثون، وفقهاء، ومؤرخون، وأدباء منذ القرن الأول الهجري على ترسيم تلك الأماكن، وتوقيعها، وتحديدتها تخليداً للحدث، مرتبطاً بمشاهدة المكان، فللمكان إحياءاته وإشعاعاته، بقيت تراثاً خالداً باقياً عبر الأجيال المتعاقبة في أمانة وصدق، دون أن تمس بسوء.

إنّ هذا البحث يواصل تلك المسيرة التي ابتدأها سلفنا الصالح في صياغة تحليلية جديدة، فهو امتداد لتلك الجهود، خصوصاً وأنّ الكثير منها قد اختفى عن الأنظار؛ لغرض توسعه المسجد الحرام، وإعادة تخطيط المدينة المقدسة، مكة المكرمة بحسب ما جد فيها من طرق، وتزايد عدد السكان، وأعداد الحجاج الذين بلغ إحصاؤهم إلى ما يزيد على المليونين، والمستقبل ينبئ بزيادات مضاعفة في السكان، والحجاج والمعتمرين.

أدى هذا وغيره إلى غياب بعض تلك الأماكن من الوجود، وحتى تظل تلك الشواهد التاريخية التي عاصرت أفضل الخلق، وأعظم أجيال الإسلام محفورة في الذاكرة وحتى لا- يصبح تاريخنا وماضينا أسطورة مثل ما حدث لبعض الأمم السابقة يأتي هذا البحث لرصدها، وما طرأ عليها، استمراراً للتسلسل التاريخي لجزء من أهم خصائص المدرسة التاريخية المكية.

ظهرت العناية بهذه الأماكن المأثورة في مكة المكرمة عبر القرون الماضية توثيقاً في مدونات متعددة كثيرة، ومن لدن جهات علمية متنوعة.

ص: ١٣٦

في مدونات السيرة النبوية والمدونات التاريخية، والدراسات الفقهية، يسند هذا التدوين العلمي تواتر محلي تتوارثه الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة، حرصاً ألا يطويها النسيان، فللمكان إحياءاته وإشعاعاته الإيمانية، واستذكار الذين أدوا دوراً مهماً في نشر الإسلام. بهذا المفهوم التربوي الراقى، البعيد عن الغلو والمجافاة، استحوذ هذا الموضوع على اهتمام علماء الإسلام: محدثين، وفقهاء، ومؤرخين من عصر التابعين حتى العصر الحاضر، فقاموا برصد تلك الأماكن التاريخية تحديداً، وتعييناً، وتاريخاً لما حدث عليها من إحداثيات، يدعمهم النقل المتواتر بين الأجيال، بالسماع والمشاهدة، جيلاً بعد جيل، في حرص وأمانة علمية شديدة، تجلّى هذا الاهتمام في الآتي:

أولاً: مدونات السيرة النبوية.

ثانياً: سير الصحابة رضوان الله عليهم.

ثالثاً: المصادر التاريخية العامة، والأخرى المتخصصة في التاريخ المكي.

رابعاً: كتب المناسك ومدوناتها المطولة والمختصرة، فقد أصبح ذكر هذه الأماكن موضوعاً ثابتاً، وباباً مهماً مستقلاً في معظم كتب المناسك تحت عناوين مختلفة، قل أن يخلو منها كتاب من تلك الكتب، بل إن بعض العلماء أفردوا بكتابات مستقلة، ورسائل مفردة زيادة في العناية والاهتمام.

يقتصر العرض لمختارات من المدونات السابقة تفصيلاً إن شاء الله تعالى، توثيقاً صريحاً للتواتر العلمي.

واجب الأمانة العلمية والتاريخية يقضى ذكر العناوين التي يضعها المؤلفون في تقديمها وعرضها، فإن لكل عنوان مدلوله عند المؤلف، وسيكون من مهمة البحث تحليل تلك العناوين تحليلاً علمياً متجرداً.

الواجب العلمي يقضى إنصاف كل ذي رأى في هذا الموضوع بأدلته، وبالفهم الذي يفهمه، دون تحيز، أو افتئات، فمن ثم اقتضت الدراسة تقسيم البحث إلى الفصول الآتية ...

أود أن أنبه القارئ الكريم إلى أمرين ينبغي أن يكونا في الحسبان:

ص: ١٣٧

أولاً: مهمة البحث أصالة هو العرض المتجرد بما يمليه المنهج العلمي، خصوصاً فيما يتصل بالآراء الفقهية، فليس المجال مجال سجال، أو جدال، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلّا صاحب الرسالة سيدنا محمد (ص)، وللقارئ أن يرجح ما يشاء، دون غمط، أو تقليل، أو نبذ للآخرين، فهذا ليس من خلق الإسلام.

ثانياً: جاء الاقتباس من مصادر متعددة متنوعه لقرون مختلفة، فبرغم تكرار أسماء المواضع، لكن يختلف المؤلفون في أسلوب العرض، وذكر معلومات إضافية عن الموضوع بما حدث له من عمار، أو خراب له في عصره، كذلك ليتم الاقتناع بالتواتر العلمي في كل مجموعة من تلك الكتب المنتسبة إلى فنونها على انفرادها، وفق عصور مختلفة، وبجميعها مجتمعة، بالإضافة إلى التواتر المحلي في تعيين هذه الأمكنة، وتحديدتها، وتوارث مواقعها جيلاً بعد جيل، يتجلى هذا من وصف بعض الأمكنة في ثنايا كتابات بعض المؤلفين، مثل الحديث عن مكان مولد النبي (ص): «وهو من أصح الآثار عند أهل مكة، يحقق ذلك مشايخهم»، وبهذا يتحقق المعنى الاصطلاحي بين علماء الإسلام لمدلول (التواتر) وهو:

«الخبر الثابت على ألسنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب». (١) تم العرض على هذا الأسلوب من أجل قطع الشك باليقين، وحتى لا يسقط القارئ المتأمل في دائرة الإنكار التي لا تستند إلى دليل، والذي يروج له البعض من دون علم ومعرفة بالمواقع والأنحاء في مكة المكرمة، ولأمر ما يشككون فيما جرى عليه التواتر العلمي والمحلي فيما لا شك فيه منذ القرون الإسلامية الأولى، دون علم أو سند؛ سامحهم الله.

على أنه ينبغي أن يكون القارئ الكريم على وعى تام للفرق بين أمرين مختلفين حكماً:

١- الجرجاني، علي بن محمد الشريف، كتاب التعريفات، الطبعة الأولى: ٧٤، بيروت: لبنان، عام ١٩٦٩ م، التواتر.

ص: ١٣٨

أولاً: المحافظة على هذه الأماكن من يد العابثين، فهي أمانة الماضي، وأمانة تاريخية ينبغي أن تبقى دروساً حية، ناطقة للأجيال القادمة، ينظرون إلى تاريخ الرسالة المحمدية من خلالها.

ثانياً: الممارسات المخالفة للعقيدة الصحيحة بأبها العقل، وترفضها العقيدة الإسلامية الصحيحة، وهذا ما ستم مناقشته والحديث عنه بشكل تفصيلي. والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان مكة المكرمة

المبحث الثاني:

الباقى من الأماكن المأثورة المتواترة

في مكة المكرمة في الوقت الحاضر:

تتضمن هذه القائمة عناوين الأماكن المأثورة الباقية حتى عصرنا الحاضر، معروفة في أماكنها، مشهورة بمواقعها، سيكون العرض لها في وصف موجز لوضعها الحاضر:

أولاً مولد النبي (ص) يقع في حى بنى هاشم، بالموضع الذى يقال له سوق الليل، وهو مشهور، وهو في الوقت الحاضر مقر (مكتبة مكة المكرمة)، يقع في دورين: دور أرضى، ودور علوى، له مدخلان: أمامى يطل على الساحة الشرقية للحرم الشريف، وخلفى في الناحية الجنوبية منه، أصبح البناية الوحيدة الباقية من حى سوق الليل بعد إزالة هذا الحى ضمن توسعه ساحات الحرم الشريف من الناحية الشرقية، تقع في واجهته الرئيسة غرباً، الساحة الشرقية للمسجد الحرام التى يطل عليها مشعر المسعى، وفي خلفه من ناحيته الغربية يقع نفقا الغزة النافذين من جبل أبى قبيس في امتداد أنفاق العزيزية، يقودان

ص: ١٣٩

إلى شارع الغزة، في طريقين مزدوجين، الأيمن منهما للقادم من محبس الجن بحىّ العزيزية، والآخر للذهاب من الغزة إلى حى أجياد. الجهة الشمالية من المكتبة (المولد النبوى الشريف) أصبح ساحة كبيرة قد مهدت بعد هدم حى شعب على [بنى هاشم] بأكمله، وسوى جبل أبى قبيس فى تلك الناحية، فأضحى فضاءً واسعاً وأرضاً وطية مسفلته، خصص جزء منها للدفاع المدنى، وبعض المرافق الحكومية، ومكاتب لمشروع الحرم الشريف، ومواقف لسيارات بعض الإدارات الحكومية، واستخدمت أيضاً لمعدات البناء فى توسعة المسعى، وما تبقى من الأرض خصص لمواقف للمواصلات العامة فى يوم الجمعة، والمواسم الدينية: رمضان والحج، وموسم العمرة لنقل قاصدى المسجد الحرام للسالكين شمال مكة المكرمة من خلال نفقى المشاة ذهاباً وإياباً.

يمثل هذا الجزء حى بنى هاشم التاريخى، حيث يضم أماكن تاريخية مهمة فى حياة المسلمين ينفذ نفقا المشاة إلى هذه الساحة، وقد كانا سابقاً طريقاً للسيارات، امتداداً لأنفاق العزيزية إلى مشعر الصفا، وقد شيد داخل جبل أبى قبيس فى هذين النفقين (الذهاب والآيب) ميضات عديدة تخدم القاصدين للمسجد الحرام للتطهر للصلاة، وقد كانت أقرب الميضات إلى الحرم، حيث الخروج منهما رأساً إلى المسجد الحرام من خلال أبواب المسعى على خطوات منه استبدل بهذين النفقين للسيارات خاصة نفقا الغزة، وقد سدت فوهات الحمامات بالخرسانة الجاهزة، لأسباب أمنية، حيث تقع هذه الميضات أسفل جبل أبى قبيس الذى شيدت القصور الملكية فوقه مباشرة.

أصبح موقع المولد النبى الشريف المبارك (مكتبة مكة المكرمة) - وهو بناء قديم متهالك - بارزاً فى هذه المنطقة، وقد كسى أسفله بالرخام الملون ضمن تبليط الساحة الشرقية للحرم الشريف.

وحتى العصر الحاضر (عام ١٤٣٠ هـ) لا يزال المبنى على وضعه القديم منذ إنشاء المكتبة عام ١٣٧٠ هـ.

سبق الكلام على هذا الموقع المبارك لدى الحديث عن عناية الملك عبد العزيز بالأماكن التاريخية فى مكة المكرمة، ورأى العلماء فى الإبقاء عليه، واستغلاله بطريقة حضارية، وقد خص بتأليف

ص: ١٤٠

بعنوان: (مكتبة مكة المكرمة، دراسة موجزة لموقعها وأدواتها ومجموعاتها). (١) ثانياً- مسجد الراية: يقول المؤرخ فضيلة الشيخ محمد طاهر الكردي المكي الخطاط، في تحديد وتعيين هذا المسجد:

«مسجد الراية: هو الواقع بالجودرية على يمين الصاعد من المدعى إلى المعلأ، وبين المسجد والبيوت التي قبله زقاق ضيق صغير نافذ إلى الطريق العام، وبئر جبير بن مطعم واقعه في هذا الزقاق الضيق، وملتصقه بجدار البيت الذي بجوارها، وهي بئر مهجورة؛ ولقد جدد بناء هذا المسجد في زماننا سنة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م، فعند حفر أساسه عثروا على حجرين مكتوبين يدلان على أن هذا المسجد هو مسجد الراية، أحدهما مؤرخ سنة ٩٨٩ هـ / ١٥٨١ م، وثانيهما مؤرخ سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩١ م، وقد رأينا الحجرين حين عمارة المسجد، ولا يزال الحجران مثبتين في جداره.

والبئر المذكورة حفرها في الأول قصي، ثم دثرت فاستخرجها جبير ابن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، وأحياها، هكذا قاله الأزرقى في تاريخه». (٢) قد جددت عمارة المسجد عام ١٣٩٤ هـ، (٣) وهو حالياً يقع وسطاً بين سوق الجودرية وشارع الغزة العام، ويسمى في الوقت الحاضر بمسجد الملك فهد.

قد بنى بناية جميلة حديثة يعلو المسجد قبة كبيرة، ومنارة، وضعت الميضآت في أسفل المسجد، وله بابان رئيسان: أحدهما: يطل على شارع الغزة العام، مقابل عمارة الجفالي، مرتفع عن مستوى الشارع العام يصعد إليه بدرج، والآخر في الجهة الشرقية يطل على

١- تأليف عبدالوهاب إبراهيم أبو سليمان، الطبعة الأولى، الرياض، مطبوعات الملك فهد الوطنية، السلسلة الأولى «٢٠» عام ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.

٢- هامش ١ تعليق على كتاب الإعلام بأعلام بلد الله الحرام: ٢٢.

٣- أنظر: المفتى، بهجت صادق، دليل مكة المكرمة الإسلامية، الطبعة الأولى: ٨٣، الرياض: مطابع الفرزدق، عام ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.

ص: ١٤١

سوق الجودرية، صممت الميضأة أسفل بناء المسجد وهو من المساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة. وصلت توسعته ساحات الحرم الشريف الشمالية مع نهاية الشهر الثالث من عام ١٤٣٠ هـ إلى حدود هذا المسجد الشريف، هدمت جميع البنايات القديمة والحديثة المتقدمة أمامه نحو الحرم المكي الشريف، بما فيها من فنادق ومحلات تجارية، وقد كان هذان السوقان: المدعى والجودرية، من أنشط أسواق مكة التجارية قديماً، وحديثاً، حيث إن كل القادمين من سكان مكة المكرمة والحجاج، والمعتمرين في أحياء مكة المكرمة الشمالية يمرون بهذين السوقين لدى توجههم إلى المسجد الحرام، وكانت تعرض فيهما أنواع مختلفة من الضائع: محلات الملابس، والأحذية، والعطارة، وغيرها، وعادة ما يزدحم هذان السوقان بالعابرين خلالهما، وبخاصة يوم الجمعة، والمواسم الدينية، وكانت الجنائز تخترقهما إلى جنه المعلى، غير أنه في السنين الأخيرة، وعندما أصبح نقل الموتى إلى المسجد الحرام بسيارات الإسعاف، فيسهل على المشيعين نقل الموتى من الحرم الشريف إلى جنه المعلاة بنفس وسيلة النقل، فيكون خروج الجنائز من باب الملك عبدالعزيز من خلال نفق الغزة.

بهدم هذين السوقين، وإزالتها تماماً عام ١٤٣٠ هـ أزيل من أسواق مكة الشهيرة قديماً، سوقا الجودرية والمدعى، ضمن ما أزيل من أحياء قديمة في مكة المكرمة.

ثالثاً- مسجد الإجابة: لا يزال هذا المسجد موجوداً قائماً في موضعه القديم في بناية حديثة، وكان عند قبلته حجران أثريان دون عليهما بعض الكتابات التي تؤرخ لبناء المسجد، وقد نقلنا إلى الجدار الخارجي على يمين المدخل الرئيس للمسجد في عمارته الحديثة، وبجوارهما حجر من القاحوط دون عليه تاريخ تمام عمارة المسجد الجديدة (يوم الجمعة غرة رمضان عام ١٤٢٢ هـ، الموافق ١٦ نوفمبر سنة ٢٠٠١ م)، بنى المسجد بناءً حديثاً في عمارة حديثة أنيقة، وتم تكييفه مركزياً، على نفقة معالي الشيخ إبراهيم العنقري رحمه الله تعالى المستشار في الديوان الملكي.

ص: ١٤٢

يشرف المسجد على ثلاثة شوارع رئيسة، الواجهة الأمامية تطل على الشارع العام، والشرقية على شارع الإجابة، والغربية على شارع مرتفع.

هدم المسجد القديم عام ١٣٩٤ هـ أقيم موضعه المسجد الحالي، وشيد على طراز حديث.

وهو بناء مربع الشكل تزين جدرانه من أعلى عدد من الشرفات الجصية، وللمسجد بابان: من الجهة الشرقية، والغربية، ونوافذ عديدة، ومنارته في الركن الجنوبي الغربي. (١) رابعاً- مسجد البيعة: لا يزال موجوداً في بنائه القديم، قمت مع بعض الزملاء بزيارته يوم كان متوارياً خلف جبل العقبة قبل نسفه فوجدناه مهملاً، نزع بابه، لم يعط الاهتمام اللائق بتاريخه في الإسلام.

وفي زيارة بحثية عام ١٤٢١ هـ، عثر كل من عبدالوهاب أبو سليمان، ومعراج نواب مرزا، على الحجر الثالث الضائع الذي أشار إليه تقي الدين الفاسي المكي، في الحائط الغربي للمسجد، مغطى بطبقة من الدهان الأبيض. (٢) كان هذا المسجد متوارياً من وراء جبل العقبة الضخم الذي يعد الحد الطبيعي لمنى في الناحية الغربية، لم يكن هذا المسجد معروفاً إلا لمن قرأ عنه وقصده، وكان وضع هذا المسجد واستتاره من وراء ذلك الجبل الضخم في ذلك الشعب الذي يسمى ب- (شعب البيعة) محققاً تماماً كما وصفه العلامة الأزرقى وغيره من المؤرخين، اعتبره بعض الصحفيين بعد ظهوره اكتشافاً أثرياً جديداً.

وفي الوقت الحاضر أصبح المسجد ببنائه القديم ظاهراً بارزاً للعيان بعد إزالة جبل العقبة، حيث تمت إزالة الجبل الضخم عام ١٤٢٨ هـ بعد عمل شاق متواصل ليل نهار لمدة عامين بآليات حديثة متقدمة، واستعمال الديناميت المفجر للصخر؛ ضمن مشروع تطوير،

١- المفتى، بهجت صادق، دليل مكة المكرمة الإسلامية: ٨٩.

٢- نشر هذا الخبر بصحيفة عكاظ، السنة الثانية والأربعون، العدد ١٢٥٨٩، الثلاثاء ١٩ ذوالحجة ١٤٢١ هـ، الموافق ١٢ فبراير ٢٠٠١ م:

ص: ١٤٣

وتحسين الجمرات الأخير، المشروع الضخم الذي سخت عليه الحكومة السعودية بالمال الوافر، بقصد تجنب الحجاج من الكوارث والإصابات، والمحافظة على أرواحهم ..

حدث كل هذا امتداداً لتطوير الجمرات، وتوسعة الساحات حولها، وقد أوصت اللجنة المشكلة لإعادة النظر في تطوير مشروع الجمرات المنعقدة في ٢٥ / ١١ / ١٤٢٣ هـ برئاسة الأمير عبدالمجيد بالفقرة التالية:

- المحافظة على منطقة شعيب البيعة ككل بحيث لا يمسها المشروع بتغيير، لأنها توثق لفترة تاريخية إسلامية مهمة.

- معالجة وضع مسجد البيعة ومعاملته ضمن المخطط الشامل مع الأخذ في الاعتبار المحيط الطبيعي لمنطقة شعيب البيعة ومسجده. (١)

لا يزال المسجد قائماً بعد إزالة جبل العقبة وتطوير مبنى الجمرات، وقد أحيط بأسلاك شائكة محافظةً عليه بعد تجديد دهانه، وفي النية إعادة بناء المسجد بنائه حديثه حسبما جاء التصريح من سمو الأمير متعب بن عبدالعزيز آل سعود وزير البلديات والأشغال العامة، فعسى أن ينال الاهتمام اللائق به في الوقت الحاضر، وهو جدير بالمحافظة عليه، واسترجاع ذاكرة التاريخ الإسلامي، وما كان يلقاه رسول الله (ص) في الدعوة إلى دين الله، وأخذ البيعة من الأنصار رضوان الله عليهم على حمايته، ومؤازرته إذا حل ببلدهم.

خامساً- مسجد الخيف: لا يزال قائماً تقام فيه الصلوات الخمس أيام موسم الحج بدءاً من شهر ذي الحجة من كل عام، وتقام فيه صلاة عيد الفطر من كل سنة.

يحده من الشرق شارع مخصص للمشاة يتخلل بين مبنى المسجد ومقر وزارة الشؤون الإسلامية، ودورات المياه المخصصة بخدمة رواد المسجد، والمناطق المجاورة، ويتصل بشارع الخيف بدرج إسمنتية.

١- محضر اجتماع اللجنة المشكلة لدراسة مشروع تطوير الجمرات بتاريخ ١ / ١٢ / ١٤٢٣ هـ.

ص: ١٤٤

ومن الغرب شارع يربط شارع الرابطة وشارع الخيف والساحة الموجودة أمام البوابة الرئيسة. توجد أمام واجهة المسجد القبليّة مجموعة من الخيام الحديثة المقاومة للحريق في شكل نصف دائرة تشغلها الجهات الأمنيّة، والخدميّة وغيرها.

مرت عمارة مسجد الخيف بمرحلتين وهي على النحو التالي:

المرحلة الأولى: في عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز، وكان من أبرز سماتها أنها احتفظت بالملامح التاريخيّة للمسجد، مع توسعه من الناحية الشماليّة والجنوبيّة، وإضافة رواق مسقوف بعرض ١٥ م، وبه ثلاثة صفوف من الأعمدة، في كل صف ٢٢ عموداً يطل كل منها على صحن المسجد ... وتفقد مساحته بحوالي ٢٣٦٦٠ م^٢، بطول من الشرق إلى الغرب حوالي ١٨٢ م، وعرضه من الشمال إلى الجنوب حوالي ١٣١ م.

المرحلة الثانية: في عهد الملك خالد بن عبدالعزيز، حيث أزيلت المباني القديمة بالكامل، ووضعت أساسات جديدة لبناء جديد بالكامل ... بلغت مساحة المسجد في هذه العمارة ٢٥٠٠٠ م^٢.

مع هذا التجديد للمسجد محيت في البناء الجديد جميع المعالم التاريخيّة المأثورة التي توثق لبعض الأماكن الأثريّة داخل المسجد، أصبح المسجد مسقفاً بالكامل، ومكيفاً تكييفاً عاماً.

في شوال عام ١٤٢٧ هـ رمم المسجد، وأزيل البلاط القديم ليحل محله بلاط جديد فقشع القديم بواسطة تركترات و معدات ثقيلة، وكشف الحفريات عن سراديب داخل أرض المسجد، وقد وقفت على هذا مع الزميلين الدكتور معراج نواب مرزا، والدكتور عبدالله شاووش، وزوج ابنتي المهندس لدى مؤسسته بن لادن عاصم عبدالله تركستاني، ولأن العمال لا يدركون أهميّة مثل هذه الأمور فقد أشعرنا بهذا المسؤولين بمعهد أبحاث الحج. (١)

١- أنظر: أبو سليمان، عبدالوهاب إبراهيم، ومعراج نواب مرزا، مجلة البحوث الفقهيّة المعاصرة، العدد التاسع والأربعون، السنّة الثالثة عشرة: شوال، ذوالقعدة، ذوالحجّة ١٤٢١ هـ،: ١٦٠.

ص: ١٤٥

... سادساً- مسجد التنعيم، .. لا يزال في مكانه، يؤمه المعتمرون، وقد جدد بناؤه، واتسعت أروقته على نمط حديث.

المسجد حديثاً: أزيل البناء القديم للمسجد، وكانت جداره قائمه دون سقف.

وفي عام ١٣٩٨ هـ وضعت الحكومة السعودية مخططاً لإعادة بناء المسجد كأجمل ما تكون المساجد، بطراز معماري فريد، خاصة وأن هذا المسجد ذو أهمية خاصة، وما زال حيث أقيم بجوار ميقات أهل مكة؛ وبنى المسجد على شكل مستطيل، عبارة عن قسمين منفصلين:

القسم الأول: المسجد ويتكون من أكتاف ثمانية تحمل قبة ضخمة، زينت الأكتاف بزخارف متنوعة، وتحمل الأكتاف رقبه القبة، ويعلوها القبة المرتفعة، يتوسط جدار القبلة المحراب الكبير رواق القبلة بارتفاع أربعين متراً.

القسم الثاني: مئذنتان: في الركن الشمالي الغربي، يقابلها في الطرف الآخر مئذنة أخرى بنفس المواصفات، تنتهي كل مئذنة بجوسق كمثرى الشكل يعلوها هلال.

للمسجد مدخلان ينفذان إلى ساحة مسقوفة بين المسجد والميضأة، ومنها الدخول مباشرة إلى ثلاثة أبواب موصلة إلى قاعة المسجد، خص منها باب لدخول النساء، يلج الداخل منها مباشرة إلى مكان الصلاة مستقبل المحراب، عزل مصلى النساء بالمسجد بفاصل خشبي.

يحوط المسجد من جهات ثلاث ساحات ومواقف للسيارات عدا الجهة القبليّة. (١) سابعاً- مسجد الفتح بالقرب من الجموم: بنى بناءً حديثاً متواضعاً من أحد المواطنين المحسنين، تصلى فيه الصلوات الخمس، وله إمام راتب.

١- أنظر: المفتي، بهجت صادق، دليل مكة المكرمة الإسلامية،: ٧٢.

ص: ١٤٦

ثامناً- مسجد الجن (الحرس): لا يزال موجوداً في مكانه المعروف قديماً بسوق المعلاة، على يمين النازل إلى الحرم الشريف، له ثلاث واجهات رئيسة:

الشرقية تطل على الشارع المتوجه إلى باب مقبرة المعلاة، والغربية على شارع المسجد الحرام، والشمالية على شارع يلتقى فيه طريق المسجد الحرام مع الشارع المؤدى إلى مقبرة المعلاة.

جدد بناؤه في العصر الحديث عام ١٤٢١ هـ، تخطيطه المعماري يعتمد تفكيراً هندسياً حديثاً، يتجلى هذا في هيكله الخارجي، ومنارته في شكل هندسي غير مألوف، على نمط تجديد المساجد المجاورة في منطقة المعلاة: مسجد الجندراوى، ومسجد عين زبيدة، كسيت جداره الداخلية والخارجية بالرخام الملون النفيس، خصص الدور الأرضي لمصلى الرجال، والدور العلوي الأول للنساء، وجعلت ميضات المسجد بالبدروم.

تاسعاً- مسجد الجعرانة: لا يزال قائماً، وقد جددت عمارته في العهد السعودي مرات عديدة آخرها عام ١٤٢٨ هـ.

عاشراً- غار حراء: معلم بارز من معالم مكة الشامخة يبدو في شكل هندسي فريد، يراه القادم إلى مكة من كل جوانبها وجهاتها، مكانه معروف مشهور منذ القدم، يصعد إلى أعلاه بدرج قديم منذ العهد العثماني، وقد تهدم معظمها بحكم القدم أحياناً، وقد هيا الله له من العمال من ينحتون الدرج في الجبل تعويضاً لما تهدم من درجه المبنى قديماً، عندما يصل الصاعد إلى قمة الجبل حيث المسجد المزال ينحدر هبوطاً إذا أراد الوصول إلى الغار الذي كان يتحنث فيه النبي (ص) الليالي ذوات العدد، داخله لا يتسع لأكثر من واحد إلّا بضيق شديد، يستطيع الزائر لهذا الغار أن يرى من خلال فجوة أمامية بين الصخرات كالطاق مشاهدة المسجد الحرام دون حجاب قبل بناء العمائر الضخمة، والأبراج العالية التي حجبت الرؤية.

لا يزال هذا الغار والله الحمد قائماً يصعد إليه الحجاج، والمعتمرون، والأهالي بلهف وشوق برغم الصعوبة والمشقة، ومما يندى له الجبين أن هذا الغار الشريف يمارس عنده الكثير من ما يخالف الشريعة والعقيدة الصحيحة بسبب ترك الحبل على الغارب، دون

ص: ١٤٧

مبادرة لتنظيم الوفود من الحجاج والمعتمرين الراغبين في زيارة هذا الموضع الشريف، للذهاب إليه في مجموعات منظمة مع مرشد رسمي، يقص السيرة النبوية، والمراحل التي قضاها رسول الله (ص)، وبالإمكان استخدام الوسائل الحديثة بتسجيل تلك الوقائع، والمعاناة التي تكبدها رسول الله (ص)، دون خرق لقاعدة من قواعد العقيدة الصحيحة، ودون مساس بما يخدمها مما يجري على هذا المكان الطاهر المبارك من ممارسات الجاهلين، والمشعوذين المستغلين في الوقت الحاضر، ودون اتخاذ إجراءات سليمة للاستفادة من هذا الموقع التاريخي في سلامة وأمان.

أصبح ما حول جبل النور حياً كبيراً يسمى (حى جبل النور)، جزء من الحى مخطط تخطيطاً هندسياً حديثاً، والبعض منه عشوائى من دون تخطيط، وبخاصة ما يحيط بالجبل.

اتسع النطاق العمرانى حول الجبل بطريقة عشوائية، لا تتلاءم ومكانته التاريخية في الإسلام، والطريق إلى صعوده ضيق غير ممهد، تغلب على الحى من حول الجبل المساكن الشعبية، والشوارع الضيقة، وهى كل يوم في امتداد، الوصول إلى الغار الذى كان يتحنث ويتعبد فيه رسول الله (ص) صعب جداً، حيث تهدمت الدرج الموصلة إلى قمته، وبالرغم من هذا يرتاده المواطنون، والحجاج.

حادى عشر- غار ثور: لا يزال بحمد الله باقياً، يصعد إليه القاصدون من حجاج بيت الله الحرام ليشاهدوا المكان الذى اختفى فيه رسول الله (ص)، وصاحبه أبوبكر، عند هجرته (ص) إلى المدينة المنورة، بالرغم من مشقة الصعود إليه، الصعود إليه أشد من الصعود إلى جبل النور، وأكثر مشقة، وكان هناك مسجد قد تهدم.

هذه جملة الأماكن الإسلامية المأثورة المتواترة الباقية حتى عام ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م. (١)

١- يذكر العلامة عفيف الدين عبد الله بن إبراهيم ميرغنى ت ١٢٠٧ "ومنها مولد سيدنا حمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه بأسفل مكة على طريق الذهاب إلى بركة ماجن، قال الفاسى: ولم أر شيئاً يدل بصحة ذلك، بل فى صحته نظر، لأن هذا الموضع ليس محللاً لبنى هاشم: ٢١٠؛ هذا المسجد لا يزال قائماً وقد قام بتخطيطه، وبنائه فى السبعينيات الهجرية من القرن الرابع عشر الهجرى المهندس المكى محمد سعيد فارسى، وهو من سكان حى المسفلة قديماً، فبنى بناءً حديثاً، أصبح هذا المسجد قريباً من المسجد الحرام بما يقدر بنصف كيلومتر بعد إزالة الكثير من المباني فى بداية حى المسفلة، وبناء المباني والأبراج الضخمة حوله، وإلى جواره من الجهة الغربية مسجد آخر، قد بنى عندما كان مسجد سيدنا حمزة متهدماً يفصل بينهما شارع ليس بالضيق، ولا زالت الشوارع فى تلك المنطقة على حالها من الصغر والضيق برغم بناء العمارات الضخمة حول المسجد، وقد قمت بزيارة الموقع مع كل من الزميلين الدكتور عبد الله شاووش، والدكتور معراج نواب مرزا صباح يوم الخميس ٢٧ / ٤ / ١٤٣٠ هـ، الموافق ٢٢ / ٤ / ٢٠٠٩ م للتحقق من بقاء هذا المسجد.

ص: ١٤٨

والألم يحز في النفس، فإنّ بعض هذه الأماكن لاتعطي الاهتمام اللائق بتاريخها الإسلامي، ولا يسهل الوصول إليها بالوسائل الحديثة رحمة بالحجاج، الذين يقصدونها شوقاً للوقوف على آثار النبي (ص) في بلده مسقط رأسه (ص)، الأمل معقود في الله عزّوجل، ثم في حرص هيئة السياحة بالمملكة العربية السعودية؛ حيث يتولى أمر هذا المرفق نخبة من رجال المملكة الغيورين على تراثها، المقدرين قيمتها العلمية والتاريخية، لبذل جهود مشكورة في الحفاظ على تراث الأمة، وفي مقدمتها ما له علاقة بتاريخنا الإسلامي الخالد.

الخاتمة

يتلخص من العرض السابق ما يأتي:

١. التواتر العلمي حجة في الشريعة الإسلامية، وكذلك التواتر المحلي وهما وسيلتان قطعتان تثبت بهما الأحكام الشرعية.
٢. التشكيك فيما ثبت بالتواتر سواء العلمي أو المحلي، جناية مغلفة على تاريخ الأمة، وهدم لقطعاتها، بل تشكيك في الأصول التي تثبت بهما، وهو أمر خطير شرعاً لمن يدرك حقيقة هذا النوع من الاستدلال وأهميته الشرعية.

ص: ١٤٩

٣. زيارة الأماكن المأثورة للحاج أو المعتمر، وهو بمكة المكرمة أثناء إقامته، زيارة خالية مما يخدش العقيدة، أو يكسف إشراقها، هي في الأصل على الإباحة والجواز.

٤. الاعتراض ينبغي أن ينصب على الممارسات التي تتنافى مع صفاء العقيدة وسلامتها، واتخاذ ما هو أسلم لمنعها؛ حيث إن القصد التطلع لمعرفة، والوقوف على ما جرى من أحداث كان لها أثر عظيم في نشر العقيدة الإسلامية، وما تكبده رسول الله (ص) وصحابته الكرام في سبيلها، وإشباع الجانب الروحي لدى المسلم.

٥. الحجاج والمعتمرون، والقادمون إلى هذه البلاد لاستكشاف التاريخ الإسلامي على أرضه لهم مشاعرهم الروحية، الإيمانية؛ فكل مؤمن يقرأ عن مكة المكرمة فإنما يقرأه بتلهف واستيعاب، كما يقرأ عن أحب الأشياء إليه بعناية واهتمام، فهو يترقب بفارغ الصبر الفرصة التي تتيح له زيارتها، ومشاهدتها، والوقوف على مآثرها، ومشاعرها وقوفاً يجمع به بين المرثى والمقروء، ويطبق معلوماته على المواقع، والمنازل تطبيقاً صحيحاً، فإذا وصل إليها تمثلت أمام عينيه جميع المعلومات المخزونة في حفظه، وتكونت عنده سلسلة من الأسئلة ... عن المطاف، وبئر زمزم، وابتدائه، ودار الندوة وموقعها؟ عن المسجد الحرام، وأصله، وزياداته، وأبوابه، وعماراته.

عن مولد النبي (ص) ومولد أولاده، وبيوت أصحابه، ومساجدهم، وعن دار أبي سفيان، ودار الأرقم ... (١)، هذا كله نابغ وصادر عن مشاعر إيمانية عميقة بطبيعة الحال، تدفع الزائر للتزود بالمعلومات الصحيحة عنها، وهي فرصة لوجوده في مرابعها، وهي فرصة العمر التي قد لا تتاح له مرة أخرى، وإشباعه روحياً بما تتركه في نفسه من مشاعر الحب، والتمسك بتعاليم الإسلام، والتحمس لمتابعة النبي (ص) والسلف الصالح من أصحابه والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

ص: ١٥٠

٦. إنكار هذه المشاعر الإيمانية في نفوس القادمين إليها إنكار لحقيقة الطبيعة البشرية، والجملة الإنسانية؛ حيث الميول الطبيعية لمعرفة التاريخ الإسلامي في مواقعه ومشاهده، ومرايعه.

٧. الأماكن المأثورة أمانة كل جيل يجب المحافظة عليها، فهي الشاهد الحي على الماضي ...

٨. الأماكن المأثورة في المدينتين المقدستين: مكة المكرمة والمدينة المنورة شواهد تاريخية حية للتاريخ الإسلامي، ومواقفه الحاسمة؛ إزالتها يحيل تاريخنا الإسلامي في نظر الأجيال القادمة أسطورة من الأساطير.

٩. الدعوة لإزالة الأماكن المأثورة في المدينتين المقدستين مكة المكرمة، والمدينة المنورة، محو للتاريخ الإسلامي في مواطنه الأصلية.

١٠. ليس من منهج السلف الصالح الدعوة إلى إزالة هذه الأماكن المأثورة في مكة المكرمة ولا غيرها- فيما أحاط به العلم- حتى من المعارضين لزيارتها، ولهذا بقيت شاهداً حياً عبر العصور الماضية حتى عصرنا الحاضر.

١١. ليست إزالة الآثار الأسلوب الصحيح لمنع الممارسات المخالفة لعقيدة التوحيد وصفائها، بل يحمل هذا في طياته إضعاف جذوة الإيمان في نفوس الشباب.

١٢. أصبح الناس من الوعي الديني بعامه، والسعوديون بخاصة ما يجعلهم يرفضون الممارسات التي تتنافى مع العقيدة الصحيحة.

١٣. (لا يزال حق لباطل)، فلا تزال هذه الأماكن المأثورة ويمحى التاريخ الحق بسبب الممارسات الجاهلية الباطلة؛ هذه قاعدة شرعية تحمي الأمر الحق مما يخدشه من الباطل.

وفي هذا السياق سئل العلامة عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء السؤال الآتي:

«إذا ثبت عن النبي (ص) سنه، هل يجوز تركها لكون المبتدع يفعلها أم لا؟»

فأجاب: لا يجوز ترك السنن لمشاركة المبتدعين فيها، إذ لا يترك الحق لأجل الباطل، وما زال العلماء والصالحون يقيمون السنن مع العلم بمشاركة المبتدعين، وإذا لم يترك الحق لأجل الباطل فكيف يترك الحق

ص: ١٥١

للمشاركة في الحق، ولو ساغ ذلك لترك الأذان، والإقامة، والسنن الراتبه، وصلاة الأعياد، وعيادة المرضى، والتسليم، وتشميت العاطس، والصدقات، والضیافات، وجميع المبرات المندوبات، والله أعلم». (١) هذا هو منهج السلف الصالح في مواجهة الانحرافات العقديّة.

١٤. التوعية الدينيّة الصحيحة الموجهة إلى التعرف على التعامل الشرعي الصحيح مع مثل هذه الأماكن التاريخيّة ذات القيمة الدينيّة، والمعنويّة، والتاريخيّة الرفيعة في تاريخ الأمة، هي الطريق الأمثل لتعديل سلوك بعض الجهلة من الحجاج، وهي الأسلوب الأمثل، والطريق الصحيح، وإلا سيظل أصحاب الباطل متمسكين بعقائدهم، حتى لو أزيلت تلك المعالم لا قدر الله.

١٥. الأماكن المأثورة المتواترة الباقية بمكة المكرمة في الوقت الحاضر هي:

مكان المولد النبوي الشريف (ص) (مكتبة مكة المكرمة)، مسجد الراية، مسجد الإجابة، مسجد البيعة، مسجد الجن، مسجد الفتح، مسجد الجعرانة، مسجد التنعيم، مسجد الخيف، غار جبل حراء، غار جبل ثور.

١٦. مكان ولادته (ص) أمر مقطوع به بين العلماء المكيين، وأبناء مكة المكرمة متحقق لديهم ولادته في شعب هاشم بمكة المكرمة، في بيت والده المعروف اليوم بمكتبة مكة المكرمة، وأنه لا خلاف فيه بين الفقهاء، والمؤرخين، وعلماء السيرة النبويّة، جيلاً بعد جيل، منذ القرون الإسلاميّة الأولى.

١٧. حظى مكان ولادته (ص) بقدر كبير من عناية المسلمين، واهتمام الخلفاء والأمراء عبر التاريخ الإسلامي بما يليق بمكانة نبي الإسلام سيدنا محمد (ص) في نفوس المسلمين.

ص: ١٥٢

١٨. عناية الملك عبدالعزيز بالأماكن المأثورة: المولد النبوي الشريف، ودار السيدة خديجة ودار الأرقم بن أبي الأرقم، ومولد علي بن أبي طالب (ع) وتوظيفها توظيفاً حضارياً، أنموذج رفيع في الاتجاه الصحيح.
١٩. ... مكان المولد النبوي الشريف يجعله مكتبة عامة، له بعد فكري، وحضاري، أما البعد الفكري فإنه يتمثل في استمرارية إشعاعه العلمي، يفد إليها العلماء، والباحثون من جميع أقطار العالم الإسلامي يستفيدون من محتوياتها من الكتب النفيسة، والبعد الحضاري بأن جعل من المكان ذى التاريخ الحضاري الطويل منارة علم، ومعرفة في بلد الله الأمين، ينبغي أن يحافظ عليه ليظل معلماً حضارياً من معالم أمة الإسلام في الوقت الحاضر، وهو من البعض المتبقى من تلك المعالم الشامخة.
٢٠. حققت مكتبة مكة المكرمة - بهذا التوظيف الحضاري - خلال الخمسين عاماً الماضية - خدمات علمية ومعرفية جلية منذ تأسيسها حتى الوقت الحاضر، فقد تطورت مجموعاتها من المصادر والمراجع، حيث ضمت ما يزيد على عشرين مكتبة خاصة من مكاتب كبار علماء مكة المكرمة، وأدبائها، تجمع نواذر المطبوعات والمخطوطات على المستوى العالمي.
٢١. موقع هذه المكتبة الفريد، ومكانها التاريخي بإيحاءاته الروحية، والإيمانية يمثل تاريخاً حياً ينبغي أن يظهر بالمظهر اللائق بمكانته إسلامياً، وتاريخياً، واستغلاله في ترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة، وتفعيل النشاط العلمي، والدعوى من داخل أروقته، وتجديد بنائه بحيث يكون معلماً حضارياً لفاصديه من العلماء، والأدباء، والمفكرين، وطلاب العلم القادمين من جميع أرجاء العالم الإسلامي، وهو ما يتناسب مع مكانته السامية في تاريخ الإسلام، وقد زكى هذا الرأي سابقاً كبار العلماء السلفيين في هذه البلاد وغيرهم.
٢٢. الحفاظ على هذا المكان التاريخي المبارك مستقلاً بنيته وهيئته، وكذلك غيره من تلك الأماكن التاريخية المأثورة في مكة المكرمة، وتوظيفها التوظيف الديني، والعلمي العقلاني، والمدني الحضاري محافظة على مشاعر المسلمين، وتذكير ب بدايات التاريخ

ص: ١٥٣

الإسلامى وما واجهه المسلمون لنشر الدين والحفاظ عليه من كيد الكائدين مما تواجه الأمة جزءً منه، وتحتاج إلى التذكير به فى الوقت الحاضر.

٢٣. التشكيك فى صحه ما وقع عليه التواتر العلمى والمحلى من هذه الأماكن من دون دليل معتبر، مؤامرة لإخفات المشاعر الدينيه، وجهالة بالتاريخ، وجنايه على الحقائق الثابته.

٢٤. المغالاه بالتجاوز عن الحد المشروع، والمجافاه بالتبلد فى الشعور ليسا من الإسلام فى شىء، بل هما الأبعد عن سنن الإسلام وهديه، تتعارض مع سماحه الإسلام، وشفافيه روجه.

٢٥. الوسطيه فى كل شىء شعار الإسلام، فلا عبوديه إلا لله عزوجل، ومن تعظيمه تعالى تعظيم كل من عظمه الله، وتشريف كل من شرفه الله، وكل ما ينتسب إلى ذلك، من غير خروج عن حقيقته، أو تجاوز له عن قدره.

لواحق:

تراجم نخبه من المؤلفين فى الأماكن المأثورة المتواتره فى مكة المكرمة

يقدم البحث تراجم نخبه من الفقهاء أصحاب الراى فى موضوع زيارة الأماكن المأثورة، وإعطائها أحكاماً شرعية سواء منهم المعارض، والمؤيد، فلكل رأيه واجتهاده، وقد سبق عرض آراء الجميع.

ومما ينبغى أن لا- يغيب عن ذهن القارئ، أن هذه الفئة من المؤلفين سواء المعارضين، والمؤيدين لهم جهادهم فى محاربه البدع ومحدثات الأمور التى لا شاهد لها فى الشرع، حاربوها بأنفسهم، وبأقلامهم، وألفوا فى هذا الموضوع مؤلفات عديدة، فهم علماء ثقات علماء وعقيدة، وإن اختلفت آراؤهم، ومناهجهم الاستدلاليه.

سيرى القارئ كل هذا فى تراجمهم، وبما خطته أقلامهم لهم مواقف صارمه من البدع التى تمس العقيدة الإسلاميه.

فيما يلي عرض لهذه التراجم المختارة:

ص: ١٥٤

١. أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى (ت ٢٥٠ هـ)

مؤلف كتاب: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الطبعة الثالثة، تحقيق رشدى الصالح ملحق، مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة.
قال الحاج خليفة فى كتابه كشف الظنون:

الإمام أبو الوليد محمد بن عبدالكريم الأزرقى، وهو أول من صنف فى تاريخ مكة، ومختصره زبده الأعمال ...
لم يعرف بالضبط تاريخ ولادته، ولا أشار إليه أحد من المؤرخين، لأن الأقدمين أهملوا ذكره بتاتا، وترجمته التى وصلت إلينا هى من رواية الآخرين.

أما وفاته، فهى غير مضبوطة على التحقيق أيضاً، فقد ذكر الحاج خليفة صاحب كشف الظنون أنها ٢٢٣ هـ، وقال ابن عزم التونسى: أنها عام ٢١٢ هـ، والحقيقة أن كليهما خطأ السبيل، فإن الأزرقى توفى بعد هذا التاريخ بعشرات السنين، فقد ذكر الفاسى فى كتابه العقد الثمين أن الأزرقى كان فى عهد المنتصر على قيد الحياة. (١) ٢. الإمام أبو عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهى
مصنف كتاب: أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، عام ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م.

اسمه ونسبه: هو: محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهى، أبو عبدالله المكى.

حياة الفاكهى: عقد ابن حجر فى آخر كتابه (تغليق التعليق) باباً طويلاً ترجم فيه للبخارى، وعقد فيه فصلاً قال فيه: (فصل فى

١- أنظر ١٢: ١، ١٣؛ وانظر: الزركلى، الأعلام ٢٢٢: ٦.

ص: ١٥٥

ذكر الرواة عن البخارى. (١) فذكر جماعة مّين روى عنه كتبه، ثم قال: ومن الحفّاظ (أى: الرواة عنه) من أقرانه فمن بعدهم، أبو زرعة، وأبو حاتم، وإبراهيم ابن إسحاق الحربى ... ثم ذكر جملة من الحفّاظ إلى أن قال: (ومحمد بن إسحاق الفاكهى - صاحب أخبار مكة-) ...

طلبه للعلم ورحلاته: كان مبكراً فى طلبه للعلم، والتقاءه بالشيوخ، والأخذ عنهم، وقد نصّ فى كتابه على أنه التقى ببعض مشايخه فى مكة، ولم يكونوا من أهلها. (٢) ولم يقنع الفاكهى بمن أخذ عنهم بمكة، سواء مشايخها، أو الوافدين عليها، فرحل فى طلب العلم إلى مراكز ثقافية، كانت لها شهرة واسعة فى ذلك الزمن.

فقد عرفنا من كتابه هذا أنه رحل إلى بغداد، وسمع فيها من أحمد بن عبد الجبار العطاردى، ت ٢٧٢ هـ. (٣) ورحل إلى الكوفة، وسمع فيها من إسماعيل بن محمد الأحمسى. (٤) ورحل إلى صنعاء، فسمع فيها من محمد بن على النجار، (٥) وإبراهيم بن أحمد اليمانى ... (٦) مكانته الاجتماعية: يظهر من خلال ما سطره الفاكهى فى كتابه أنه من رجالات مكة الذين يوضعون فى الاعتبار، ودلّت بعض الأخبار على أنه علّم من أعلام البلد الحرام، وخاصة بعد نضوجه العلمى، فقد وصف فى كتابه هذا أماكن ومواضع قد لا يتيسر

١- تعليق التعليق ٤٣٧: ٥- ٤٣٩.

٢- قال فى الأثر: ٥٧٦ حدّثنى أحمد بن الحارث الأشعري الكوفى، وحفظته منه فى مكة؛ وفى الأثر: ٥٨٥ قال: حدّثنا على بن حرب الموصلى بمكة؛ وفى الأثر: ١٨٠٦ قال: حدّثنا عمران بن موسى الطائى - سمعته منه فى المسجد الحرام-.

٣- أنظر الأثر: ١٠٥٣.

٤- الأثر: ١٩٠٤.

٥- الأثر: ١٣٠٦.

٦- الأثر: ٢٦٢٧، ٢٦٦٧.

ص: ١٥٦

لطالب علم عادى أن يصلها أو يراها، وروى حوادث ومراسلات بين الأمراء قد لا يطّلع عليها إلّا الخاصة ...
 مشايخه: روى الإمام الفاكهي في كتابه (أخبار مكة) في المجلد الثاني عن ٢٣١ شيخاً، وتفاوت روايته عنهم قلّة وكثرة.
 وقد روى عن أئمة أعلام مشهورين بالحفظ والإتقان وبالعباية بالحديث، مثل محمد بن إسماعيل البخارى، ومسلم بن الحجاج، وأبى حاتم الرازى، وأبى زرعة الجرجانى: أحمد بن حميد الصيدلانى، وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، وإسحاق بن منصور الكوسج،
 والحسن بن عرفة العبدي، وعباس بن محمد الدورى، وعمرو بن على الفلاس، والزبير ابن بكار وغيرهم ...
 أهمية كتاب الفاكهي: وقف ابن حجر على هذا الكتاب، واستفاد منه فى كثير من كتبه وذكر إسناده إليه، ثم قال: (وهو كتاب نفيس فى خمسة أسفار). (١) وقال الفاسى فى كتابه (شفاء الغرام):

(وفى كتاب الفاكهي أمور كثيرة مفيدة جداً، ليست من معنى تأليف الأزرقى، ولا من المعنى الذى ألفناه). (٢) فهو بهذا يقرر أنّ المادة المسطرة فى كتاب الفاكهي مادة واسعة تفوق المادة العلمية والتاريخية والأدبية التى فى كتاب الأزرقى، وفى كتاب (شفاء الغرام) أيضاً، وهما أوسع الكتب المؤلفة فى هذا الباب.

فإذا أردنا أن نتلمس أهمية كتاب الفاكهي هذا، وجب علينا أن نشير إلى النصوص الكثيرة التى احتفظ لنا الفاكهي بها من كتب مفقودة ...

وفاته: قال الفاسى فى (العقد الثمين): (وما عرفت متى مات، إلّا أنه كان حيناً فى سنة اثنتين وسبعين ومائتين، لأنه ذكر فيها قضية تتعلق بالمسجد الحرام). (٣)

١- تعليق التعليق ٤٧١: ٥.

٢- شفاء الغرام ٤: ١.

٣- العقد الثمين ٣١٠: ١، ٩-١٢، ١٤، ٣١، ٣٣؛ وانظر: الزركلى، الأعلام ٢٨: ٦.

ص: ١٥٧

٣. الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، (ت: ٥٩٧هـ)

مؤلف كتاب: مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن؛ الطبعة الأولى، قدم له وحققه وفهرسه الدكتور مصطفى محمد حسين الذهبي
القاهرة: دار الحديث، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

يذكر محقق الكتاب في التعريف بالمؤلف قوله: ...

مولده: ولد الإمام ابن الجوزي في مدينة بغداد (بدر ب حبيب)، واختلفت الروايات في زمن مولده على خمسة أقوال من سنة ٥٠٨ إلى ٥١٢ هـ.

مذهبه الفقهى: كان ابن الجوزي حنبلياً شديداً الميل للحنبلة، يدل على ذلك مواضع كثيرة من كلامه في كتبه خصوصاً في (مناقب الإمام أحمد) و (المنتظم).

شيوخ الإمام ابن الجوزي: لابن الجوزي مشايخ كثيرون على عادة علمائنا الأقدمين عامة، والمحدثين منهم خاصة، وقد تولى الإمام ابن الجوزي تعريفنا بشيوخه، وهم ستة وثمانون شيخاً، وثلاث شيخات ذكرهم في كتابه (مشيخة ابن الجوزي).

ثناء الأئمة على ابن الجوزي: قال مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي: (الواعظ المتفنن، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في أنواع العلم من التفسير والحديث والفقه والوعظ والأخبار والتاريخ وغير ذلك، وعظ من صغره، وفاق فيه الأقران، ونظم الشعر المليح، وكتب بخطه ما لا- يوصف، ورأى من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه). (١) وقال ابن خلكان: كان علامة عصره، وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ، صنف في فنون عديدة، وكتبه أكثر من أن تعد. (٢) وقال عماد الدين الأصبهاني: واعظ، صنيع العبارة، بديع الإشارة، مولع بالتجنيس في لفظه، والتأنيس في وعظه، وله في

١- العبر، في خبر من غير ٢٩٧: ٤، ٢٩٨.

٢- وفيات الأعيان ٣٢١: ٢.

ص: ١٥٨

القلوب قبولها، حسن الشمائل، قد مزجت من اللطافة والكياسة شمولها. (١) وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: كان زاهداً في الدنيا، متقللاً منها، وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام، ولا يخرج من بيته إلّا إلى الجامع للجمعة وللمجلس، وما مازح أحداً قط، ولا لعب مع صبي، ولا أكل من جهة لا- يتيقن حلّها، وما زال على ذلك الأسلوب حتى توفاه الله. (٢) ووصفه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية بقوله: أحد أفراد العلماء برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحو مائتي مجلد.

وله في العلوم كلها اليد الطولى، والمشاركات في سائر أنواعها من التفسير والحديث والتاريخ والطب والفقه وغير ذلك من اللغة والنحو. (٣) وقال ابن تيمية: عددت له أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك ما لم أراه. (٤) وقال عنه الحافظ ابن رجب: كان لا يضيع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربع كراريس، يرتفع له كل سنة من كتابتها ما بين خمسين مجلداً إلى ستين، وله في كل علم مشاركة. (٥) وقال الموفق المقدسي: كان ابن الجوزي إمام أهل عصره في الوعظ، وصنف في فنون العلم تصانيف حسنة، وكان صاحب فنون، وكان يدرس الفقه ويصنف فيه.

١- خريدة القصر وجريدة العصر ٢٦١: ٢.

٢- مرآة الزمان ٤٨٢: ٨.

٣- البداية والنهاية ٣١: ١٣.

٤- نقلًا عن ذيل طبقات الحنابلة ٤١٥: ٣.

٥- المصدر السابق.

ص: ١٥٩

وأثنى على ابن الجوزي الإمام الداودي فقال: الإمام العلامة، حافظ العراق وواعظ الآفاق، صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم، من التفسير والحديث، والفقه، والوعظ والزهد ... (١) وقال الإمام أبو الخير محمد بن الجزري في الثناء عليه: الإمام الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي ... تلا- بالعشر على أبي بكر محمد بن الحسين المزرفي؛ (٢) يريد أنه جمع إلى علومه الوفيرة حفظ القراءات العشر المتواترة للقرآن الكريم.

مكانته العلمية: لم يقتصر ابن الجوزي على فن واحد من فنون العلم، فهو نفسه يقول: ولم أقنع بفن واحد، بل كنت أسمع الفقه والحديث، وأتبع الزهاد، ثم قرأت العربية، ولم أترك أحداً ممن يروى ويعظ، ولا غريباً يقدم، إلّا وأحضره وأتخير الفضائل. (٣) ففي التفسير كان من الأعيان، كما قال عنه الذهبي، فقد فسر القرآن كله في مجلس الوعظ، كما قال: ما عرفت واعظاً فسر القرآن كله في مجلس الوعظ منذ نزل القرآن، فالحمد لله المنعم؛ وقد كان من أبرز ما ألف ابن الجوزي في التفسير (المغنى) واختصره في (زاد المسير في علم التفسير) وهو مطبوع في تسع مجلدات.

وفي الحديث كان من الحفاظ، فقد كتب الحديث وله إحدى عشرة سنة، وسمع قبل ذلك على حد قوله.

قال أبو عبدالله الديلمي: إليه انتهت معرفة الحديث وعلومه والوقوف على صحيحه وسقيمه، وله فيه مصنفات من المسانيد والأبواب والرجال ومعرفة ما يحتج به. (٤) وقال ابن الساعي: روى الحديث عن خلق كثير، وسمع الناس منه وانتفعوا به، وكتب بخطه ما لا يدخل تحت الحصر، وخرج التخاريج، وجمع شيوخه، وأفراد المسانيد، وبين الأحاديث الواهية والضعيفة. (٥)

١- طبقات المفسرين، للداودي ٣٧٥: ١.

٢- غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري ٣٧٥: ١.

٣- صيد الخاطر: ١٣٥، ولفته الكبد: ٢٤.

٤- نقلًا عن أعلام النبلاء ٣٧٣: ٢؛ مرآة الزمان ٧٨٢: ٨.

٥- الجامع المختصر لابن الساعي ٦٦: ٩.

ص: ١٦٠

وقد كان من أبرز مؤلفاته في الحديث: (جامع المسانيد)، و (الحدائق)، و (الموضوعات)، و (العلل المتناهية).
 وفي الوعظ كان له باع طويل حتى قيل عنه إنه عالم العراق وواعظ الآفاق، فقد بدأ ابن الجوزي الوعظ في التاسعة من عمره، وهو سن مبكرة يدل على ذاكرة واعية، وبديهة حاضرة، وذكاء حاد، ونبوغ مبكر، وكان يحضر مجلس وعظه الكثيرون، يسمعون له، ويتأثرون به، فيقول ابن الجوزي عن مدى تأثيره في الناس: وضع الله لى القبول في قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامى فى نفوسهم، فلا يرتابون فى صحته، وقد أسلم على يدى نحو مائتين من أهل الذمة، ولقد تاب فى مجالسى أكثر من مائة ألف، وقد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعاناها الجهال. (١) وقال ابن رجب: وإن مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير، ولم يسمع بمثله، وكانت عظيمة النفع، يتذكر بها الغافلون، ويتعلم منها الجاهلون، ويتوب عنها المذنبون، ويسلم فيه المشركون. (٢) ولعل من أبرز ما كتبه فى الوعظ: (التبصرة)، و (المنتخب)، و (المدهش)، و (بحر الدموع) و (بستان الواعظين ورياض السامعين).
 أما فى الفقه فلا بد وأن يكون فقيهاً، وكيف لا وهو الواعظ المفسر الحافظ الحنبلى المذهب، المجتهد فى بعض الآراء، ووصفه ابن رجب بأنه: مفيد المدرسة أى مدرسة الفقه الحنبلى؛ ومن أبرز ما ألفه فى الفقه: (الإنصاف فى مسائل الخلاف) و (عمدة الدلائل فى مشهور المسائل)، و (المذهب فى المذهب)، و (مسبوك الذهب)، و (المنفعة فى المذاهب الأربعة)، وغير ذلك.
 وفى التاريخ كان مؤرخاً بارع التصنيف وليس أدل على ذلك من كتابه (المنتظم)، كما كتب المناقب التى كتبها تعد موسوعة تاريخية متخصصة كل فى موضوعه، منها: (مناقب أحمد بن حنبل)، و (مناقب الحسن البصرى)، و (مناقب عمر بن الخطاب)، و (مناقب عمر بن

١- لفتة الكبد لابن الجوزي،: ٢٥١.

٢- الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٤١٠: ٣.

ص: ١٤١

عبدالعزيز)، و (مناقب سفيان الثوري)، و (مناقب إبراهيم ابن أدهم)، وغيرها.

هذا بالإضافة إلى نبوغه في الأدب، واللغة، والشعر، فقد قال الذهبي: (ونظم الشعر المليح وكتب بخطه ما لا يوصف، ولاقى من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه). (١) ونقل عن أبي شامة أن أشعاره عشرة مجلدات، ويبدو أن شعره حسن، وإن كان محشواً بالمحسنات البديعة، وله (المقامات) وهي مطبوعة.

مصنفاته: أما كتبه فإنها كثيرة جداً تزيد على ألف كتاب.. وقد ألفت الأستاذ العلوجي كتاباً قيماً هو: (مؤلفات ابن الجوزي) أحصى فيه كتبه، وأشار إلى المطبوع منها (٣٠ كتاباً) والمخطوط الموجود منها (١٣٩ كتاباً)، والمفقود (٢٣٣ كتاباً)، واستدرك عليه بعض الزملاء كتباً أخرى ...

وفاته... عاش في بغداد معظماً موقراً.. وتوفي ليلة الجمعة الثاني عشر من رمضان سنة ٥٩٧ هـ بين المغرب والعشاء في داره بقطفتا- محلة من محال بغداد-. (٢) ٤. الإمام الرباني يحيى بن شرف النووي (٤١٣هـ - ٤٧٦هـ)

مؤلف كتاب: الإيضاح في مناسك الحج والعمرة، الطبعة الثانية، وعليه الإيضاح على مسائل الإيضاح على مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم، تأليف عبدالفتاح حسين راوه المكي، مكة المكرمة: المكتبة الإمدادية، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م
يترجم له العلامة الفقيه الشيخ عبدالفتاح حسين راوه قائلاً:

التعريف بصاحب الإيضاح: هو الإمام العلامة شيخ الإسلام أستاذ المتأخرين، وحجة الله على اللاحقين، والداعي إلى سبيل

١- العبر في خير من غير، للذهبي ٢٩٧: ٤، ٢٩٨.

٢- ٩: ٣٩-١٧.

ص: ١٦٢

السالفين، محرر مذهب الشافعي ومهذبه، ومنقحه، ومرتب، فقيه المحدثين، ومحدث الفقهاء الحافظ أبو زكريا يحيى بن شرف بن موسى بن حسن بن حسين بن حزام بن محمد بن جمعة النووي الشافعي.

مولده: ولد في العشر الأول من المحرم عام ٦٣١هـ - ببلدة نوى (قرية من قرى دمشق بمرتفعات (الجولان)، وبها نشأ، وحفظ القرآن العظيم ...

تفننه في العلوم: تفنن في أصناف من العلوم فقهاً، فكان المرجع والمعول عليه في فقه الشافعي، ومتون أحاديث، وأسماء الرجال، فجمع بين الرواية والدراية، فكان أول أهل زمانه معرفة، وحفظاً، وإتقاناً، وضبطاً لحديث رسول الله (ص)، وعالماً بعلمه، وصحيحه، وأسانيده، فالنووي فقيه المحدثين، ومحدث الفقهاء، بل صار علماً يشار إليه بالبنان في زمانه، ومرجعاً يعتمد عليه، غير منازع ولا مدافع.

توليته التدريس: بعد أن اكتملت للنووي أدوات الحديث والفقه، قام بتدريسهما في المدرسة الإقبالية التي أنشأها جمال الدين إقبال سنة ٦٠٣هـ، ثم قام بالتدريس في المدرسة الركنية التي أسسها ركن الدين منكورس، والمدرسة الخلفية التي أقامها خلف الدين سليمان، ثم ولي دار الحديث سنة ٦٦٥ هـ فلم يأخذ من معلومها شيئاً حتى توفي ...

شمائله: كان على جانب عظيم من الورع والزهد؛ قال الذهبي: كان عديم الميرة، و الرفاهية، والتنعم مع التقوى، والقناعة، والورع، والمراقبة لله تعالى في السر والعلانية، وترك رعونات النفس من ثياب حسنة، ومأكل طيب، وتجمل في هيئة، بل طعامه جلف (١) الخبز بأيسر إدام، ولباسه ثوب خام، وسختيانية (٢) لطيفة.

وكان لا يأكل من فاكهه دمشق لما في ضياعها (٣) من الحيلة والشبهة، وكان لا يتقوت مما يأتي من بلده من عند والديه، ولا يأكل إلّا

١- الجلف: الجاف الشديد.

٢- السختيانية: جبة تلبس فوق الثوب.

٣- الضياع: جمع ضيعة بفتح الضاد وسكون الياء وهي الحديقة، أو القطعة المزروعة من الأرض.

ص: ١٦٣

أكله واحده في اليوم والليله بعد العشاء الآخرة، ولا يشرب إلّا شربة واحده عند السحر، ولم يتزوج، وكان كثير السهر في العبادة والتصنيف، ولذا قال ابن السبكي: إنه كان سيداً حصوراً وزاهداً، لم يبال بخراب الدنيا، إذا صير دينه ربعاً معموراً له الزهد والقناعة، ومتابعة السالفين من أهل السنّة والجماعة، والمصابرة على أنواع الخير، لا يصرف ساعة في غير طاعة، كانت عليه سكينه ووقار في البحث مع العلماء وفي غيره، وكان آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، يواجه بهما الملوك والأمراء، ويكتب إليهم الرسائل ناصحاً بالعدل في الرعية، وإبطال المكوس، (١) وردّ الحقوق إلى أربابها؛ قال أبو العباس بن فرج: كان الشيخ قد صارت إليه ثلاث مراتب، كل مرتبة منها لو كانت لشخص شُدت إليه الرحال، المرتبة الأولى: العلم، الثانية: الزهد، الثالثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال ابن كثير: إنه قام على الظاهر في دار العدل في قضية الغوطه لما أراد وضع الأملاك على بسايتها فردّ عليهم ذلك، ووقى الله شرها بعد أن غضب السلطان، وأراد البطش به، ثم بعد ذلك أحبه وعظمه، حتى كان يقول: أنا أفزع منه.

وفاته: سافر في آخر عمره إلى بلده نوى بعدما حج وزار القدس ووصل الخليل، فمرض بها عند والديه، وتوفي ليلة الأربعاء لست بقين من رجب سنة ٦٧٦ هـ. (٢) ٥. الحافظ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر محب الدين الطبري ثم المكي، (٦١٥ هـ - ٦٩٤ هـ)

مؤلف كتاب: القرى لقاصد أم القرى، الطبعة الثانية، تحقيق مصطفى السقا؛ مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م.

١- المكوس: بضم الميم جمع مكس وهو ما يفرضه الحاكم من الإتاوة عن السلع التي تباع أو تجلب وغير ذلك.

ص: ١٦٤

يذكر محقق الكتاب الأديب الكبير مصطفى السقا، في التنويه بالكتاب ومؤلفه قائلاً: مؤلف هذا الكتاب أحد أعلام المحدثين وفقهاء الشافعية، الحافظ القدوة، أحمد بن عبدالله، مُحِبُّ الدين الطَّبْرِيِّ، أبو العباس وأبو جعفر، (١) فَرَعَ دَوْحَهُ كَبِيرَةً مِنْ دَوْحَاتِ الشَّرْفِ وَالرِّيَاسَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْحَسَبِ، يَنْتَهَى نَسَبُهُمْ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَشِيخَتِ أَصُولِهِمْ فِي طَبَرِشَتَانِ مِنْ بِلَادِ الْعَجَمِ فِي الشَّرْقِ، وَامْتَدَّتْ فُرُوعُهُمْ إِلَى أُمَّ الْقُرَى فِي بِلَادِ الْحِجَازِ، وَتَوَارَثَ هُوَ وَبَنُو أَعْمَامِهِ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَأَحْفَادُهُمْ، مَنْاصِبَ التَّدْرِيسِ، وَالْقَضَاءِ، وَالخَطَابَةِ، وَإِمَامَةَ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ نَحْوَ سِتِّ قُرُونٍ، وَكَانُوا أَكْبَرَ أَصْحَابِ الْيُوتَاتِ بِمَكَّةَ، حَتَّى كَانَ الْأَشْرَافُ حُكَّامَ مَكَّةَ لَا يُعْدِلُونَ بِهِمْ أَحَدًا فِي الشَّرْفِ وَالصُّهْرِ وَالنَّسَبِ..، وَكَانَ نَسَاءُ هَذِهِ الْأُسْرَةِ يُبَارِينِ فِجُودَ الرِّجَالِ فِي رَفْعِ مَنَارِ الْعِلْمِ، وَالِاسْتِبَاقِ إِلَى غَايَاتِ الْمَجْدِ، حَتَّى خَلَدَ التَّارِيخُ ذِكْرَهُنَّ فِي الْغَابِرِينَ؛ قَالَ الْفَاسِيُّ مُؤَرِّخُ مَكَّةَ فِي كِتَابِهِ (العقد الثمين):

وله تواليف حسنة في فنون العلم...، ونقل هذا من التاريخ شهادات تستحق أن تكتب بأحرف من نور، عن المؤلف وأشيرته التي طَبَّقَتْ شَهْرَتَهَا الْخَافِقِينَ:

قال العلامة شمس الدين الذهبي في ترجمته المؤلف، في كتابه (تذكرة الحفاظ) طبع حيدر آباد (٢٥٥: ٤):

(الإمام المحدث المُفْتِي، فقيه الحَرَمِ، مُحِبُّ الدين أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد ابن أبي بكر الطَّبْرِيِّ، ثم المكي، الشافعي، مصنف الأحكام ولد سنة خمس عشرة وستمائه، وسَمِعَ مِنْ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ الْمُقَيَّرِ الْبَغْدَادِيِّ، وَابْنِ الْجُمَيْزِيِّ، وَشُعَيْبِ الزَّعْفَرَانِيِّ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَزْمٍ، وَجَمَاعَةٍ، وَتَفَقَّهَ، وَدَرَّسَ، وَأَفْتَى، وَصَنَّفَ، وَكَانَ شَيْخَ الشَّافِعِيَّةِ، وَمُحَدِّثَ الْحِجَازِ. رَوَى عَنْهُ الدُّمَيْطِيُّ مِنْ نِظْمِهِ، وَأَبُو الْحَسَنِ الْعَطَّارُ، وَأَبُو مُحَمَّدِ بْنِ الْبَرْزَالِيِّ، وَآخَرُونَ؛ وَكَانَ إِمَامًا صَالِحًا زَاهِدًا كَبِيرَ الشَّانِ، رَوَى عَنْهُ

١- لم يكنه بأبي جعفر إلا السيد محمد مرتضى الزبيدي في تاج العروس.

ص: ١٦٥

أيضاً ولده قاضي مكة، وكتب إلى بمرؤياته، توفي في جمادى الأولى أربع وتسعين وستمائة).

وقال السبكي في طبقات الشافعية، ٨: ٥، ٩: أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم، الحافظ أبو العباس مُحِبُّ

الدين الطبري، ثم المكي، شيخ الحرم، وحافظ الحجاز بلا مُدافعة، مولده سنة عشر (١) وستمائة في جمادى الآخرة.

ومن كتب المحبِّ الطبري غير ما ذكره الذهبي والسبكي:

١. كتاب (خلاصة سير سيّد البشر (ص)).

٢. كتاب (صِفْوَةُ الْقَرِي، في صفة حَجَّة المصطفى (ص)، وطَوْفُهُ بِأَمِّ الْقَرِي). عدد ورقاته ٢٢ وجدتهما ضمن مجموعة في علم التاريخ

(تراجم وسير رقم ٤) بدار الكتب المصرية.

٣. السمط الثمين، في مناقب أمهات المؤمنين؛ طبعه راغب الطباخ في حلب.

٤. ذخائر العقبى، في مناقب ذوى القربى؛ طبعه القدمى بمصر سنة ١٣٥٦ هـ.

٥. كتاب في صفة حجة النبي (ص)؛ أنظر: ١٣٨ من هذا الكتاب.

٦. الإمام عزالدين بن جماعة الكنانى، عبدالعزيز بن الإمام بدر الدين محمد بن إبراهيم الدمشقى ثم المصرى (٦٩٤ هـ -- ٧٦٧ هـ).

مؤلف كتاب: هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك، الطبعة الأولى، حققه على نسخة بخط المصنف، ونسخ مأخوذة عنه

وخرج أحاديثه وعلق عليه وكمل فوائده الدكتور نورالدين عتر؛ بيروت، دارالبشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤

٢

يبدأ المحقق ترجمة المؤلف بالفقرة التالية:

١- تقدم في كلام الذهبي أنه ولد سنة ست عشرة وستمائة. والصواب أن ميلاده سنة خمس عشرة وستمائة كما في العقد الثمين

للفاسى.

ص: ١٦٦

اسمه ونسبه: هو الإمام عزالدين عبدالعزیز بن الإمام بدرالدين محمد بن إبراهيم ابن سعدالله ابن جماعة، (١) بن صخر الكنانی، (٢) الحَمَوِي الأصل، ثم الدمشقی، ثم المصری.

اشتهر بلقبه (عزالدين) حتى غلب عليه في كتب التاريخ، ويلقب أيضاً (العز بن جماعة) اختصاراً، (٣) وكنيته (أبوعمَر)؛ و (الكناني) نسبة إلى كنانة، قبيلة عربية تُنسب إلى كنانة، وهو الجد العاشر للنبي (ص)، ويُنسب أيضاً (الحَمَوِي) لكون أصله من حماة، ولد أبوه الإمام بدرالدين محمد بن إبراهيم فيها سنة ٦٣٩هـ، كما يُنسب (الدمشقی) لولادته في دمشق، و (المصري) لإقامته فيها.

مولده ونشأته: ولد الإمام عزالدين عبدالعزیز ابن جماعة سنة أربع وتسعين وستمائة من الهجرة، (٤) في شهر المحرم، (٥) في التاسع عشر منه، (٦) وكانت ولادته في مدينة دمشق المحروسة، في

١- كذا جاء نسبه إلى جماعة في كتابنا هذا: عبدالعزیز بن محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة.

٢- هكذا نسبه الحافظ ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤٨٩: ٢، والشوكانی في البدر الطالع، ٣٥٩: ١، واقتصر تاج الدين عبدالوهاب بن علي السبكي على نسبه إلى جده «جماعة» في الطبقات الشافعية الكبرى، ٧٩: ١٠، وسيأتي العزو إليه باسم "السبكي" وكذا عبدالرحيم بن الحسن الإسنوي في طبقات الشافعية، ١٨٦: ١، وسنقتصر في العزو إليه على "الإسنوي". لكن وقع في طبقات الشافعية لأحمد بن محمد قاضي شبيهة، ١٠١: ٣ "ابن جماعة بن علي بن جماعة" طبع عالم الكتب؛ وسنغزو إليه ب "ابن قاضي شبيهة". وقال تقى الدين الحسنی الفاسی "ابن علي بن حازم بن صخر الكنانی". أنظر العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ٤٥٧: ٥، تحقيق فؤاد السيد.

٣- "كثير هذا الاختصار في ألقاب المتأخرين، فيقولون في تاج الدين «التاج» وفي جلال الدين «الجلال»، وهكذا... وقد راجعنا ترجمة كل من له صلة بدراسة الإمام ابن جماعة، وأوردنا ما تمس إليه الحاجة "المحقق.

٤- السبكي، ٧٩: ١٠.

٥- ابن قاضي شبيهة، ١٠١: ٣.

٦- الدرر الكامنة، ٤٨٩: ٢.

ص: ١٦٧

المدرسة العادلية الكبرى، بمنزل والده الإمام بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة، المحدث الفقيه القاضي، الذي كان قاضي القضاة بالشام ...

نشاطه العلمي: اشتغل الإمام عز الدين عبدالعزيز بن جماعة في مختلف جوانب العلم، تعليماً، وتطبيقاً في وظيفة القضاء، وتصنيفاً، ولم يقتصر على جانب دون جانب في حياته العلمية.

أما التدريس فقد بدأه من سن مبكرة، وهو ابن عشرين سنة، واستمر فيه إلى أن مات، قال ابن قاضي شبهة: (ودرس من سنة أربع عشرة)، (١) وفي الدرر الكامنة: (ودرس من سنة ١٤ إلى أن مات). (٢) فمن وظائفه في التدريس: (تدريس زاوية الإمام الشافعي بمصر، وتدريس الفقه بجامع طولون ونظرة، وتدريس جامع الأقمرة ونظرة، وغير ذلك من الشرف والوظائف)، (٣) مثل (تدريس الخشائية)؛ (٤) كما كان له أيضاً وظيفة الخطابة. (٥) أما التأليف فقد كان له فيه حظ موفور، يتجلى في مجموعة الكتب القيمة التي ألفها، وقد ظهر لنا أنه كان يفيد في التصنيف من المجاورة في الحرمين، والتي كان يكثر منها، وقد وجدنا في آخر النسخة التي بخط المصنف: (وفرغ من كتابتها مؤلف الكتاب عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكِنَانِي الشافعي - غفر الله لهم - يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من صفر، عام خمسة وخمسين وسبعمئة، بالمدينة الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)؛ انتهى.

وهذا النص نقله بحروفه عبدالوهاب بن عمر الحسيني الذي قابل نسخة الظاهرية على نسخة الإمام الفيروز آبادي، أثبتته بخطه

١- ابن قاضي شبهة، ١٠١: ٣.

٢- الدرر الكامنة، ٤٨٩: ٢، قال في ذيله "في نسخة ٢٤ قلت: لكن الصواب ١٤، لأنه ثبت كتابةً عند ابن قاضي شبهة.

٣- السبكي ٨٩: ١٠.

٤- كما في ابن قاضي شبهة ١٠٢: ٣.

٥- السبكي والدرر، في الموضوعين السابقين.

ص: ١٦٨

في آخر المجلد الأول نقلًا عن الفيروزآبادي، فقال: (وجدت بخط الشيخ مجد الدين: (١) وفرغ من كتابتها مؤلف الكتاب ...) إلى آخر ما ذكرناه بحروفه.

وهذا يوافق سنة استقالته الأولى لأجل الحج والمجاورة، سنة ٧٥٤، (٢) فيوافق الحج هذه السنة، والبقاء في المجاورة إلى شهر صفر وما بعده من سنة ٧٥٥ هـ- وكانوا يخرجون للحج من شهر رجب.

عبادته: تلقى الإمام عزالدين بن جماعة العلم والعمل جميعاً من مشايخه، ولاسيما والده الذي عرفنا شهادة الأئمة له بالعلم، والعمل، والورع، حتى إنه رفض راتب القضاء لما وجد نفسه في سعة، ولما ولي على الإشراف على المدرسة الكاملية، أعاد إلى الوقف ما أخذ منه أيام طلبه للعلم فيها، لأنه اطلع على أن شرطها مبيت الطالب فيها، وكان هو لا يبيت فيها. (٣) كذلك نجد العز بن جماعة يسلك طريق أهل التَّعبُد في حياته، فهو يكثر من الحج والمجاورة، كما شهدوا له بذلك، وبهذا يخلو الجو للعبادة، والتوجه بكلية إلى الله تعالى، في الحرمين الشريفين، ما لا- يخلو له في مصر، حيث المنصب، والمجتمع، والأشغال الكثيرة؛ ويجد الفراغ أيضاً للتأليف والبحث العلمي.

وكذلك نجد في العز بن جماعة رجل الإصلاح القضائي، لِمَا أجراه في تعيين القضاة وإدارة العمل القضائي، ... ورجل الإصلاح الديني في المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن أمثلة ذلك ما نجده في كتاب الحج هذا من تشبيهه على منكرات ومخالفات لأهل زمنه يحذر الناس منها، وكذلك ما يحدثنا هو نفسه في هذا الكتاب كيف سعى لتغيير المنكر بنفسه، وأزال بدعته في الطريق بين الحرمين، على الرغم من أنه كان بعيداً عن سلطانه.

١- هو الشيرازي الفيروزآبادي صاحب القاموس: ٥٩- ٦٠.

٢- أنظر: ٢٠- ٢١.

٣- أنظر: ١١.

ص: ١٦٩

قال في الباب الخامس: وبعد هذه المنزلة قبيل قاع البزوة شق في جبل هناك على يمين الذهاب إلى مكة المشرفة، فتن العوام به يزعمون أن سيدنا رسول الله (ص) صلى فيه، وليس لذلك أصل.

ومررت به سنة تسع وأربعين وسبعمئة قبيل طلوع الشمس، فرأيت فيه زحمة، ورأيت النساء مختلطات بالرجال، وهو يصلون به في هذا الوقت المكروه، فسألت بعضهم عن صلاته؟ فقالوا: تحية البقعة! فنهيتهم عن ذلك، وحذرتهم من العود إليه ... (١) أما الفقه فقد طلبه وحصله من أئمة زمنه، واشتغل فيه تدريساً كما مر، وتصنيفاً، وتخريجاً لأدلته، قال ابن رافع: (جمع شيئاً على المهذب، وعمل المناسك الكبرى، والصغرى، وخرّج أحاديث الرافعي، وتكلم على مواضيع من المنهاج). (٢) وهذه كلها في الفقه، فكيف يكون غير ماهر فيه، وله كل هذا الاشتغال به.

بل إن الإمام عزالدين بن جماعة لم يقتصر على الفقه الشافعي الذي تخرّج فيه، حتى تجاوزه إلى سائر المذاهب الأربعة وأدلتها، وهذا كتابه (هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك) خير وثيقة، وأقوى برهان على رسوخه في المذاهب الأربعة، وإحاطته بمصادرها، ومعرفة رجال الفتوى في كل مذهب منها، مما لا يمكن أن يصدر إلا عن فقيه عميق المعرفة، دقيق التمييز، ليس في مذهب واحد فحسب، بل في كل المذاهب المعمول بها في الأمصار الإسلامية ...

وفاته: كان الإمام أبو عمر عزالدين عبدالعزيز بن جماعة قد بلغ من العمر لدى استقالته من القضاء اثنتين وسبعين سنة، فخلّى نفسه للعبادة والحج والزيارة، لتوافيه منيته في السنة التالية، وهو على أحسن حال وأكمله.

قال الحافظ ابن حجر: وحج القاضي عزالدين من سنته وجاور إلى أن مات في السنة المقبلة، وكان يقول: أتمنى أن أموت في أحد

١- الفرع الرابع عشر: ٣٦٢؛ ولم يبق لهذا الشق وجود الآن والله الحمد.

٢- الدرر الكامنة ٤٨٩: ٢.

ص: ١٧٠

الحرمين معزولاً عن القضاء، فنال أمنيته في الأمرين، ودفن بالقرب من الفضيل بن عياض بباب المعلاة. (١) وقال معاصره الإمام تاج الدين السبكي: واستمر على الزاوية، وجامع طولون وجامع الأقرم - يعني استمر على دروسها بعد الاستقالة - وانفصل عن القضاء ومتعلقاته إلى أوان الحج، أخبره فقير أنه رأى النبي (ص) في المنام يقول له: (فلان أوحشنا)، وذكر هو أنه رأى والده يقول في المنام: (الذي رآه الفقير صحيح)، فَحَيَّ وجاور بمكة، إلى جمادى الأولى، توجه إلى زيارة النبي (ص) وعاد إلى مكة، فأقام بها ثلاثة أيام معافى، ثم مرض فاستمَرَ به المرض عشرة أيام، فَتَوَفَّى في عاشر جمادى الآخرة سنة سبع وستين وسبعمئة بمكة، ودفن في حادي عشر، بين الفضيل بن عياض، والشيخ نجم الدين الأصفهاني.

ويسجل الإمام ابن كثير وهو معاصر لابن جماعة نبأ وفاته في أحداث سنة ٧٦٧هـ - ويبرزها تحت عنوان خاص، فيقول: (وفاة قاضي القضاء عز الدين بن جماعة الشافعي: في العشر الأول من شهر شعبان قدم كتاب من الديار المصرية بوفاء قاضي القضاء عز الدين عبدالعزيز بن بدر الدين محمد بن جماعة بمكة شرفها الله، في العاشر من جمادى الآخرة، ودفن في الحادي عشر في باب المعلّى، وذكروا أنه توفي وهو يقرأ القرآن، وأخبرني صاحب الشيخ محي الدين الرحبي حفظه الله أنه كان يقول كثيراً: (أشتهى أن أموت وأنا معزول، وأن تكون وفاتي بأحد الحرمين)، فأعطاه الله ما تمناه، عزل نفسه في السنة الماضية، وهاجر إلى مكة، ثم قدم إلى المدينة لزيارة رسول الله (ص) ثم عاد إلى مكة، وكانت وفاته بها في الوقت المذكور، فرحمه الله وَبَلَّ بالرحمة ثراه. وقد كان مولده في سنة أربع وتسعين، فتوفي عن ثلاث وسبعين سنة؛ وقد نال العزَّ عَزّاً في الدنيا، ورفعةً هائلةً، ومناصبَ وتداريس كباراً، ثم عَزَلَ نفسه، وتفرَّع للعبادة، والمجاورة بالحرمين الشريفين، فيقال له ما قلته في بعض المراثي:

ص: ١٧١

فكانك قد أعلمت بالموت حتى * تَزَوَّدَتْ له من خيار الزاد. (١) ثناء العلماء عليه: احتل الإمام أبو عمر عز الدين عبدالعزيز بن جماعة، مكانه هامة عالية في التاريخ العام، حتى سُجِّلَتْ وقائع حياته في أحداث التاريخ، بحسب وقتها من السنين، كما احتل مكانه عالية هي مكانة الإمامة في العلم، فاتفقوا على وصفه بها، وأثنوا على علمه وسيرته.

قال معاصره جمال الدين عبدالرحيم الإسنوي: نشأ في العلم و الدين، ومحبة أهل الخير، ودّرس وأفتى، وصنف تصانيف كثيرة حسنة، وخطب بالجامع بمصر، وتولى الوكالة الخاصة والعامة، والنظر على أوقاف كثيرة، ثم قضاء القضاة بالديار المصرية في جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، فسار فيه سيرة حسنة، وكان حسن المحاضرة، كثير الأدب، يقول الشعر الجيد، ويكتب الخط الحسن السريع، حافظاً للقرآن، سليم الصدر، محباً لأهل العلم، يشتغل عليهم الكثير ... (٢) ويقول الإمام الذهبي وهو معاصر له أيضاً توفي سنة ٧٤٨هـ - قبله بنحو عشرين سنة: (قدم - أي والده - علينا بولده طالب حديث في سنة خمس وعشرين، فقرأ الكثير، وسمع، وكتب الطباقي، وعنى بهذا الشأن، وكان خيراً صالحاً، حسن الأخلاق، كثير الفضائل، سمعت منه، وسمع مني ...) وأثنى عليه بالتصون والديانة. (٣) وقال ابن قاضي شبهة: قاضي القضاة، شيخ المحدثين، بركة المسلمين، عز الدين أبو عمر ...، نشأ في طلب العلم، وسمع الكثير، وحدث، وأفتى، وصنف، وكان كثير الحج والمجاورة. (٤) وهذا إمام من أئمة الفقه الشافعي، ومن أئمة الحديث والجرح والتعديل، وهو قاضي قضاة دمشق الإمام تاج الدين السبكي، المعاصر للإمام عز الدين بن جماعة يقول فيه: كان نَسَمَةً سعيدة ...، محباً

١- البداية والنهاية ٣٣٤: ١٤، وفيه سقط وتحريف قَوْمَانِه هنا.

٢- الإسنوي ١٨٧: ١.

٣- ابن قاضي شبهة ١٠٣: ٣؛ وانظر الدرر الكامنة ٤٨٩: ٢.

٤- ابن قاضي شبهة ١٠١: ٣.

ص: ١٧٢

للحديث ولسماعه، معمور الأوقات بذلك، نافذ الكلمة، وجيهاً عند الملوك، كثير العبادة، كثير الحج والمجاورة، ونال ما لم ينل أحد قبله، من مزيد السعد، مع حسن الشهرة، ونفاذ الكلمة، وطول المدّة، وكثرة السكون. (١) وقال الإمام تقي الدين محمد الحسنى الفاسى المكى: (كان سعيد الحركات، متين الديانة، كثير العبادة، له وقع فى النفوس، معظماً عند الخاصة والعامّة بحيث بلغ من أمره أنّ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أغدق الولايات فى الممالك لمن يعينه، وهو مع ذلك مطّرح الجانب. (٢) وقال السيوطى فيه: الحافظ الإمام قاضى القضاة عزالدين أبو عمر ... أخذ عنه العراقى، ووصفه بالحافظ. (٣) آثاره العلمية: أثنى العلماء على الإمام أبى عمر عزالدين عبدالعزيز بن جماعة بالفضل فى الفقه والحديث، وبدأ به على الاشتغال، قال الفاسى: وله نظم، وما زال يكتب ويُسمع، ويشغل ويصنف، حتى وفاته ... (٤) وكانت مؤلفاته فى مختلف العلوم الشرعية، والعقلية، والتطبيقية، حتى فآخروا به الأمم الأخرى ... (٥) وقد خلدت العز بن جماعة مؤلفات قيمة ومتنوعة، وصفها الإسنى بقوله: وصنف تصانيف كثيرة حسنة؛ انتهى.

ومن هذه التصانيف ما يلى:

١. كتابه الكبير فى المناسك على مذاهب الأئمة الأربعة، فى

٢.

١- ابن قاضى شبهة ٨١: ١٠.

٢- العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ٤٦٠: ٥، ومراد العبارة الأخيرة الزهد بهذه المناصب.

٣- طبقات الحفاظ للسيوطى: ٥٣٦؛ وانظر نحوه فى ذيل تذكرة الحفاظ للحسينى: ٤١، والعراقى هو الإمام عبد الرحيم بن الحسين، أمير المؤمنين فى الحديث.

٤- العقد الثمين: ٤٥٨.

٥- شذرات الذهب ١٣٩: ٧.

ص: ١٧٣

- مجلدين، وهو كتاب (هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك) ...، قال ابن قاضي شبهة: (مشمتمل على نفائس وغرائب).
٣. (تخريج أحاديث الرافي) في مجلدين، قال ابن قاضي شبهة: (وهو كتاب نفيس جليل)، قلت: وعول عليه الحافظ ابن حجر في كتابه (تلخيص الحبير).
٤. (المناسك الصغرى)، وقد طبع بتحقيق الدكتور حسين بن سالم الدهماني التونسي، ومنه نسخة خطية قديمة في المكتبة الظاهرية، قال في مطلعها: أما بعد، فهذا مختصر مناسك الحج اختصرت فيه من منسكى الكبير على مذاهب الأئمة الأربعة ورتبته على ستة أبواب ...، ويقع هذا المختصر في أربع وعشرين ومائة صفحة.
٥. (السيرة الكبرى).
٦. (السيرة الصغرى).
٧. شرح على المذهب للشيرازي، لم يكمل، قالوا: (جمع شيئاً على المذهب).
٨. تعليق على مواضع من منهاج الطالبين للنووي. وقال بعض المتأخرين: (صنف شرحاً على المنهاج لم يكمله). (١). ٩. (التساقيات في الحديث)، (٢) وهي أحاديث بينه وبين النبي تسع وسائط فقط، أخرجها أبو جعفر محمد بن عبد اللطيف بن الكوبك. (٣).
- ١٠.

-
- ١- ابن قاضي شبهة ١٠٢: ٣-١٠٣؛ والدرر الكامنة ٤٨٩: ٢، ولم يذكر أى كتاب سيرة، وذكر في كشف الظنون السيرة الصغرى ١٠١٣: ٢؛ والمناسك الكبرى ١٨٢٩: ٢ و ٢٠٣٠).
- ٢- الأعلام، للزركلي ٢٦: ٤. طبع دارالملايين.
- ٣- كشف الظنون لحاجي خليفة ٤٠٣: ١.

ص: ١٧٤

١١. (نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب). (١) ١٢. (أنس المحاضرة بما يستحسن في المذاكرة) قال الزركلى: (وهو مجلد ضخيم رأيته في مغنسيا). (٢) " (٣) ٧. الإمام العلامة الحافظ أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي، (٧٧٥ هـ - ٨٣٢ هـ)

مؤلف كتاب: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام؛ الطبعة الثانية، مقابلة، وتحقيق أيمن فؤاد سيد، ومصطفى محمد الذهبي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٩٩ م
حياة الإمام تقي الدين الفاسي المكي:

... كان الفاسي يلقب بتقي الدين، ويكنى أبا الطيب، وكان قاضي المالكية بالحرم الشريف، وقد ولد في ليلة الجمعة لعشرين من ربيع الأول عام ٧٧٥ هـ بمكة المكرمة، ونشأ بها، وتلمذ على علمائها وأهل الفضل فيها، وعنى بالحديث، فقرأ وسمع كثيراً من الكتب، وروى كثيراً من الأحاديث، وقد أجازته كثير من العلماء الأعلام، وقرأ عليهم، وأخذ عنهم، ومن هؤلاء:

١. الإمام العلامة قاضي مكة جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة القرشي المخزومي المكي. (٤) ٢. جده لأمه قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن
٣.

-
- ١- الأعلام وهو في كشف الظنون ١٩٤٠: ٢، منه نسخة في الجامعة الأردنية، كما في فهرس المخطوطات العربية المصورة ٢: رقم ٣٣٨.
 - ٢- المرجع السابق، وذكر الرقم ٥٢٨٦ وقال: أنجزه سنة ٧٦٢ هـ.
 - ٣- ٧: ١- ٨- ١٣- ١٥، ٢٢- ٢٣- ٢٧- ٣٣.
 - ٤- هو أحد أجداد ابن ظهيرة المؤرخ صاحب كتاب الجامع اللطيف، في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف الذي ألفه عام ٩٥٠ هـ.

ص: ١٧٥

أحمد النويرى الشافعى، خطيب مكة وقاضيها، عالم الحجاز فى عصره، والمؤرخ المشهور.

٤. ابن جده المذكور لأمه، وهو خال المؤلف، قاضى الحرمين محب الدين النويرى.

٥. الإمام أبوالمعالى عبدالله بن عمر الصوفى.

٦. العلامة اللغوى قاضى اليمن مجدالدين محمد بن يعقوب الشيرازى الفيروزآبادى (٧٢٩-٨١٧هـ) صاحب (القاموس المحيط). (١)

٧. العلامة المؤلف الشيخ كمال الدين محمد الدميرى المصرى الشافعى، ثم المالكى، المتوفى عام ٨٠٨هـ.

٨. العلامة إبراهيم بن محمد الدمشقى الصوفى المعروف بالبرهان.

٩. الإمام المؤرخ المشهور الشيخ ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٨هـ، صاحب المقدمة والكتاب التاريخى المشهور.

١٠. الإمام الشهاب أحمد العلانى، وروى عن كثير آخرين من العلماء الأجلاء، والفاسى مؤلف هذا الكتاب يروى غالباً عن الإمامين:

أبى أحمد البرهان إبراهيم بن محمد اللخمي، وأبى الفرج الجلال عبدالرحمن بن أحمد العربى ... وكذلك أخذ عن كثير من شيوخ

عصره وأئمة زمانه، وكان معاصراً لشيخ الإسلام الحافظ الشهاب أبى الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى المصرى المشهور،

صاحب (فتح البارى) المتوفى عام ٨٥٢هـ.

ويذكر الفاسى فى كتابه (شفاء الغرام)، (٢) أنه كان قاضى قضاء المالكية بمكة، وأنه باشر تدريس الفقه المالكى فى مدرسة السلطان

الملك المنصور بمكة عام ٨١٤هـ فى بدء إنشائها، وكان يقوم

١- راجع ترجمته فى ٣: ٣٨، وما بعدها من كتاب أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض وهو للمقرى صاحب كتاب نفع الطيب.

٢- ٣٢٩: ١ من هذا الكتاب.

ص: ١٧٦

بالتدريس فيها فيما بين الظهر والعصر من يومى الأربعاء والخميس من كل أسبوع.

وقد ألف مؤلف هذا الكتاب كتباً جليلاً مشهورة في مقدمتها:

١. كتابنا هذا (شفاء الغرام، بأخبار البلد الحرام).

٢. تاريخه الكبير المسمى (بالعقد الثمين، في تاريخ البلد الأمين) ...، وقد ترجم فيه لولادة مكة وأعيانها وعلماؤها وأدبائها، منذ ظهور الإسلام إلى عصره، وقد رتبته على حروف المعجم وبدأه بالمحمدين والأحمدين، وصدره بذكر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وفي أوله مقدمة لطيفة تحتوى على مقاصد الكتاب. [قد طبع هذا الكتاب على نفقة معالي الشيخ محمد سرور رحمه الله تعالى، وقد صورت طباعته أيضاً].

٣. تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام) وهو اختصار لكتابه (شفاء الغرام)، ويسمى أيضاً (تحصيل المرام، في تاريخ البلد الحرام).

٤. (هادى ذوى الأفهام إلى تاريخ البلد الحرام) وهو مختصر من الكتاب السابق (تحفة الكرام).

٥. (الزهور المقتطفة، في تاريخ مكة المشرفة) وهو مختصر من كتابه السابق (هادى ذوى الأفهام). (١) ٦. (عجالة القرى، للراغب فى تاريخ أم القرى).

٧. (الجواهر السنية، فى السيرة النبوية).

إلى غير ذلك من المؤلفات النفيسة التى كان (شفاء الغرام) أول كتاب يطبع فيها.

وفاته: وقد توفى المؤلف فى ليلة الأربعاء للثالث والعشرين من شهر شوال المكرم عام ٨٣٢ هـ بمكة المشرفة، بعد أن اعتمر فى السابع والعشرين من رمضان من العام المذكور، وترك وراءه آثاراً خالدة،

١- طبع هذا الكتاب بتحقيق على عمر، الطبعة الأولى، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، عام ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م.

ص: ١٧٧

وقلما عنى أحد من العلماء بتدوين تاريخ البلد الحرام في كتب مفيدة، كما عنى الفاسى عالم الحجاز وفقهه ومؤرخه العظيم. (١) ٨. القاضى برهان الدين إبراهيم بن فرحون المدنى المالكى (ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م) مؤلف كتاب: إرشاد السالك إلى أفعال المناسك، دراسة وتحقيق محمد بن الهادى أبوالأجفان، قرطاج: بيت الحكمة، عام ١٩٨٩ م. ترجمه المحقق قائلاً: قاضى المدينة المنورة برهان الدين أبوإسحاق إبراهيم بن الشيخ أبى الحسن على بن فرحون المدنى الشيخ، الإمام، العمدة الهمام أحد شيوخ الإسلام، وقدوة العلماء الأعلام وخاتمة الفضلاء الكرام، كان فصيح القلم، كريم الأخلاق؛ أخذ عن والده وعمه، والإمام ابن عرفه، وأجازته ووالده، وابن الحباب، وابن مرزوق الجدى، وابن جابر، وجماعة؛ ... عاش وهو يسكن داراً بالكراء؛ توفى فى ذى الحجة سنة ٧٩٩ هـ. (٢) ٩. الإمام أبوالبقاء محمد بن أحمد بن محمد بن الضياء المكى الحنفى قاضى مكة ومفتيها، (٧٨٩ هـ - ٨٥٤ هـ):

مؤلف كتاب: البحر العميق فى مناسك المعتمر والحاج إلى بيت الله العتيق (فضائل مكة والمدينة والقدس، مناسك الحج، حج النبى (ص)، رحلة الحجيج، تاريخ الحرمين وآثارهما)، الطبعة الأولى، تحقيق د. عبدالله نذير أحمد عبدالرحمن مزى، مكة المكرمة: المكتبة المكية، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م

يعرض محقق الكتاب لترجمته، يقتصر العرض هنا على بعض ما جاء فيها:

١- الجزء الأول،: ٢١-١٤.

٢- مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية، بيروت: دار الكتاب العربى، ت. د.: ٢٢٢.

ص: ١٧٨

ولادته ونشأته: ولد في ليلة تاسع المحرم، سنة (٧٨٩ هـ) بمكة المكرمة، ونشأ بها، وتعلم، فحفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه، والنحو، وأصول الدين على مشايخها ... ورحل مرات كثيرة إلى القاهرة لطلب العلم، وصاحب والده في بداية حياته، وكانت تلك الصحبة باب الخير عليه ...

بعض مناصبه: ناب في القضاء عن والده بمكة، ثم استقل بالقضاء بعد وفاة والده سنة ٨٢٥ هـ ...

مؤلفاته: مؤلفات العالم دليل صدق، ومرآة حقيقية تعكس شخصيته العلمية ومكانته بين العلماء ... فمن أهم مؤلفاته:

- المَشْرَع في شرح المجمع (أربع مجلدات). (١)- البحر العميق في مناسك المعتمر والحاج إلى البيت العتيق.

- تنزيه المسجد الحرام عن بدع جهلة العوام (في مجلد)، واختصر منه في رسالة صغيرة. (٢)- شرح الوافي - (الكبير و الصغير). (٣)-

النكت على الصحيح - (في الحديث). (٤)- شرح مقدمة الغزوي في العبادات، وسماه (الضيء المعنوي)، أو (الضيء المعنوي على

المقدمة الغزوية). (٥)- المتدارك على المدارك في التفسير (لم يكمل، ووصل فيه إلى آخر سورة هود). (٦)- شرح البزدوي - في

الأصول - (ولم يكمل، ووصل فيه إلى

١- الضوء اللامع ٨٥: ٧.

٢- وطبعت هذه الرسالة ضمن أوائل رسائل لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام، لعدة محققين - دار البشائر الإسلامية بيروت، وقام العمل تحت إشراف مؤسسها رمزي دمشقية.

٣- كشف الظنون: ٤٣٨.

٤- الأعلام للزركلي ٣٣٢: ٥.

٥- فهرس مخطوطات مكتبة مكة المكرمة.

٦- الضوء اللامع ٨٥: ٧.

ص: ١٧٩

القياس). (١) - تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف.

ابن الضياء المصلح المجدد: كان ابن الضياء المكي مصلحاً، مجدداً من الطراز الأول فقد حارب البدع والخرافات وبخاصة ما كان يقع من ذلك في (المسجد الحرام)، و (مشاعر الحج)، و (طرق الحج) وكان رحمه الله من أشد المنكرين على وقوع هذه المنكرات في المسجد الحرام بجوار الكعبة المشرفة ...

وفاته: توفي رحمه الله تعالى في ليلة الجمعة سابع عشر ذي القعدة سنة ٨٥٤ هـ عن عمر يناهز الخمسة والستين عاماً، قضاها في طلب العلم، والتعليم، والتصنيف، وإحقاق الحق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القضاء والحسبة، والنظر في شئون الحرم، والأربطة وغيرها.

ودفن رحمه الله من يومه - بعد الصلاة عليه عقب صلاة العصر عند باب الكعبة - بالمعلاة جوار أبيه. (٢) ١٠. الإمام علي بن عبد الله بن أحمد الحسن السّمهودي (٨٤٤ - ٩٢٢ هـ)

مؤلف كتاب: خلاصة الوفا بأخبار دارالمصطفى (ص)؛ المدينة المنورة: المكتبة العلمية لصاحبها الشيخ محمد سلطان النمكاني، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م

قدمه الشيخ حمد الجاسر، وترجم لمؤلفه قائلاً: يعتبر الإمام علي بن عبد الله بن أحمد السّمهودي من أعظم مؤرخي طيبة الطيبة، بل هو أعظم من وصلت إلينا مؤلفاته منهم.

والإمام السّمهودي ولد في سمهود من قرى صعيد مصر في شهر صفر سنة ٨٤٤ هـ، وتعلم في القاهرة، وفي سنة ٨٧٣ هـ انتقل إلى المدينة فاستوطنها، واتصل بعلماء الحرمين الشريفين وبغيرهم

١- المصدر السابق.

٢- ٢٥: ١ - ٣٠، ٣٨.

ص: ١٨٠

من علماء عصره، وقويت صلته بحكام مصر، وخاصة الملك قايتباى الذى لقي منه حظوة وعناية، واستطاع بواسطته عمل أشياء كثيرة فى المدينة المنورة.

وللسمهودى مؤلفات من أشهرها (وفاء الوفاء) و (خلاصة الوفاء)، و هو فى هذين الكتابين لم يترك شاردة ولا وارده تتصل بالمدينة المنورة مما وصل إليه علمه إلا ذكرها، بحيث أصبح كتاب (الوفاء) يعتبر خلاصة ما ألفه المتقدمون فى تاريخ المدينة، باستثناء تراجم أعيانها، ولا نستبعد أن يكون ألف لذلك كتاباً مفرداً فى ذلك، وقد توفى السمهودى رحمه الله فى شهر ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ. (١)

١١. على بن عبد القادر الطبرى، (ت ١٠٧٠ هـ)

مؤلف كتاب: الأرج المسكى فى التاريخ المكى وتراجم الملوك والخلفاء، الطبعة الأولى، تحقيق وتقديم أشرف أحمد الجمال، مكة المكرمة: المكتبة التجارية، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م
يذكر المحقق فى ترجمته الآتى:

اسمه ونسبه: هو على بن عبد القادر بن محمد بن يحيى بن مجد الدين الطبرى، الحسينى، الشافعى، المكى (ت ١٠٧٠ هـ)، يرجع نسبه إلى جماعة الطبريين، وهى من أقدم البيوت التى سكنت مكة، واشتهرت هذه الجماعة بكثرة علمائها وأئمتها، فلم تخل الأسرة الطبرية فى عصر من العصور من عالم، أو إمام، أو فقيه، أو خطيب مشهور، وأول من قدم مكة من هذه الأسرة هو الشيخ رضى الدين أبوبكر بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن على بن فارس الحسينى الطبرى، قيل فى سنة سبعين وخمسائة، وقيل فى أول التى بعدها، وقد أنجب سبعة أولاد فقهاء، قال عنهم الشيخ فخرالدين عمر بن فهد فى كتابه (البيتين فى تراجم الطبريين): (كانوا كلهم علماء مدرسين) وسرد نسبهم إلى الحسين بن على بن أبى طالب فقال:

١- الصفحة: ز- ح؛ العيدروس، محى الدين عبدالقادر، النور السافر عن أخبار القرن العاشر،: ٥٨؛ والزركلى، الأعلام ٣٠٧: ٤.

ص: ١٨١

أبوبكر بن محمد بن إبراهيم بن إبي بكر بن علي بن فارس بن يوسف بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالواحد بن علي بن الحسين بن علي بن إبي طالب، الحسيني، الطبري).

وقد كان مؤلفنا مؤرخاً، وإماماً، وفتياً، ودارساً للحديث، قام في حياته بخدمة التدريس، والإفتاء، فهو يقول: (فشرعت في العلوم الشرعية والأهم المقدم، ثم صرفت الهمة للقيام بخدمتي التدريس والإفتاء، والانتصاب لجواب من سأل، أو استفتي).

كان مقيماً بمكة، وأنه تسلم وظيفة تدريس الحديث بها سنة ١٠٤٠ هـ، أي قبل وفاته بثلاثين سنة، ومما لاشك فيه أنه كان لمؤلفنا مكانة عظيمة في مكة، ذلك لشهرة أسرته، ونجابه أفرادها علماء، وأئمة، وفقهاء، وخطباء ...

ولا شك أن لأسرة الطبري أثراً كبيراً في ثقافتنا، فهو مؤرخ، فقيه، ناثر، خطيب، مشارك في علوم أخرى، وربما كان أكثر المؤثرين في ثقافته الأصلية هو والده الشيخ عبدالقادر الطبري (ت ١٠٣٣ هـ)، ويدل على ذلك ما يطرحه المؤلف نفسه في كتابه، وكثرة أخذه عن والده، وتوافق الروح المنهجية والثقافية لديهما ...

مؤلفاته: كان لمؤلفنا اهتمام كبير بتاريخ مكة المشرفة، بالإضافة إلى اهتمامه بعلوم أخرى، أهمها الفقه، والحديث، وقد ترك لنا الطبري عدة مؤلفات تناولت موضوعات شتى، إلا أن أغلبها ينصب على تاريخ مكة، وما تختص به هذه البلدة المشرفة، ومن مؤلفاته:

١. (سيف الإمارة على مانع نصب الستارة)، قال في سبب تأليفه له: فاستفتي السيد محمد أفندي الحاضر من العلماء في نصب ساتر حول البيت "يقصد الكعبة" تكون الفعلة من خلفها عند البناء، فاختلفت آراء الحاضرين، فمن قائل بالاستحسان، ومن قائل بعدمه، وكنت من المستحسنين لجعلها، وألفت في ذلك رسالة لطيفة سميتها: سيف الإمارة على مانع نصب الستارة.

وقد ذكرها صاحب (معجم المؤلفين ١٢٦: ٧) باسم (شن الغارة على مانع نصب الستارة)، وكذلك صاحب (هدية العارفين ٧٥٩: ٥)، و (إيضاح المكنون ٥٧: ٣).

ص: ١٨٢

٢. (شرح الصدور وتنوير القلوب في الأعمال المكفرة للمتأخر والمتقدم من الذنوب)، وهي أرجوزة نحو أربعين بيتاً.
٣. (تحفة الكرام بأخبار عمارة السقف والباب لبيت الله الحرام) يقول الطبري: وقد بينت فيها جواز قلع الباب - باب الكعبة - ولو للزينة، كما صرح به العلماء.
٤. (الأقوال المعلمة في وقوع الكعبة المعظمة).
٥. (الجواهر المنظمة بفضيلة الكعبة المعظمة).
٦. (رسالة في بيان العمارة الواقعة بعد سقوط الكعبة).
٧. (فوائد النيل بفضائل الخيل).
٨. وأخيراً كتاب (الأرج المسكى في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء). ولتركه بين يدي القارئ يقدم نفسه، ولا يسعنا إلا أن نقول: إنه بالفعل أهم الكتب التي تركها لنا علي بن عبد القادر الطبري. (١) ١٢. جمال الدين محمد جارالله بن محمد بن أبي بكر بن علي بن ظهيرة القرشي، (ت ٩٨٦ هـ) مؤلف كتاب: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت العتيق، مكة المكرمة: مكتبة الثقافة، ١٣٩٢ هـ - / ١٩٧٢ م. هو جارالله بن القاضي أمين الدين بن ظهيرة المكي المخزومي الحنفي، ترجمه العلامة قطب الدين المكي في تاريخه المخصوص بالحوادث فقال: شيخ الفتيا والتدريس، ومرجع العلماء، وصفوة الفقهاء بمكة المشرفة، كان مفرد زمانه في العلم، والفضل، والدين، والتقوى؛ قرأ الفقه على الشيخ أحمد بن طولون، والشيخ محمد النجمي، والشيخ أحمد القدسي، وأكابر العلماء: كالشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الغفار، والشيخ بهاء الدين بن سالم.

ص: ١٨٣

وتصدر للتدريس والفتوى وكان لطيف الذات، حسن العشرة، عظيم المروءة، توفي بمكة ليلة الأحد ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وتسعمائة؛ انتهى.

قال صاحب النشر، قلت: وقد قلد المترجم إفتاء مكة المشرفة، وهو والد شيخ الشيوخ القاضي علي ولصاحب الترجمة فتاوى، وتاريخ منيف مسمى بالجامع اللطيف ذكر فيه فضائل مكة وما أثرها. (١) ١٣. السيد عفيف الدين عبدالله بن إبراهيم بن حسن بن محمد أمين ميرغني الحسني المتقي المكي الطائفي الحنفي (الملقب بالمحجوب)، (ت ١٢٠٧ هـ)

مؤلف كتاب: عدة الإنابة في أماكن الإجابة، الطبعة الأولى، تحقيق د. عبدالله نذير أحمد مزّي، مكة المكرمة: المكتبة المكية، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

يذكر محقق الكتاب في ترجمته للمؤلف: هو عبدالله بن إبراهيم بن حسن، بن محمد أمين بن علي، ميرغني الحسني، المتقي، المكي، الطائفي، الحنفي، الملقب: بالمحجوب (عفيف الدين، أبو السيادة) عالم، فاضل، فقيه من فقهاء الحنفية، أديب، شاعر، مشارك في أنواع العلوم؛ ولد بمكة، ونشأ بها، وأخذ عن المشايخ الأجلاء.

قال الجبرتي: حضر دروس الشيخ أحمد النخلي وغيره، وانتقل إلى الطائف، فسكنها في عام ١١٦٦ هـ، وصنف كتباً كثيرة في العقيدة، والحديث، والفقه، والآداب الدينية، إلى أن توفي في قرية السلامة، سنة ١٢٠٧ هـ.

١- غازي، عبدالله محمد، نظم الدرر في اختصار نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر: ٦-٧. مخطوط خاص؛ وانظر الزركلي، الأعلام ٥٩: ٧.

ص: ١٨٤

قال عنه النبھانی: أحد أكابر الأولياء العارفين، ... وماآثره شهيرة ومفاخره كثيرة، وكراماته كالشمس في كبد السماء، وله مؤلفات كثيرة في علوم شتى. ١٤. الشيخ محمد بن أحمد بن سالم بن محمد المالكي المكي المعروف بالصَّبَاغ (١٢٤٣ هـ - ١٣٢١ هـ) مؤلف كتاب: تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دھيش، مكة المكرمة: مكتبة الأسدى، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م

يستعرض محقق الكتاب حياة المؤلف قائلًا: اسمه، محمد بن أحمد بن سالم بن محمد المكي المالكي، المعروف بالصَّبَاغ. (١) مولده: ولد الصبَاغ - رحمه الله - بمكة سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف من الهجرة. وبها نشأ، وأما والده فلم يولد فيها بل قدم إليها من مصر. نشأته وحياته العلمية: نشأ الصبَاغ في رحاب البيت العتيق، ينهل من علماء زمانه، ومشايخ وقته، ومن العلماء الوافدين إلى البيت العتيق، حفظ القرآن، وطلب العلم، وتفقه على مذهب الإمام مالك بمكة، واشتغل الصبَاغ بالعلم، فأخذ عن مشايخ الوقت العلماء الأعيان ... قرأ على مفتي مكة السيد أحمد زيني دحلان، وقرأ على مفتي المالكية الشيخ حسين (الشفاء)، و (موطأ الإمام مالك)، و (البخارى) في الحديث، وفي الفقه (حاشية الصفتي)، و (رسالة أبي

-
- ١- مصادر ترجمته: مختصر نشر النور والزهر: ٤٠٠؛ وفيض الملك المتعالى ٧٣: ٣؛ والأعلام للزركلى ٢١: ٦؛ ومعجم المؤلفين ٢٦٢: ٨؛ ونشر الرياحين ٥٢٣: ٢؛ وفهرس دارالكتب المصرىة ١٢٥: ٥؛ ومجلة المنهل ٣٤٤: ٧، وأرّخ وفاته سنة ١٣١١ هـ وفهرس المخطوطات المصورة ٢: رقم ٦١٤؛ وفهرس مخطوطات التراجم والتاريخ والسيرة النبوية في مكتبة الحرم المكي الشريف: ٣٠.

ص: ١٨٥

زيد)، و (أقرب المسالك)، و (شرح الدردير على مختصر خليل)، وفي علم العربية (شرح القطر لابن هشام)، وغير ذلك من الكتب العظام.

وكان رحمه الله مؤرخاً، ذا ذكاء وحافظه جيدة، وكان من جملة المطوفين للحجاج المغاربة.

شيوخه: السيد أحمد زيني دحلان (١٢٣٢ هـ - ١٣٠٤ هـ)، فقيه مكة مؤرخ، ولد بمكة المكرمة، وتولى فيها التدريس، وكان مفتي الشوافع بمكة، وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة، فطبع فيها بعض كتبه، له عدد من التصانيف، منها (الفتوحات الإسلامية - ط) مجلدان، و (السيرة النبوية - ط)، و (خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام - ط) وغيرها، ومات في المدينة المنورة. (١) الشيخ عبدالقادر بن علي مشاط المكي المالكي (١٢٤٨ هـ - ١٣٠٢ هـ): الإمام بالمقام المالكي، والمدرس بالمسجد الحرام. (٢) الشيخ حسين الأزهرى (١٢٢٢ هـ - ١٢٩٢ هـ): فقيه، كان مفتي المالكية في مكة، مغربي الأصل، ينسب إلى قبيلة طرابلس الغرب، يقال لها (العصور). (٣) مؤلفاته: لم نجد للمؤلف بعد البحث في الكتب التي ترجمت له تأليفاً آخر غير هذا التأليف الذي أسماه (تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام) ... وهو كتاب فريد، قد تضمن القديم والجديد.

- ١- مصادر ترجمته: الأعلام للزركلي ١٢٩: ١ - ١٣٠؛ ومعجم المطبوعات: ٩٩٠ - ٩٩٢؛ والأعلام الشرقية ٧٥: ٢ - ٧٦ ... ولادته سنة ١٢٣٢ هـ؛ وحيلة البشر ١٨١: ١ - ١٨٣؛ وفهرس الفهارس ٢٩٠: ١ - ٢٩٢؛ وهدية العارفين ١٩١: ١؛ ومعجم المؤلفين لكحالة ٢٢٩: ١ - ٢٣٠؛ ونشر الرياحين للبلادى ٢٧: ١ - ٢٨؛ وفيض الملك المتعالى مخطوط ورقة ٣٠ - ٣١؛ وأدبيات زيدان ٢٨٨: ٤؛ والآداب العربية لشيخو ٩٧: ٢؛ وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٢٨٨: ٤ - ٢٨٩؛ وفهرس التيمورية ٢٣٨: ١، ٩٨: ٣؛ وفهرس الأزهرية ٢١٦: ٦؛ واكتفاء القنوع: ٤٢٢؛ وفهرس التصوف ١٢؛ ومجلة المنار ٣١٧: ٣٣ - ٣١٩.
- ٢- مختصر نشر النور والزهر: ٢٧٤ - ٢٧٥.
- ٣- مختصر نشر النور والزهر: ١٨٠ - ١٨١؛ الأعلام للزركلي ٢٣٠: ٢.

ص: ١٨٦

وفاته: سافر الصباغ إلى الحجاج الذين كانوا يأتون إلى مكة من المغرب لزيارتهم، وقضاء حاجاته على عادة المطوفين، وتوفي بالمغرب سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة، وبذلك يكون عمر الصباغ - رحمه الله - ثمان و سبعين سنة؛ وقد ذكر عبدالوهاب الدهلوي في مجلة المنهل أن وفاته سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة؛ وهذا خطأ محض، حيث إن الصباغ انتهى من تأليف كتابه سنة ١٣٢٠ هـ. كما هو مثبت في آخر النسخة الأصل.

أثر كتاب (التحصيل) للصباغ في المؤلفات التي أتت بعده: اعتنى المصنفون في تاريخ مكة بكتاب الصباغ (التحصيل)، وأكثروا من النقل عنه، وذلك يدل على مكانة كتاب (التحصيل) لدى العلماء:

أ- فقد أكثر الغازي (١٢٩٠ هـ - ١٣٦٥ هـ) النقل عن (التحصيل) في كتابه (إفاده الأنام بذكر أخبار البلد الحرام)، وقد بلغت المواطن التي نقل فيها من كتاب التحصيل (١٢٦) موضعاً.

ب- كما أن الكردي (١٣٢١ هـ - ١٤٠٠ هـ) نقل من التحصيل عدداً من النقول في كتابه (التاريخ القويم)، وقد بلغت عدد النقول (٦٥) موضعاً.

ج- كما أن حسين باسلامة (١٢٩٩ هـ - ١٣٥٦ هـ) نقل من (التحصيل) في كتابه تاريخ الكعبة المعظمة، (١٠) نصوص.

د- ونقل أحمد السباعي (١٣٢٣ هـ - ١٤٠٤ هـ) في كتابه (تاريخ مكة) ثلاثة نصوص، ولكن لم نثر عليها في أصل المخطوط. (١) ١٥.

العلامة المحدث المسند المؤرخ الشيخ عبدالله بن محمد الغازي المكي الحنفي، (١٢٩٠ هـ - ١٣٦٥ هـ)

مؤلف كتاب: إفاده الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام.

الطبعة الأولى، دراسة وتحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، مكة المكرمة: مكتبة الأسد، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م

ترجم المحقق يحفظه الله للشيخ عبد الله غازي ترجمة مطولاً، يقتصر العرض على ما يأتي:

العالم العلامة المسند، المؤرخ، عبد الله بن محمد الغازي المكي الحنفي؛ (١) ولد- كما ذكر بخط يده- بمكة المكرمة سنة تسعين ومائتين وألف للهجرة، أو واحد وتسعين. (٢) نشأ الشيخ عبدالله الغازي في بيت والده في جبل هندی بمكة المكرمة، وقد توفيت أمه وعبدالله لا يزال صغيراً، فنشأ يتيماً دون إخوة، فرباه والده، وأحسن تربيته، وقد تأمل والده بابنه عبدالله خيراً بعد وفاة والدته، فاهتم بتربيته وتعليمه، فعين له أستاذاً وهو صغير ليعلمه القرآن الكريم، فحفظ القرآن الكريم وصلى به في الناس صلاة التراويح في المسجد الحرام، وهو ابن الثانية عشرة من العمر ... (٣) وكان عبدالله بارعاً في اللغة العربية، وهذا قد مكّنه من نسخ كثير من الكتب بخط يده، ليحفظ بها في مكتبته، وذلك لعدم توفر الطباعة

١- مصادر ترجمته: الأعلام للزركلي ١٣٤: ٤؛ التاريخ القويم ٢٢: ١؛ نشر الرياحين ٣٠٩: ١؛ أعلام المكيين ٧٠٤: ٢؛ مجلة المنهل ٤٥٩: ٦؛ تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع: ٣٥٥؛ فيض المبدى: ٥٠؛ جريدة البلاد، عدد ٨٥٨٦ في ١٠/٥/١٤٠٧ هـ، وعدد ١٠٥٩٢ في ١٧/١/١٤١٤ هـ؛ سير وتراجم: ٢٠٢-٢٠٣؛ نظم الدرر في اختصار نشر النور والزهرة: ٢١٥ مخطوط؛ الدر الفريد الجامع لمتفرقات الأسانيد: ٨٢؛ قره العين للفاداني: ٢٣٣-٢٣٤؛ أعلام الحجاز ٨٩: ٤؛ الدليل المشير: ٢١٧-٢٢٧؛ العلماء والأدباء الوراقون للدكتور عبدالوهاب أبوسليمان: ١١٨-١٢٥؛ مذكرة بخط المؤلف، مذكرة بخط حفيده المؤلف.

٢- ذكرت أغلب مصادر ترجمة المؤلف أن مولده كان عام ١٢٩٠، بينما ذكر الكردي في التاريخ القويم أن ميلاده كان عام ١٢٩١ هـ-، والحقيقة أن المؤلف ذكر في مذكرة له كتبها بخط يده أنه ولد سنة ألف ومائتين وتسعين أو واحد وتسعين ... بل المعمول على ما ذكره الغازي بنفسه عن مولده نظم الدرر في اختصار نشر النور والزهرة: ٢١٥ مخطوط.

٣- مذكرة المؤلف، مذكرة حفيده المؤلف، أعلام الحجاز: ٨٩؛ قلت: وكانت طريقة الناس في صلاة التراويح في تلك الأيام أنهم يصلون جماعات متعددة، كل جماعة تتخذ لها إماماً، منتشرون في أوقفة الحرم وسراقاته، فمنهم المطيل ومنهم المخفف.

ص: ١٨٨

آنذاك، كما أنه أتقن اللغة الهندية من والده، (١) وقرأ بعض الكتب الفارسية، وتعلم النحو والصرف والحساب. (٢) ... كان له حلقة تدريس في المسجد الحرام عند باب الزيادة (٣) لتحفيظ القرآن الكريم؛ كما كان يدرس الحديث والفقه. (٤) وقال تلميذه العلامة الفاداني: كان لا يحضر مجلسه إلا الحاذقون ... (٥) ... لقبه المؤرخون ب- (عميد المؤرخين):

قال الأستاذ الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان: (٦) العلامة المحدث المسند عميد المؤرخين المكيين.

... قال الأستاذ طاهر الكردي: (٧) عالم فاضل، وصالح كامل، كان جارنا بمكة المشرفة.

وقال أيضاً (٨): كان صالحاً صدوقاً عفيفاً، قليل الكلام، لا يدخل فيما لا يعنيه، ولم يترك مطالعة الكتب حتى نهاية حياته.

... وفيما يلي ذكر للكتب التي ذكرتها المصادر للغازي:

١. إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام؛ في أربعة مجلدات، ونسخة أخرى في ستة مجلدات، ونسخة أخرى سبع مجلدات ...
٢. تنشيط الفؤاد من تذكّار علوم الإسناد. أو (إرشاد العباد إلى معرفة طريق الإسناد) في تراجم شيوخه ومشايخهم، في مجلدين وهو مخطوط.

٣. نظم الدرر في تراجم علماء مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر. وهو مخطوط، اختصره وسماه (اختصار نشر النور

١- مذكرة حفيده المؤلف.

٢- مذكرة المؤلف.

٣- باب الزيادة- أو زيادة دار الندوة-: كان يسمى باب سويقة، وقد أنشئ في عهد الخليفة المعتضد العباسي عام ٢٨١ هـ، تاريخ عمارة المسجد الحرام: ١٣١.

٤- مذكرة حفيده المؤلف، وتشنيف الأسماع: ٣٥٦.

٥- تشنيف الأسماع: ٣٥٥.

٦- العلماء والأدباء الوراقون: ١١٨.

٧- التاريخ القويم ٢٣: ١.

٨- مجلة المنهل ٢٣٧: ٨.

ص: ١٨٩

والزهر في تراجم أفاضل أهل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر).

وقد قام باختصار (نشر النور والزهر) أيضاً ونشره كلٌّ من الأستاذين: محمد سعيد العامودي وأحمد علي.

٤. نثر الدرر في تذييل نظم الدرر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ...

وقد أورد الغازي فيه تراجم لعلماء مكة الذين لم يرد ذكرهم في كتاب أبي الخير مرداد حيث توفي عام ١٣٤٣ هـ.

ويعد الكتاب مرجعاً لتراجم علماء مكة في عصر الغازي نفسه، حيث إنه ترجم للعلماء الذين عاصروهم في القرن الثالث عشر والرابع عشر للهجرة.

٥. مجموع الأذكار من أحاديث النبي المختار؛ وهو مخطوط ...

وفاته: بعد حياة مليئة بالجد والعمل والتأليف، بعد حياة زهد وقناعة، بعد حياة تعتبر مدرسته في التقلد من هذه الدنيا، لبلوغ المؤمن

مبتغاه من رضى المولى عزوجل، ومن تحصيل للعلم والشغف به. يُعدُّ أنموذجاً يحكى لنا ويذكرنا بالسلف الصالح رضوان الله عليهم

(كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)، انتقل من أرض البركة والنور إلى عالم الرفيق الأعلى - بعد أن مرض مدة من الزمن - في

ضحوة يوم الخميس خامس شهر شعبان سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف، عن عمر يناهز خمسة وسبعين عاماً، قضى معظمه في

التأليف والكتابة، وقد ضُمَّ إلى عليه بالمسجد الحرام في وقت العصر بإمامة السيد أبي بكر بن سالم البار، (١) ودفن بالمعلاة في دكة

الشهداء، فرحمه الله رحمة واسعة. (٢) " (٣) عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان

مكة المكرمة؛ ٧ / ٥ / ١٤٣٠ هـ - الموافق ٣ / ٥ / ٢٠٠٩ م.

١- الدليل المشير: ٢٢٣.

٢- مذكرة حفيده المؤلف.

٣- الجزء الأول، ص ٨، ١١-١٢، ١٥، ٣٥-٣٨، ٤٦-٤٨، ٥٠.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرًا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا (ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفي مصباحها، بل تتبج بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحه آية الله الحاج السيد حسن الإمامى - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعه - مكان البلايتي المتبدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقله) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في جامعه، و...

- منها العداة الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميه و الإيرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى.

- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسه

(ي) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربيه المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "پنج رمضان" ومفترق "وفائي" / "بنايه" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

